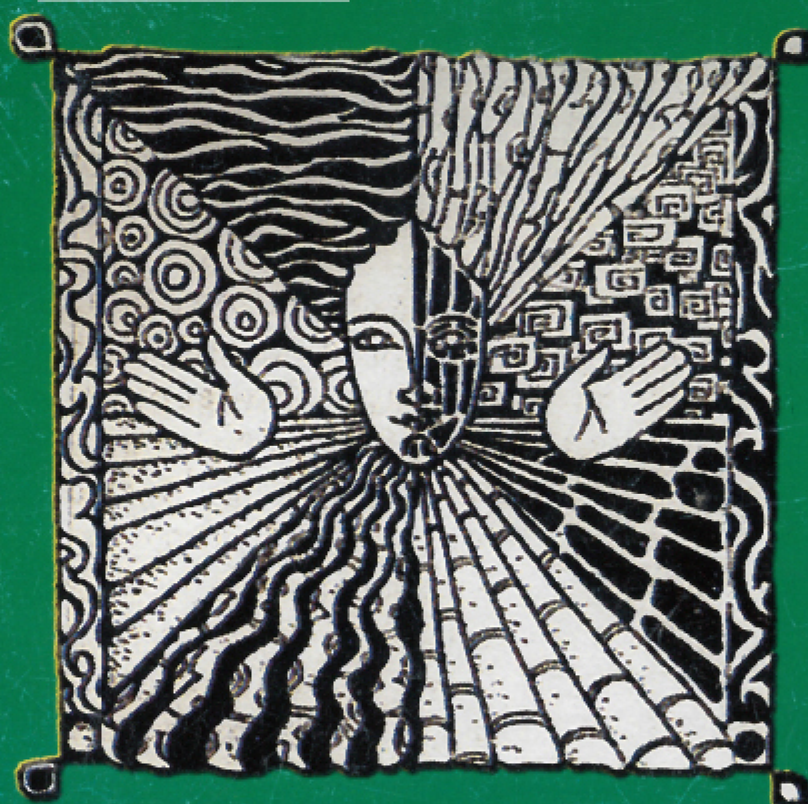
ناتاليا فيكو



عناكب فى المصيدة

(ثلاث روايات)



المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة

ترجمة : على فهمى عبد السلام

تحرير وتقديم : نهاد إبراهيم

837

المشروع القومى للترجمة

عناكب فى المصيدة

(ثلاث روايات)

تأليف: نــاتــالــيــا فيكـــو
ترجمة: على عبدالحميد فهمى
تحرير وتقديم: نهاد إبراهــيم



٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد : ٨٣٧
- عناكب فى المصيدة
- ناتاليا فيكو
- على فهمى
- نهاد إبراهيم
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب :

Пауки В Банке

Наталия ВИКО

الصادر عن : "دايجست" - موسكو ٢٠٠١

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة.

فهرس

كلمة

لماذا ناتاليا فيكو..؟ سؤال توجهنا بـه إلـى أنفسـنا قبـل البدء فى كتابة كلمة واحدة من هذا الكتـاب الـذى اسـتمتعنا بـه بحق. المسألة كلها مصادفة بحتة رتب لها القـدر الغريـب الـذى أحيانًا ما يتحفنا بلطفه ولو من باب المفاجآت السـعيدة كـل حـين قريب أو بعيد. واسـمحوا لنـا أن نـتكلم عـن أنفسـنا بضـمير الغائب، حتى لا يختلط الأمر علـى أحـد.. فـى البدايـة تقابلـت نهاد إبـراهيم بوصـفها المسـئولة منـذ سـنوات عـن إجـراء الحـوارات مـع الفنـانين الأجانـب بنشـرة مهرجـان القـاهرة السينمائى الدولى لأول مـرة مـع د. ناتاليـا فيكـو عـام ٢٠٠٣، عندما جـاءت إلـى مصـر بصـحبة فيلمهـا الروسـى المهـم ***"السـقوط إلـى أعلـى / Falling Up"*** الـذى عـرض بقسـم المسابقة الرسمية بالمهرجان ونال اهتمامًـا كبيـرًا، مثلمـا حقـق نجاحًا ملموسًا سواء فـى روسـيا أو علـى المسـتوى الـدولى. ومنذ اللقاء الأول حدث التعـارف والانجـذاب الروحـى خاصـة عندما اتضح أن ناتاليا تعشـق مصـر تاريخـا وشـعبًا، ماضـيا وحاضرًا، بجنون لم يخترعوا له دواءٍ بعد!! هـذه ليسـت مبالغـة على الإطلاق، فحتى لو استخدمنا كلمـة "الهـوس" للدلالـة علـى

عمق الجنون الفتَّاك، فهى قليلة على وصف ما لمسناه بأنفسنا داخل هذه السيدة التى تتحدث عن مصر دائمًا بصفتها "بلدى". وأخيرًا أدركنا أن بوصلة أنفاس ناتاليا قد تحولت تلقائيا ومنذ زمن بعيد وأصبحت عقاربها تتحرك من اليمين إلى اليسار، لترافق موجات اللغة العربية فى تياراتها البَلاغية الوديعة والهادرة، ولأن الإنسان مهما أتقن لغة أخرى تظل دائمًا لغته الأصلية هى أقرب وأصدق وسيلة للتعبير عن نفسه بحرية لما تمنحه له من براح خلَّاق يناوش به قضاياه ويثرثر به مع همومه، جاء دور أ.د. على فهمى الذى يتقن الروسية بمستوى راق ينافس به الروس أنفسهم. فتحول مسار الحديث من الإنجليزية إلى الروسية بعدما جمعت المصادفة البحتة بين ناتاليا وهذا المترجم الذى لا يمل الترجمة أبدا. بعدها ألقى لنا القدر بمصادفته السعيدة الثالثة عندما رتَّب لنا لقاء ثلاثيا دون أدنى ترتيب مسبق، ومنذ هذه اللحظة أصبح الثلاث أصدقاء بمعنى الكلمة، وما أدراك ما يتحمله الإنسان من مهام شاقة ولحظات عصيبة وهو راض من داخله باسم هذه الصداقة الحقيقية النادرة الوجود فى زماننا هذا.

عندما أطلقت ناتاليا فيكو العنان لروسيتها الجميلة وعباراتها البديعة التى تدهشنا ولا نعرف من أين تستلهمها

حتى ضمن حديثها العادى، أدركنا أننا لسنا فقط أمام سيناريست موهوبة، بل أمام واحدة من أهم الأديبات المعاصرات فى روسيا. من أين جاءت هذه الأهمية ولماذا؟ هذا ما سيعرفه القارئ فى أثناء قراءة رواياتها الثلاث فى هذا الكتاب، وتسبقها دراسة تقدم قراءة تحليلية موجزة لأهم ملامح وسمات أدب ناتاليا فيكو..

أخيرًا آن أوان ميلاد الاتفاق التلقائى بيننا لنتعاون معًا فى مشروع طويل المدى، هدفه ترجمة كل أعمال ناتاليا فيكو على أن نبدأ بالعمل فى هذا الكتاب. قسّمت الظروف دور كل منا فى هذه الورشة التعاونية بسهولة تامة. بداية يتولى على فهمى ترجمة الروايات من الروسية إلى العربية مباشرة، ثم يأتى دور نهاد إبراهيم فى الصياغة والمراجعة وأخيرًا كتابة الدراسة التحليلية. وقد جاء التعاون مثمرًا تمامًا عندما تكامل ثراء الخبرات الحياتية مع دقة التخصص العلمى، خاصة أن على فهمى عاش فى روسيا سنوات طويلة. ومازال حتى الآن يتنقل بين مصر وروسيا باستمرار، مما منحنا الفرصة لتكوين وجهة نظر عملية أدبية شاملة من خارج ومن قلب المجتمع الروسى ذاته، لنرصد ما حدث قبل وبعد انهيار الاتحاد السوفييتى حتى لحظتنا الراهنة.

وقد أفادتنا هذه الميزة تمامًا في الترجمة والصياغة بصفة عامة، لأن كل أعمال ناتاليا فيكو تنطلق من المادة الخام للمجتمع الروسي الحقيقي.. تتباهى بعبقه الأصيل يسيل منها وهي تتنقل برشاقة بين تاريخ بلادها الذي تتخصص فيه، وبين الحاضر الذي ترصد متغيراته بعين فاحصة وعقل واع ورؤية نافذة تختلط واقعيتها بقسوتها. كما استفدنا أيضًا بهذا التكامل بين خبراتنا وتخصصاتنا المختلفة، في ترجمة وصياغة هذه الروايات الثلاث بصفة خاصة؛ لأن كل أحداثها تدور في روسيا المعاصرة بكل اجتياحات التغير الرهيب الناتج عن انهيار الاتحاد السوفييتي السابق في بداية تسعينيات القرن الماضي. هذا التغير أو بمعنى أدق الانقلاب العنيف الذي عشش بيديه وقدميه في كل بقاع المجتمع الروسي واحتل أرواح الجميع كما سنرى.

عن أنفسنا فقد استمتعنا بقراءة أعمال المؤلفة أولاً، ثم تفرغنا فيما بعد للعمل معًا وتحملنا المسئولية المشتركة من الألف إلى الياء، مهما أرهقنا بعضنا البعض في المناقشات المستفيضة جدا حول الحرف والكلمة. ومن حسن الحظ أننا نشترك معًا في مبدأ اللاتنازل عن منهج الدقة الشديدة في العمل، والتي نعترف أنها وصلت كثيرًا إلى حد الملل بدءا

من تحديد المواعيد بالثانيـــة والدقيقـــة، ومـــرورًا بعقـــد جلســـات العمل المكثفة حتى ظهور هـــذا الكتـــاب بتوفيـــق مـــن الله ليـــرى النور. ومن خـــلال التشـــاور الـــدائم عبـــر البريـــد الإليكترونـــى والهاتف والجلسات التى جمعت ثلاثتنـــا، توصـــلنا إلـــى الصـــورة النهائية فى كل شىء بالاقتنـــاع والمنطـــق. وقـــد ثبـــت بالتجربـــة العملية أننا نحن الثلاث نشترك فـــى صـــفة عـــدم إبـــداء الـــرأى سريعًا، إلا بعد أن نقتل الأمر بحثًـــا بمنطـــق علمـــى وصـــبر. لا ينفد. ولا يهمنا فى النهاية إلا الوصول لمرحلـــة الاقتنـــاع الكامـــل فى كل تفصيلة صغيرة، بحثًا عن صـــالح العمـــل الأدبـــى وأمـــلاً فى متعة القارئ أولاً وأخيرا..

بقى أن نقول من باب الأمانـــة العلميـــة إن هـــذا الكتـــاب "عناكب فى المصيدة" صـــدرت لـــه طبعتـــان باللغـــة الروســـية. الطبعة الأولى نُشـــرت بعنـــوان "**كراســـة مصـــر**" عـــام ٢٠٠٠، كأول إبداع ناتاليا الأدبى فى سلســـلتها التـــى تطلـــق عليهـــا اســـم "***سحر اللعبة***"، وسنتعرف على مفهـــوم هـــذه اللعبـــة مـــن خـــلال الدراسة التالية. المهم أن هذه المجموعة كانـــت تضـــم الروايـــات الثلاث التى قمنا بترجمتها وصـــياغتها "***عناكـــب فـــى المصـــيدة***" و "***ليلة اكتمال القمـــر***" و"***امـــرأة فـــى قلـــب الســـعادة***"، وهـــذه الرواية الأخيرة هى التى تحولـــت إلـــى فـــيلم ســـينمائى بعنـــوان

"السقوط إلى أعلى" كتبت له ناتاليا فيكو السيناريو أيضا. هذا بالإضافة إلى روايتي ***"كراسة مصر" و"نوافذ يعقوب"*** ليصبح مجموع رواياتها في هذا الكتاب خمس روايات. وبعدما نفدت هذه الطبعة تماما أعيد طبع هذه المجموعة في العام التالي مباشرة تحت عنوان ***"عناكب في المصيدة"***، بعدما تم الاتفاق على الاكتفاء بالروايات الثلاث الأولى نظرًا لضخامة الكتاب الأول. وذلك رغم نجاحه الكبير الذي حققه في ظل المناخ الأدبي الروسي المتذبذب الذي تعرض لخلخلة كبيرة مثله مثل كل أركان المجتمع كما سيتضح تفصيليا في الدراسة اللاحقة. وبمنطق التسهيل نفسه على القارئ اتفقنا مع ناتاليا فيكو على ترجمة الطبعة الثانية التي تضم الروايات الثلاث وليس الخمس. كما اقترحنا أيضا تغيير عنوان الكتاب الذي يحمل اسم إحدى الروايات الثلاث من "عناكب في البرطمان" طبقًا للترجمة الحرفية إلى "عناكب في المصيدة"، بعدما أدركنا أنها اختارت كلمة "البرطمان" في العنوان الأصلي للدلالة على حصار المصيدة المحكمة. اعتمدت وجهة نظرنا في هذا التغيير على منطق الاختلاف الطبيعي بين موسيقى اللغات المختلفة، وعلى مدى تقبل أذن شعب لكلمة ما دون غيرها. ونعتقد أن مترجم مجموعة "عناكب في المصيدة" إلى

الإنجليزية قام بالتصرف هو الآخر في العنوان للسبب نفسه، بما يتناسب مع مُستقبل اللغة المُستخدمة واختلاف ثقافات الشعوب ومرجعية قارئ الروايات المترجمة.

وإذا عدنا لسؤالنا الأول "لماذا ناتاليا فيكو..؟" سنجدها صاحبة موهبة حقيقية وإبداع رفيع المستوى، تحمل السبق في تأسيس تيار أدبي مستقل مقترن باسمها في الأدب الروسي العريق، رغم الثراء الشديد لهذا الأدب المشهور بالصعوبة والمتعة ويعشقه محبو الأدب في كل مكان. ولا يندهش القارئ إذا وجد أي عبارة أو كلمة أو موقف يخص مصر في أي موقع من مواقع رواياتها الثلاث بشكل أو بآخر، هذا بخلاف روايتها الأخرى التي تدور بأكملها في مصر لكننا لا نود التطرق إليها الآن، ولأن مصر تتدفق دائما على لسان د. فيكو في أحاديثها العادية والصحفية والتليفزيونية مثل نهر النيل الكريم جدا بطبيعته، فقد أعلن مقدم أحد البرامج الأدبية المتخصصة بالتليفزيون الأوكراني الذي استضافها رأيه في هذا الحب المخيف وقال لها ولمشاهديه أيضا "لو علمت الحكومة المصرية أنك تتبرعين بعمل بروباجندا ضخمة لبلادها بهذا الحجم والإصرار وبلا توقف، بالتأكيد ستمنحك وساما رسميا على هذه المجهودات

التطوعية الهائلة!!". كما حكت لنا ناتاليا فى جلساتنا معًا كيف تصادف ظهورها بالتليفزيون الأوكرانى عام ٢٠٠٤ بعد حادث طابا الغريب جدا على المجتمع المصرى المسالم بالفطرة والذى راح ضحيته بعض الأبرياء، وهناك سألوها إذا كانت لا تزال مصممة على السفر لمصر بعد أيام قليلة كما اعتادت التنقل هنا وهناك؟ فأجابتهم "هل إذا مرضت والدتكم أو أصابها أى ظرف عرضى سيمتنع أبناؤها عن زيارتها..؟!!" إجابة بليغة فاجأتنا نحن أبناء الوطن، والنتيجة إحصائية رسمية تؤكد استعادة أكثر من سبعين بالمائة من السائحين الأوكرانيين تذاكر الطيران المتجهة إلى مصر بعدما ألغوا حجوزاتهم بسبب هذا الحادث. فقط لما يعرفه أهل أوكرانيا عن المصداقية الكبيرة التى تتمتع بها هذه السيدة، ولما لها من شعبية أدبية وسينمائية هائلة تمتلكها هناك.

بعد كل هذا القليل الذى صرحنا به وغيره الكثير الذى لم نذكره، هل يُعقل ألا نحب من يحبنا بهذا الشكل..؟؟!!

على فهمى، ونهاد إبراهيم
القاهرة ٢٠٠٤

ناتاليا فيكو

** اكتشاف العام **

ولدت الأديبة الروسية د. ناتاليا فيكو بمدينة لندن في العاشر من شهر أغسطس، قضت هناك ست سنوات قبل أن تنتقل مع أسرتها إلى فيينا لتقضى هناك أربع سنوات أخرى. ثم استقرت فى موسكو منذ عام ١٩٦٥ وحتى وقتنا الحالى. أنهت دراستها عام ١٩٧٧ فى المعهد الحكومى "التاريخ والوثائق" بكلية "الوثائق التاريخية "، وفى ذلك الوقت كان نظام التعليم فى الاتحاد السوفيتى سابقًا يقضى أن يضم المعهد عدة كليات، وبعد انهيار الاتحاد تحولت كل المعاهد سابقا إلى جامعات حاليا. وبعد مرور عامين سجلت ناتاليا رسالة الدكتوراه بقسم "الهيكل الحكومى والمنظومة الاجتماعية فى روسيا قبل الثورة" الذى تحول الآن إلى ما يسمى "الجامعة الروسية للعلوم الإنسانية". وحصلت على درجة الدكتوراه عام ١٩٨٢ فى زمن قياسى، بعدما تقدمت برسالة ناقشت فيها "آليات الإدارة الداخلية لمدينة موسكو خلال الفترة ما بين ١٩٠٥ حتى عام ١٩١٢". عملت فى دار نشر "دائرة المعارف السوفييتية" التابعة لمركز الأبحاث الثقافية بوزارة

الثقافة السوفييتية سابقا منذ عام ١٩٧٣ حتى عام ٢٠٠٠، لتتفرغ منذ ذلك الوقت تمامًا للتأليف والإبداع. وفي الوقت نفسه عملت لمدة ثماني سنوات بدار نشر "الموسوعة الدولية" منذ عام ١٩٩٢ وحتى عام ٢٠٠٠، وهناك مارست تخصصها في كتابة المقالات التاريخية خاصة فيما يتعلق بفترة ما قبل الثورة البلشفية عام ١٩١٧، بالإضافة إلى توليها مهمة صياغة وتحرير المقالات بأقلام الكتّاب الآخرين. وأخيرًا تقدمت للدراسة مرة ثانية بمعهد الاستشراق التطبيقي في موسكو، وحصلت عام ٢٠٠٣ على شهادة دراسية في "علم المصريات"؛ عشقها الأول والأخير.

نشرت قصتها الأولى ***"ضوء القمر"*** في العدد الثاني من مجلة "أمادى" الروسية عام ١٩٩٧، وفي هذا العام نفسه نشرت روايتها الصغيرة ***"موزاييك الحب والموت"*** في العدد الرابع من مجلة "أمادى" أيضا. وقد تم تحويل هذه الرواية إلى سيناريو سينمائي نشر بالعدد السادس من مجلة "سيناريو السينما الروسية"، ونالت عنه جائزة "المرآة" كأفضل سيناريست محترف. في عام ٢٠٠٠ افتتحت ناتاليا فيكو سلسلتها الروائية ***"سحر اللعبة"*** بنشر كتاب ***"كراسة مصر"***، الذي يضم خمس روايات ***"عناكب في المصيدة"*** - ***"ليلة***

اكتمال القمر - ***"امرأة فى قلب السعادة"*** - ***"كراسة مصر"*** - ***"نوافذ يعقوب"***، وبناء على النجاح الكبير والأصداء الواسعة التى لاقاها هذا الكتاب نفدت الطبعة الأولى تماما، وأعيد طبعه مرة أخرى فى العام التالى مباشرة بعنوان ***"عناكب فى المصيدة"*** مع الاكتفاء بالروايات الثلاث الأولى فقط لا غير. كما شهد عام ٢٠٠١ ترجمة كتابها ***"كراسة مصر"*** متضمناً الروايات الخمس إلى الإنجليزية، وإن تصرف المترجم فى العنوان بعض الشيء وحوله إلى ***"كتاب مصر / Book of Egypt"***. وفى العام نفسه ظهرت الطبعة الاولى من روايتها الصغيرة ***"موزاييك الحب والموت"*** فى كتاب مستقل.

فى العام التالى مباشرة ٢٠٠٢ نشرت ناتاليا روايتها التسجيلية ***"فريسة رفاق الصيد"*** المأخوذة من واقعة حقيقية، تناولت فيها حادث قتل الثوار البلاشفة للمليونير الروسى الكبير المعروف ***"سلافا ماروزوف"*** مؤسس مسرح "إمخات" الشهير بموسكو. وفى العام نفسه تم تصوير فيلم تسجيلى بعنوان ***"سلافا ماروزوف.. لعبة قاتلة"*** مأخوذ عن الرواية نفسها، كتبت له ناتاليا فيكو السيناريو وقدمت الفيلم بنفسها ولعبت فيه دور الراوية بالصوت والصورة. وفى عام ٢٠٠٢

أيضا تم تحويل روايتها ***"فريسة ورفاق الصيد"*** إلى مسلسل إذاعى بالإذاعة الروسية، وقد لاقى نجاحًا واسعًا مما شجع مسئولى محطة راديو روسيا لتحويل روايتها الصغيرة ***"موزاييك الحب والموت"*** إلى مسلسل إذاعى قدِّم فى العام نفسه، وللمرة الثانية يلقى العمل نجاحًا كبيرًا وتجمع الآراء على جودته وعمق تناوله. بينما اختلف الحال مع روايتها التالية ***"جسم أسود، أبيض، أحمر"***، حيث تم الاتفاق فى ديسمبر ٢٠٠٣ على تحويلها إلى مسلسل إذاعى أولاً قبل نشرها فى كتاب، أو بمعنى أدق حتى قبل انتهاء المؤلفة من كتابتها كاملة، ولم يمر عام ٢٠٠٤ حتى صدرت رواية ***"جسم أسود، أبيض، أحمر"*** من دار نشر "صوفيا" المعروفة فى موسكو بتخصصها فى إصدار كتب عن مصر وغيرها من الكتب، كما شهد العام نفسه نشر روايتها ***"بيت صغير فى الريف"*** بمجلة "الزمن الخاص" الروسية.

فى عام ٢٠٠٢ بدأ تصوير الفيلم الروائى الطويل ***"السقوط إلى أعلى / Falling up "*** الذى كتبت له فيكو سيناريو مأخوذًا من روايتها ***"امرأة فى قلب السعادة"*** التى تحتل الترتيب الثالث والأخير فى كتابنا هذا، ونالت عنه ناتاليا جائزة "ستاجارى" لأفضل سيناريو من مهرجان

أوكرانيا السينمائى الدولى. وعند تسليمها الجائزة أطلق عليها رئيس لجنة التحكيم الدولية لقب " ***اكتشاف العام*** "، ومنذ هذه اللحظة أصبح هذا اللقب هو اسم الشهرة الذى يصاحبها فى كل مكان، وقد شارك الفيلم نفسه بقسم المسابقة الرسمية بمهرجان القاهرة السينمائى الدولى عام ٢٠٠٣، وأجرت ناتاليا فيكو العديد من الحوارات الصحفية والتليفزيونية عبر وسائل الإعلام المصرية، رغم قصر الفترة التى قضتها فى مصر فى أثناء انعقاد المهرجان. وفى أحد هذه الأحاديث صرَّحت ناتاليا لأول مرة أنها قاربت على الانتهاء من رواية "***جسم أسود، أبيض، أحمر***"، فعرفت الإذاعة الروسية بالخبر وسارعت بالاتفاق معها لتحويلها إلى مسلسل إذاعى قبل نشرها فى كتاب كما ذكرنا. ومن بين كل الأفلام التى أنتجت فى روسيا عامى ٢٠٠٣ و٢٠٠٤، تم اختيار فيلمها "***السقوط إلى أعلى***" مع فيلمين روسيين آخرين فقط لا غير كأفضل ما تم إنتاجه على مدى عامين فى صناعة السينما الروسية، وعُرض الثلاث ضمن "أسبوع السينما الروسية" بمدينة فيرونا الإيطالية عام ٢٠٠٤.

يومًا ما عكف أحد مخرجى المسرح الفرنسى على ترجمة روايتها "***ليلة اكتمال القمر***" إلى اللغة الفرنسية، وقام

بتحويلها بالفعل إلى نص مسرحى ليعرض على أحد مسارح مدينة بوردو، على أن ينشر النص فى كتاب مستقل فى وقت لاحق. لكن خلافًا ما وقع بين المخرج وأحد الناشرين تسبب فى تأجيل المشروع بعض الشيء. وفى عام ٢٠٠٤ تُرجمت روايتها ***"موزاييك الحب والموت"*** إلى اللغة الإنجليزية، وجارى الآن ترجمة روايتها ***"جسم أسود، أبيض، أحمر"*** إلى اللغة الصينية.

صدر العديد من الدراسات عن أدب ناتاليا فيكو وذلك رغم سوء المناخ الثقافى المهيمن على الواقع الروسى حاليا، كما ذكرت بنفسها صراحة فى إحدى الندوات الأدبية الدولية. وقد استعنا ببعض المقتطفات القليلة منها فى الدراسة التحليلية التالية. ولكل من يحب أن يستزيد من معلومات عن الأديبة الروسية، يمكنه زيارة موقعها الخاص على شبكة الإنترنت على عنوانها " ***www.nathalievico.ru*** ". يضم الموقع العديد من الصور الفوتوغرافية وكافة البيانات التفصيلية عن ناتاليا باللغة الروسية، وجارى الآن ترجمة الموقع إلى اللغتين العربية والإنجليزية.

تتصدر الصفحة الرئيسية للموقع رسمة كبيرة لـ "ملكة الشطرنج"، تقف شامخة مهابة وحيدة بدون مليكها الحصين. وهذه هى القطعة نفسها التى نطلق عليها فى اللغة العربية لقب "الوزير"، ونجدها فى الرسم تنقسم رأسيا إلى اللونين الأبيض والأسود بالتساوى. هذه الأيقونة الدالة هى الشعار الرئيسى الذى اختارته الأديبة الروسية ناتاليا فيكو لموقعها الرسمى على شبكة الإنترنت، واحتفظت به بالشكل والتكوين نفسيهما كعلامة ثابتة فى كتبها حيث تقف "الملكة" المنشطرة على نفسها بهدوء وترقب بجوار اسم سلسلة أعمالها الروائية التى تطلق عليها ***"سحر اللعبة"***.

تقديم

ليس الهدف من تقديم هذه الدراسة الموجزة لروايات ناتاليا فيكو الثلاث هو تحليل كافة أرجاء الأعمال الأدبية مجتمعة، لكثرة عدد الروايات من ناحية مع اختلاف أحجامها، ولأننا لا نريد تخصيص هذه الدراسة لفك شفرة نص أدبى واحد دون غيره؛ لأن هذه الدراسة تسبق بحكم ترتيبها الأعمال الأدبية ذاتها، ومن ناحية أخرى لا نود المصادرة على وجهة نظر القارئ كى يلتقط من الروايات الثلاث ما يشاء، ويفتح لها قنوات التلقى ويتفاعل معها بإيجابية بما يتناسب مع شخصيته ومكوناته ومفاهيمه الخاصة. لكن الهدف المنشود من هذه الدراسة هو البحث عن خطوط مشتركة بين الروايات الثلاث بنظرة جمعية شمولية، وفى محاولة الإجابة عن بعض التساؤلات التى تولدت فى الذهن فى أثناء صياغة هذه الأعمال، والعثور على بعض المفاتيح الفنية الفكرية التى تسهم فى زيادة متعة تلقى العمل الفنى بعد تنوير بعض النقاط التى وقع عليها اختيارنا لأهميتها. وسنعتمد فى هذه الدراسة على منهج النقد التفاعلى الذى يمزج بين النص الأدبى وسياقه العام المحيط فى مجتمعه

حتى لا يأخذنا أى تيار على حساب الآخر، وسنرى كيف ستسهم هذه الرؤية المتعددة الاتجاهات فى تنوير الكثير من مناطق العمل الأدبى بوعى، وتحليل طبقاته المتعددة والمختلفة برؤية فنية سوسيولوجية مزدوجة. لكن ذلك لن يتضح إلا بفتح باب التحاور بين استقبال العمل الأدبى والسعى وراء تفهم أحوال المجتمع الروسى فى الوقت الراهن بصفة خاصة، بوصفه الزمان المسيطر على أحداث الروايات الثلاث. "إن التفاعل بين المناهج الأدبية المختلفة شىء أساسى، لأنه لا يمكن الوصول إلى الموضوعية إلا عن طريق الحوار" [1]. كما سنستعين بأسلوب متداخل فى التحليل يقوم على أساس فرضية منهجية قدمها الناقد الفرنسى المعاصر مايكل ريفاتير فى كتابه – Semiotics of Poetry ،"University Press – 1978)Bloomington: Indiana وقد ترجمت الناقدة فريال جبورى غزول الفصل الأول منه والذى يطرح فيه هذه الفرضية من خلال كتاب "أنظمة العلامات فى اللغة والأدب والثقافة" – مدخل إلى السيميوطيقا – إشراف سيزا قاسم / نصر حامد أبو زيد – دار إلياس

---

(1) Peter V. Zima: Literarische Aesthetik. Tuebingen und Basel – Auflage 2 – S. 365

العصرية – ١٩٨٦). ورغم أن ريفاتير طرح آراءه النقدية على الشعر كما هو واضح من عنوان كتابه، فإن أ. د. نهاد صليحة أثبتت صحة تطبيقها أيضًا على النصوص المسرحية فى كتابها "أضواء على المسرح الإنجليزى" – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٠، واستعانت بهذه الفرضية مع غيرها فى تحليل النص المسرحى "هاملت" لوليم شكسبير. وبالمنطق نفسه سبق لنا تطبيق الفرضية نفسها عند تحليل النص المسرحى الشهير "السلطان الحائر" لتوفيق الحكيم، وأثبتت نجاحًا كبيرًا فى تقديم صياغة مختلفة ورؤية موسعة لكافة أرجاء العمل الفنى والربط بين أنحائه بسلاسة وعمق. وبالمنطق والهدف نفسيهما نسعى إلى تطبيق الفرضية نفسها هنا فى تحليل الرؤية الداخلية والخطاب الفكرى والتكنيك الفنى وتوظيفه فى الروايات الثلاث، حيث تنص فرضية ريفاتير على أن القصيدة تتولد من تحول جملة حرفية صغرى إلى إسهاب / Periphrase مطول معقد وغير حرفى.

لا شك أن التطورات التى يمر بها العالم الآن سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وإنسانيا تركت آثارها الثقيلة على كل فرد وكل شيء، فقد تمت الإطاحة بمنظومة الحكم الشيوعى فى الكتلة الشرقية سابقًا، وتخلخلت كافة الأيديولوجيات وانهارت الأفكار التى قام عليها تاريخ تلك الدول فى القرن الماضى. وحتى الآن مازال المجتمع الروسى بالتحديد يتعرض لهزات عنيفة من داخله منذ انهيار الاتحاد السوفييتى السابق فى بدايات تسعينيات القرن الماضى، وهو ما ينعكس بطبيعة الحال على الأدب بصفة خاصة أو "**أدب ما بعد الانهيار السوفييتى / Post-Soviet Literature**" كما أطلق عليه النقاد. وبعدما كان الأدب الروسى يتميز كعادته بالتركيب والعمق واستثارة المشاعر الإنسانية التى تصل إلى حد إجهاد القارئ إجهادًا ممتعًا فى ظل نظام الحكم الشيوعى بكل ما فيه من إيجابيات وسلبيات، أدت سيطرة نظام الرأسمالية المطلقة على البلاد فى الوقت الراهن إلى تراجع أدبى واضح. فانحسرت الأعمال الجيدة وتقلص الاهتمام بالمبدعين الموهوبين الحقيقيين، وتوارت الدقة فى اختيار الأعمال التى تصلح للنشر، وانتشر نظام الورش الأدبية التى تغتال إبداع المؤلفين المغمورين وتنسب أعمالهم إلى غيرهم

من أصحاب الأسماء المرموقة، وبالتالي بسطت الرواية البوليسية التي تتناول الجرائم العنيفة والأحداث الدموية المثيرة يدها على المجتمع الأدبي الروسي، واحتلت مقعد الصدارة على مستوى النشر والمبيعات جنباً إلى جنب مع الروايات الجنسية التي تدغدغ الحواس وتغيِّب العقول. وهذه نتيجة طبيعية وبديهية للتحول المفاجئ الذي أصاب البنية التحتية للمجتمع الروسي فكرياً وحياتياً في كل شيء، مع تعرُّض مواطنيه لحركة التقاف مباغتة صادمة بلغت ثلاثمائة وستين درجة مرة واحدة دون أدنى تمهيد؛ فالتوت قدم الغالبية العظمى من الشعب الروسي دون سابق إنذار. ولا نريد أن نطيل في تأثير هذا الزلزال الأيديولوجي على المجتمع الروسي من الناحية النظرية المجردة، لأننا سنتناوله بشيء من التفصيل والتطبيق العملي في السطور التالية بوصفه الأساس الفكري الذي تقوم عليه الروايات الثلاث. وبدون الانتباه لهذه الزاوية الخطيرة وهذا المحور المركزي لن يستقبل القارئ إلا الطبقة السطحية الأولى الهشة من روايات ناتاليا فيكو، وسيحصر تأويله في مجرد صراع بين رجل وامرأة، أو في سباق البشر المعتاد على المال، أو في شرنقة الجريمة التقليدية بطرفيها المعتادين "الصياد والفريسة".

وبالتالى ستتجرد هذه الروايات العميقة من مدلولاتها الهادفة وإيحاءاتها المركبة التى تحمل قيمتها الحقيقية، خاصة إذا استقبلها البعض بتسرع وضمها لطابور الأعمال البوليسية المعتادة التى تقوم على التشويق كهدف وليس كوسيلة فنية تسير حسب خطة فنية مدروسة من خطوة إلى خطوة. وهذا الاستقبال الضيق الأفق هو ما قرأناه بالفعل فى بعض المقالات الروسية التى لم تتمكن من التوغل تحت القشرة الخارجية المزيفة للأعمال الأدبية التى تدعى البساطة وأحادية المنظور على السطح الظاهرى فقط.

"إن بنية العمل الفنى، لا تنفصل عن رؤية مبدعة للمجتمع الذى يعيش فيه، ولا تخلق لنفسها وجودًا فى ذاته دون جدل مع الموضوع الذى تقدمه تلك البنية، أو المحتوى الدلالى الذى تعبر عنه دالات تلك البنية" (٢).

ورغم سوء الأحوال التى يمر بها التيار الأدبى فى المجتمع الروسى المعاصر، يحاول المبدعون الموهوبون

---

(٢) سوسيولوجية الفنون المسرحية تحولات البنية وحضور المتلقى – حسن عطية – سلسلة كتابات نقدية – ١٤٥ – الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٤- ص٧-٨.

الحقيقيون هناك الصمود أمام تلك الغزوات الشرسة التى تتكتل عن عمد لمحو الهوية القومية وإلغاء العقول وتسطيح الأجيال وترسيخ وجود الكتب التجارية الرخيصة فى كل مكان. وفى المقابل يشهر المبدعون الروس الحقيقيون سلاح الفكر والقلم ضد طوفان التيارات الفاسدة بإصرارهم على الارتقاء بعقلية القارئ وانغماسهم الإيجابى فى هموم قضايا وطنهم، بالإضافة إلى قدرتهم على رصد الواقع وتحليل جزئياته وامتلاك رؤية استشرافية للمستقبل تقوم على أساس التأنى والتقييم السليم ونقاء البصيرة. من هذا المنطلق لم تكتف الأديبة ناتاليا فيكو بعدم الانجراف فى زحام التيار العام ورفض الانحناء تحت وطأة الآثار السلبية للمد الرأسمالى الساحق، لكنها نجحت أيضا بشهادة النقاد الجادين فى تأسيس أسلوب أدبى مختلف أطلق عليه نقاد الأدب الروس "ما بعد الحداثة / الحجرة، أو ما بعد حداثة الحجرة / **Chamber Post Modernism**"، وهو المصطلح الذى يجمع بين اتجاه أدب ما بعد الحداثة والتصنيف المعروف لموسيقى الحجرة. فإذا كان ما بعد الحداثة يعبر عن النظام الاجتماعى الجديد للرأسمالية فى مرحلتها المتقدمة وتطور العصر الرهيب الذى يلهث وراءه الفرد ولا يلحق به لا من حيث الإيقاع ولا من

حيث درجة القبول، كان من الطبيعي أن يتعالى إحساس الإنسان بالوحدة والغربة ويزداد إلحاحه الداخلي في البحث عن ذاته من جديد بعدما ضلت طريقها داخله وخارجه. بالتالي كان لابد من وقوف العمل الأدبي على أرض الواقع بالقرب من القارئ في أي مكان بصفة عامة، بما لا يتنافى مع مستويات التأويل المتعددة بالطبع، وبعيدًا عن الغموض الذي يسيطر على عالمنا المحيط ومصير الإنسان بما فيه الكفاية. ومن أهم مميزات أدب ناتاليا فيكو قدرتها على تحديد هدفها في تقديم تحليل نفسي عميق لسيكولوجية المواطن الروسي، ومرونتها في التنقل بحرية وسلاسة بين أروقة الزمان والمكان المختلفة، وتعدد الخطابات والأصوات السردية مع انتهاجها أسلوب خلق القصة داخل القصة لتكوين عدة طبقات متداخلة متشابكة في الوقت نفسه. بعض من هذه السمات العامة وغيرها سيتضح في قراءتنا التحليلية لأعمالها الثلاث هنا بقدر أو بآخر دون الكشف عن الأحداث بالطبع، والبعض الآخر سيعلن عن نفسه بوضوح أكبر في أعمالها التي تلت هذه الروايات الثلاث المختارة.

إذا حاولنا تطبيق فرضية ريفاتير التي نستعين بها كما ذكرنا، فهل نستطيع تطبيقها على الروايات الثلاث

مجتمعة؟ أم أننا سنستخلص جملة محورية حرفية صغرى مكثفة تحولت إلى إسهاب فى كل رواية على حدة؟ للإجابة على هذ التساؤل سنجد الخطاب الفكرى المطروح يقودنا فى الأعمال الثلاث للتمسك بالاختيار الأول، أى استنباط جملة محورية واحدة فقط لا غير تنطبق على كتاب "عناكب فى المصيدة" كله. لأن الأساس الفكرى والبنية المركبة التى انتظمتها الأديبة لا تخرج دائمًا عن المجتمع الروسى المعاصر الذى يلعب دور البطولة المطلقة بلا منازع فى أعمالها. مهما كثرت الشخصيات أو قلَّت، مهما حملت من أسماء متعددة أو ظلت مجهولة حتى النهاية، مهما احتلت أطراف الصراع مساحة فاعلة مؤثرة فى دائرة العلاقات الإنسانية المتشابكة؛ وإلا لما كان هناك سبب منطقى قوى وحتمية فنية مبررة تدعو للربط بين هذه الروايات الثلاث فى كتاب واحد.

ومن الرواية الأولى "عناكب فى المصيدة" وقع اختيارنا على العبارة التالية، لتكون الأساس الذى سنبنى عليه بقية القراءة التحليلية تطبيقا لفرضية ريفاتير.. يقول أندريه أوليجوفيتش صاحب البنك موجهًا حديثه إلى زوجته سفيتلانا

وشقيقه يوريك، قبل أن يوصيهما بفتح خزانته معًا في حالة تعرضه لأية مخاطر:

"تعرفان طبعًا أننا نعيش الآن في زمن كل شيء فيه ممكن الحدوث..!".

نتوقف بهدوء أمام هذه الجملة المعبرة التي تلخص بذكاء وتكثيف شديد حقيقة ما آل إليه المجتمع الروسي بعد انهيار الاتحاد السوفييتي السابق، وكيف تسببت الرأسمالية التي هبطت بالبراشوت على الرءوس في اختطاف الإحساس بالأمان لدى الجميع بالإكراه. فقد أصبح كل فرد يتوقع أي شيء في أي وقت، لأنه لم يعد يعرف حقيقة من يعيش معه أو حوله بعدما تساقطت الأقنعة بعنف وبعدما تزايدت الأقنعة بعنف أيضا.. وقد ظهرت في المجتمع الروسي طبقة الفقراء الذين لا يعرفون كيف يواجهون خطر الحياة وخطر الأغنياء الجدد أو "أهل القمة / Elite" الذين ظهروا على السطح الموازي نتيجة الانفتاح الاقتصادي المخيف الذي أغرق البلاد دون أن يكون أحد مهيأ لذلك على الإطلاق. والمفارقة الساخرة أن طبقة الأغنياء أيضًا أصبح شعارها الوحيد "الخوف من كل شيء"، خاصة وهم لا يعرفون كيف يواجهون خطر الحياة وخطر الفقراء الجدد!

ولعل لقب "أهل القمة" الذى يُطلق على الطبقة المنتفعة من هوجة الرأسمالية فى روايات ناتاليا فيكو طبقا للقبهم الجديد فى الواقع الحقيقى، يُذكِّر القارئ المصرى مباشرة بالظروف نفسها التى مر بها مجتمعنا بعد انتصار عام ١٩٧٣، وتطبيق نظام الرأسمالية، والانفتاح دون تمهيد مسبق، إلى آخر هذه الملابسات التى نعرفها ونحفظها عن ظهر قلب. وهو ما تسبب فى انقلاب الهرم السياسى والاجتماعى والثقافى والاقتصادى والإنسانى والسيكولوجى رأسًا على عقب، ومع هذا الانقلاب ضاع البعض واستفاد البعض وغضب البعض وانعزل البعض وانتفض البعض وانقرض البعض.. المهم أن هذه الطبقة الاقتصادية - مع الارتجاج الحضارى والاغتيال الفكرى والهزيمة الإنسانية - تركت بصمات أظافرها وحوافرها داخل أجيال مصرية مختلفة، ومازلنا حتى الآن نتشرب جرعات إيجابيات وسلبيات هذا الهرم المقلوب.. ولعلنا نذكر أن الفيلم السينمائى المصرى البديع "أهل القمة" إنتاج عام ١٩٨١، قصة نجيب محفوظ وإخراج على بدرخان، أطلق على الطبقة الانتفاعية الجديدة بعد الانفتاح الاسم نفسه بالضبط رغم الفوارق التى لا محل لذكرها هنا بين المجتمعين، ووضعها عنوانًا صريحًا

للعمل السينمائى ورفعها لافتة صريحة جامعة مانعة تؤرخ للعصر كله بقسوة مريرة.

وفى ظل مجتمع قمعى استبدلت فيه شريحة كاملة من مواطنيه علم بلادها بورقة الدولار ذات السيطرة الكاسحة التى لا تصد ولا ترد، من الطبيعى أن تكون لغة المال المصحوبة بلغة الغضب هى منبع المكونات الأساسية والمفردات المهيمنة على القاموس الشعبى الذى يتعامل به الجميع؛ لكن بمنظور مختلف وزوايا متقلبة. فالخطاب الفكرى الذى اجتمعت الروايات الثلاث على طرحه هو سيطرة الزعزعة الداخلية لدى المواطن الروسى، وارتفاع نبرة الاعتراض نتيجة تزايد الكبت داخل النفوس والخوف من الآخر والخوف من الذات أيضا. مما أفقد الكثيرين القدرة على احتواء هذا الغضب، فتحولت هذه الشحنات المحبوسة إلى انفجارات متوالية بين الأنا والآخر تتناثر على دفعات مفاجئة فوضوية مختلفة. ولأن النفس البشرية محيرة كعادتها ولا تعرف جمود نتائج جدول الضرب الراسخ كالوتد فى مكانه لا يتغير ولا يتأثر، فقد تدافعت الانفجارات بطرق وأساليب متعددة حسب التركيبة الداخلية للشخصيات المختلفة والصراعات التى تخوضها مع الأطراف الأخرى. من هذا

المنطلق حرصت الأديبة الروسية ناتاليا فيكو على رصد أحوال مجتمعها بدقة فى رواياتها الواقعية المعبرة عن المنظومة الروسية المعاصرة، ليس من خلال مرآة محاكية تعكس السطح الظاهر وإنما من خلال رؤية نقدية كاشفة تتحرك بحريتها بين الماضى والحاضر والمستقبل، وتتساءل باستمرار بين السطور "كيف كنا؟ كيف أصبحنا؟؟ وكيف سنكون؟؟؟".. بذلك نستطيع إدراك أن مفهوم وأبعاد الصراعات المطروحة بين البشر فى الروايات الثلاث، أكبر كثيرًا من مجرد معركة على خزانة تعوم فيها الأموال

أو مجرد ميراث ضخم يسيل اللعاب، فالتأويل الأعمق للأحداث الجارية داخل المجتمع الروسى سيحيلنا بالتبعية لتصنيفها على أنها صراعات سياسية وجودية بالدرجة الأولى. وبما أن الحياة التى يحياها المجتمع الروسى الآن لم تعد تعرف غير لغة القلق وأحيانًا الخوف والسباق المحموم والحزن الداخلى الجاثم على النفوس والغربة الداخلية رغم محاولات التكيف المستمرة، فلابد أن يولِّد صراع البقاء بين الأطراف المتنازعة فى روايات ناتاليا فيكو نتيجة واحدة فقط لا غير هى "إما أنا وإما أنا".. فلم يعد هناك وجود ولا مساحة تسامح تترك فرصة لاختيار نتيجة أخرى تقوم على

أساس المشاركة تربط بينهما واو المعية التى تؤنس الوحدة وتفترض إمكانية "أنا وأنت"، وما أخطر أن يكون وجود شخص مرتبطًا شرطيا بانتفاء الطرف الآخر تمامًا؛ هذا هو النموذج المجسم لعالم الفرد الأعزل الذى يعيش وحده فى عالم غريب مظلم وموحش للغاية، ونلاحظ هنا على مدى الروايات الثلاث حرص المؤلفة على تشريح أحوال مجتمعها الروسى بحساسية ومهارة، وبذلها جهدًا واعيا فى الابتعاد بالدال.

أو الكلمة المرسلة عن مدلول الترجمة الحرفية المعتادة والاستقبال التقليدى، وإنما تمنحها براحًا فكريا فنيا طبقًا لتيارات وتوجهات السياق المطروح كدال متنوع دينامى ثرى يفصح عن قوة مدلولاته المتعددة المركبة حسب مستويات التأويل، فهذه الأعمال التى تهتم بالإبحار داخل النفس البشرية ببراعة وذكاء، تحمل بعدًا سياسيا رئيسيا واضحا متولدًا من قلب الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية بوصفها مكونات هيكل المجتمع ككل. وهو ما يُعلى من قيمة الروايات الثلاث خاصة أنها تعتمد على طرح مواقف تبدو فى الظاهر عادية ومتداولة تمامًا، تحدث لكل فرد فى المجتمع الروسى وربما فى أى مجتمع آخر. لكنها

فى حقيقة الأمر اعتيادية مضللة من فوق البرواز الخارجى، تحمل قصدية واضحة هدفها الابتعاد عن الألفاظ الرنانة وتجنب التوجهات المباشرة وتحاشى المصطلحات الضخمة وتهميش ذكر الأحداث العامة. فهى مواقف حياتية متبلورة تستمد أهميتها مما يسبقها وما يليها، تبدأ من المواطن الروسى خاصة والإنسان البسيط عامة وتنتهى عندهما أيضا فقط لا غير.

فى مجتمع القلق والغضب والفقر وفجوة الطبقات وتخبط الثقة، يكون ارتفاع معدل الجريمة بكثرة وتزايد نوبات الثورات الإنسانية المضادة بأى صورة من الصور أمرا طبيعيا. ومن بين صور الاحتجاجات المطروحة صراحة فى رواية "عناكب فى المصيدة" ضد اللاأمان المستشرى فى المجتمع الروسى، ارتداء الشقيق الأصغر يوريك قميصا واقيا من الرصاص يسير به باستمرار ولا يخلعه مهما حدث. كما سنلاحظ أيضًا اعتماد نظام الشركات والبنوك وكل الهيئات المهمة فى المجتمع الروسى، على نظام الحراسة المشددة داخل العمل لحماية الشخصيات الحيوية ونقل خطوات الآخرين إليهم تفصيليا. كى يكونوا عيونهم المتلصصة فى كل مكان ويلعبوا دور حائط الصد الأسمنتى الأول، أمام أى غزو

خارجى متوقع أو غير متوقع بدلاً من الإصابة بمفاجآت غير سارة.

"حبيبى أندريه أوليجوفيتش.. يوشين، يا سر سعادتى، أنتم أيضا انتشر عندكم وباء المراقبة؟

سؤال سفيتلانا مصحوب بابتسامتها الساخرة..

- نعم.. لا.. أقصد أن الموقف أصبح أمرًا واقعًا لا مفر منه.

يوريك: - لقد توقعنا هذا المصير!!

فك يوريك أزرار قميصه وإذا بسترة كبيرة واقية من الرصاص تطل من تحته".

وفى رواية "امرأة فى قلب السعادة" نجد البطلة جينيا تستجير من حارسها الخاص الذى وضعه لها زوجها بالإكراه، لمجرد أن الزوج رجل ثرى يحتل منصبًا مهما فى إحدى الوزارات الحكومية. كما نلاحظ أيضًا تنبيهات الزوج المستمرة على زوجته باستخدام جهاز إظهار رقم الطالب خاصة فى أثناء غيابه، وألا ترد أبدًا على رقم مجهول لا تعرفه خوفًا من الأعداء المتزايدين يومًا بعد يوم. هذه الوقائع

بالتحديد أى ارتداء ملابس واقية للرصاص واستعانة الأغنياء بحارس خاص ملازم فى البيت والعمل وكل مكان خوفا من اختطافهم أو قتلهم على يد الفقراء الغاضبين الحاقدين جدا، هما الظاهرتان المرتبطتان اللتان شهدهما المجتمع الروسى بالفعل بعد الانهيار الشهير، ودائمًا لغة المال هى العامل المشترك الذى لا يتغير أبدًا فى إرساء دعائم الخوف القاتل داخل النفوس، ففى السنوات الأولى التى تلت انهيار الاتحاد السوفييتى بصفة خاصة اختفت المرحلة الوسطية، وأصبح المواطن الروسى من داخله مثل كل شخصيات الروايات الثلاث حزينًا جدا، غاضبًا جدا، متقلبًا، قلقًا جدا، عنيفًا جدا. وللعنف مظاهر وأشكال لا حصر لها ولا عدد، أبسطها النوع الظاهرى الذى يستطيع الإنسان اكتشافه على الأقل داخل نفسه أو داخل غيره والتعامل معه بشكل أو بآخر. أما النوع الأخطر فهو العنف الداخلى المكتوم الأخرس المختفى خلف هدوء مزيف، فهو كالبركان المتأنق الذى يذهب إلى حفل تنكرى مرتديا ثوبًا ثلجيا ناصع البياض؛ لكنه فى النهاية مجرد تنكر أو قناع لصيق يضعه وقت اللزوم. ومهما طال الزمن فلابد للحفل أن يسدل ستاره فى لحظة ما جبرًا

أو اختيارًا، وعندها سيأتى دور المواجهة **الصريحة** بين المغضوب عليه والمغضوب منه وجهًا لوجه **لا محالة؛** وهو ما يتكرر بتنويعات مختلفة فى مشاهد صدامات الذروة الأخيرة بين أطراف الصراع فى نهايات الروايات الثلاث. وبما أن المجتمع الروسى الآن لا يتعامل إلا من خلال طبقة "أهل القمة" و"أهل القاع"، فقد تسبب ذلك فى نسيان **الطبقة** المتوسطة التى ضلت طريقها على حدود العالمين معًا، والتى تتفرغ عن كثب لمراقبة دنيا المناصب والطبقات والسلطة بفمٍ مندهش انفتح رغمًا عنه بفعل المقارنة الظالمة والإبهار الخاطف؛ ومع قلة حيلة الفم المفتوح على مصراعيه وانعدامها تقريبا لم يعد هذا الفم المصدوم يعرف الطريق إلى زر الإغلاق كى يضع حدا لعذابه المستمر!

"يعنى التشويق (Suspense)، حسب تحديد معجم لاروس (Larousse)، وقتًا من الفيلم أو الرواية أو غيرهما... يتوقف فيه تتابع الأحداث لحظة، مما يضع القارئ أو المشاهد فى قلق انتظار ما سيحدث. ويجدر بنا التوقف فى هذا التحديد عند مجموعة من الكلمات، نظرًا إلى أهميتها، ألا وهى: الوقت، وقلق الانتظار، وما سيحصل.

ويدل الوقت وما سيحصل على حاضر يعيشه شخص يترقب حصول حدث في مستقبل يجهل مضمونه. كأني بالقارئ – المستمع – المشاهد معلق بين زمنين كلاهما يولد فيه القلق. ويظهر التشويق هنا، في معناه الأول، باعتباره وضعًا يكون فيه المستمع / القارئ في انتظار هذا الحدث. غير أننا نميل حالا إلى تأكيد أن التجاذب بين الحاضر والمستقبل لا يغطيه القلق تغطية كاملة، فقد يكون شعر بلذة ما بدأت تلامسه" [٣].

هذا التشويق المستمر هو القانون المشترك بين الروايات الثلاث، التي تتميز كل منها أن أحداثها تدور داخل عالم يضم عددًا قليلا جدا من الشخصيات على مستوى الكم. وربما تبدو هذه العوالم منغلقة المنظور للوهلة الأولى، فالشخصية الأولى تسلمنا للثانية ومنها نعوذ إلى الأولى وهكذا في شبه دائرة ضيقة لا تنتهي. لكن إذا تعاملنا مع هذا العالم من خلال تفهم الأبعاد المطروحة في الخلفية البعيدة وربطها الأساسي بالواقع السوسيولوجي، سنجدها في حقيقة الأمر واسعة الدلالة ثرية الفكر لأنها تمثل استعارة للمجتمع الروسي

(٣) بحث "التشويق والرغبة في ألف وليلة" – إدجار فيير – فصول مجلة النقد الأدبي – ألف ليلة وليلة (الجزء الأول) – المجلد الثاني عشر – العدد الرابع – شتاء – ١٩٩٤ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ص٩٨.

الكبير ككل. كما أنها عالمية التوجه والإحالات يتفاعل معها ويتلقاها القارئ فى كل مكان بإيجابية طالما التقط مفاتيح فك شفرتها. ويذكرنا هذا العدد القليل جدا من الشخصيات والزحام بالتفاصيل الصغيرة بمنطق التراكم المستمر مع قلة الأحداث الكبرى، بالمفهوم العام لموسيقى الحجرة كما ذكرنا فى البداية، واعتمادها على عدد قليل جدا من الموسيقيين الذين يقيمون حوارات موسيقية بآلاتهم وكأنهم فى عالم منعزل عن الخارج. ودائمًا يضم برنامج حفلهم عددًا من القطع الموسيقية المختلفة التى تبدو كأنها شذرات مبعثرة وكل منها مستقلة منعزلة فى داخلها عن الأخرى، لكن العبرة فى النهاية بالهارمونى الناتج بعد اكتمال السياق العام ومدى تفاهم العازفين بعضهم مع بعض وقوة اندماجهم وتركيزهم وأداء كل منهم دوره الصغير كجزء من كل متكامل. وفى النهاية يظل العمل الفنى هو بطل هذه الجزيرة الموسيقية الذى يستحوذ على الاهتمام الأكبر.

"كانت موسيقى الحجرة فى منشئها تشتمل على الغناء أيضا، ويأتى اسمها من أنها كانت تؤدى فى حجرات وصالونات بلاط الملوك والأمراء يكتبها المؤلفون لمجموعات صغيرة من الآلات الموسيقية سواء كانت وترية أو خشبية أو

مشتركة. ويشترك معها البيانو أحيانا لما يمكن أن تعطى هذه الآلة من تركيبات هارمونية تساعد على ترابط المجموعة"[٤].

ومما يعلى من درجة التشويق في الروايات الثلاث هو اختيار المؤلفة توقيت اقتحام حياة شخصياتها، في لحظة حرجة للغاية تقف على الخط الأحمر لذروة الهاوية قبيل عتبة الانهيار الذاتى التام. ثم تتركهم يناوشون بعضهم البعض على مهل مستعيرين تكنيك الحرب الباردة والهدوء الوهمى الذى يسبق اندلاع العاصفة، وتطرح من خلالهم منظور الصراع بكل وجهات نظر الأطراف المتناحرة. وفى الوقت نفسه نجد المؤلفة تتدخل بنفسها كصوت سردى من الخارج حيادى قدر الإمكان لتوضيح وتنوير ما استغلق من الأمور، أو لفك شفرة تفاصيل ما بين السطور، أو لإخبارنا عن الشخصية ما لم يسمح لنا زمن الرواية بمعرفته. وهو ما يثمر في النهاية تكوين لوحة بصرية متعددة الزوايا والأحجام مثل اللقطة السينمائية الخلاقة، تشير ناحية البعد الثالث الأعمق القابع فى أبعد نقطة. وفى بعض الأحيان تمنحنا هذه النوافذ المختلفة

---

(٤) الموسيقى للجميع – عزيز الشوان – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٠ – ص ١٥٨ – ١٥٩.

الارتفاعات والتصميمات التى نطل بها على المشهد نفسه فى الوقت نفسه، القدرة على التفاعل مع اللحظة بمنظور يبدو متناقضًا فى سطحه الظاهرى. لكنها فى الحقيقة رؤية متكاملة تلعب دور نقطة التماس بين الخطين الممتدين من داخل وخارج الصورة، والنتيجة استثارة فكرية وتعدد وجهات النظر بموضوعية مما يزيد العمل الفنى تماسكًا وتناغمًا وثراء.

منذ اللحظة التى تفتح المؤلفة الباب للقارئ ليطل على عالم شخصياتها سرا حتى لحظة ذروة الصدام الأخير بين الأطراف المتصارعة، تزداد الحيرة كثيرًا فى مبررات وكيفية الانحياز إلى جانب شخصية على حساب الأخرى. فمن البديهى أن العمل الفنى القوى لا يحسم أموره هكذا من البداية وينضم إلى شخصية على حساب الأخرى كقاض مباشر صارم، لكن الأمر يختلف فى أدب ناتاليا فيكو التى توزع جهدها بين شخصياتها لتخلق من كل منهم كائنًا مميزًا طالما يرتبط بالآخرين ويدور فى فلك عالمهم. وهذا المنطق الفكرى والتوازن الفنى يذكرانا بالحوار الذى دار بين جينكا المغرمة بالتماثيل وصديقتها سفيتلانا فى رواية "امرأة فى قلب السعادة".

"هل فكرتِ كيف ستقضين وقت فراغك فى غياب زوجك الوفى؟"

مع الكلمة الأخيرة فى سؤالها دفعت سفيتا بقطعة كبيرة من السمك الأحمر بين فكيها.

- أريد الانتهاء من تماثيلى. ستكون شيئا خارج الإطار التقليدى تماما.

- أى تماثيل تقصدين؟ بالمناسبة جرّبى هذا السمك وإلا سيفوتك الكثير.

وناولتها قطعة سمك على طرف الشوكة.

- فى الوقت الحالى يستغرقنى تمثالان لرجلين غريبين غريمين فى حالة صراع، كل منهما يجاهد ليجذب بيده شيئًا ما يشبه الحبل. لا أنكر أننى أحاول مساعدة الطرف الأول أحيانًا، لكنى أعود وأمد يدى للطرف الثانى أيضا. الاثنان يتوقان للتوازن النفسى الداخلى. حتى هذه اللحظة لا أدرى كيف أوفق بينهما.!

هذه الشخصيات الثرية فى الروايات الثلاث التى تتجنب تمامًا فى بنائها المنظور الأحادى الذى يضرب حيوية

وخلود الشخصية فــى مقتــل، يقودنــا لمغــزى مســمى سلســلة "سحر اللعبة" الذى تطلقــه المؤلفــة علــى كــل أعمالهــا كمظلــة فكرية تعلن سيطرتها المطلقة على مقاليــد الأمــور. أمــا اللعبــة فهــى لعبــة الشــد والجــذب بــين شخصــيات رواياتهــا، فكــل شخصياتها المنشغلة بنفســها المحرومــة مــن الهــدوء والســكينة باستمرار، تعيش فوق فوهة نيران تنبع من داخلهــا ولــذلك فهــى لا تنطفئ أبــدا. فتــوالى وتصــاعد هــذه النيــران لا يعنــى أن الشخصية مناضلة مثلاً أو على حق أو على النقيض مدانة

أو كل هذه الدلالات المباشــرة وغيرهــا، فهــذه النيــران الداخلية وصــخبها المــزعج تمثــل الــركن الأساســى لوجودهــا ذاته.

ولا تحيا بدونــه، تتعــذب بــه وتســتمتع، تشــكو مــن التصاقه بها.

ولا تقوى على فراقــه، تهــرب منــه بالمســافات وتفــر إليه بالمشاوير.. تركيبة محيرة لشخصــيات تعــيش فــى مجتمــع متحير، فكيف إذن ستتضح حدود اللــون الأبــيض مــن الأســود داخلهــا أو حتــى ظلالهمــا الباهتــة؟ كيــف ســتتعامل هــذه الشخصيات مع من حولها فــى الخــارج، إذا كانــت هــى نفســها غير متصالحة مع نفسها فــى الــداخل؟! هكــذا نجــد أن ســحر

اللعبة يأتى من الخصام المستشرى فى عظام كل الشخصيات متغلغلاً فى روحها، وهذه الإشكالية الغريبة والمفارقة المثيرة هى سبب ونتيجة ومنبع سحر اللعبة الحية المتوهجة على ملعب الشخصيات المتناحرة. فقواعد هذه اللعبة تدرك جيدًا أن الإنسان قبل دخوله حلبة الحياة يكون مثل باليتة ألوان الرسام الموهوب.. فى البداية يقف كل لون وحده نزيهًا صريحًا قويا مستقلاً يعرف حدوده جيدًا ويحترمها عن طيب خاطر، طالما لم يخرج من خندقه ويحتك بالآخرين وطالما بقيت اللوحة بيضاء.. لكن ما إن يبدأ سباق الرسم وينزل الجميع ملعب الحياة حتى تزول هذه الباليتة الأفلاطونية بغير رجعة، وإذا بكل شىء يختلط بكل شىء دون حساب وربما دون قصد.. ومع ذلك فالعبرة فى النهاية تكمن فى الفنان وهدف ومعالم اللوحة التى يبدعها حتى لو كانت ناقصة، فيكفيه شرف المحاولة؛ لهذا من الطبيعى أن يكون الخط الرابط بين الروايات الثلاث لناتاليا فيكو ما يمكن أن نسميه "فوران الشحنات الإنسانية"، المحكمة البناء القائمة على أساس فكرى مستنير، يؤدى بشكل عفوى إلى هذه المصداقية النابعة من العمل الفنى.

فى الغضب وفى ثورة البحث عن الذات تختلف لغة كل إنسان عن الآخر، وهو ما حرصت المؤلفة على تدعيمه

طوال الوقت على مدى الروايات الثلاث من البداية إلى النهاية. وذلك من خلال إدراك الفروق الفردية بين الشخصيات والخلفية القادمة منها سابقًا والعالم المنتمية إليه حاليا ومع النسق العام ككل، دون السهو عن مراقبة المراحل المحسوبة التى تمر بها كل شخصية على حدة حسب تصاعد الصراع وتكثيف تراكم التفصيلات هنا وهناك، واشتباك العلاقات الإنسانية المعقدة بين البشر.

وسنستعين هنا بمثال مقارن بين المشهد الافتتاحى الأول الذى نتعرف فيه على شخصية سفيتلانا فى رواية "عناكب فى المصيدة" وهى تشترى الملابس، لندرك الفارق بينه وبين المشهد الافتتاحى فى تكريس التعريف بشخصية جينيا فى رواية "امرأة فى قلب السعادة" وهى تشترى أحذية من المتجر هى الأخرى. وبمجرد الانتهاء من قراءة هذه اللقطة وتلك سندرك الفارق المبدئى بين فكر وسلوك الشخصيتين، لكن بعد الانتهاء من قراءة الروايتين تمامًا سندرك أن الهدف أعمق من ذلك بكثير.. فالمسألة ليست مجرد ألفاظ أو بيئة أو مستوى ثقافى أو اقتصادى.

أو اجتماعى فقط، لكن هذه المقارنة تحيلنا فى حقيقة الأمر لمفهوم كل شخصية من الحياة كاملاً وتلقى إلينا

بخريطة تشريحية لأهم مفاتيح تركيبتها الداخلية مقارنة بالشخصية الأخرى؛ كجزء حيوى من كل أشمل لا ينفصل من نسيج المجتمع الروسى الحالى.

ولنبدأ بالسيدة سفيتلانا فى رواية "عناكب فى المصيدة"..

- ما هذا، ألا يوجد أى شىء آخر؟

رنة صوتها معبأة بنهجة إنذار خفى

تبادلت الفتيات النظرات بدهشة.

- كيف لا يوجد؟ ما أكثر الملابس هنا..!

تطوعت أكثر البائعات شبابًا وجرأة بالإجابة، فى حين التزمت زميلاتها الصمت المطبق وهن يحاولن رسم قناع الاهتمام المهذب على وجوههن.

منذ دقائق قليلة فقط وصلتنا مجموعة من أحدث الموديلات.

- حقيقة أنا لا أعرف من أين هبطت عليكم أحدث الموديلات هذه... هل هى من منتجات مدينة "تولا" أم مدينة "تامبوف" الصغيرتين المتواضعتين جدا؟! هكذا..؟!! إذن

طالما أن كـل شـىء مبـاح وتـدَّعون بثقـة رهيبـة أن هـذه الملابس العجيبة تحمل ماركة "كنـزو" الشـهيرة، اسـمحوا لـى إذن أن أنتحل أى اسم وأقدم لكم نفسـى بكـل مـرح ووقاحـة.. ألا تعرفوننى..؟؟!! أنا الكابتن السـنيور الطيَّـار الإسـبانى فـلان الفلانى، أعيش عمـرى سـابحًا فـى الفضـاء وأرفـرف هائمًـا على أجنحة طائراتى بعيييييدا بعييييييييييدا..!!

ثم ننتقل إلى السيدة جينيـا فـى روايـة "امـرأة فـى قلـب السعادة".

التقطت جينيا أحد الأحذية.. خفيفًا جميلاً كأنـه خلـق لهـا، لكن.. اللون!

رمقت البائعة بتوتر:

أجيبينى.. كل أحذية البوتيك إمـا سـوداء أو بنيـة اللـون، لكن ماذا أفعل إذا أردت شراء حـذاء أحمـر أو بلـون الفراولـة الداكنة؟؟

بادلتها البائعة نظرات صـبورة اعتـادت الانتقـاد: **الأحذيـة الملونة لا تدر علينا أرباحا. صحيح هناك الكثيـر مـن الألـوان**

وبدرجات مختلفة، لكنها لا تلقى اهتمام الزبائن. أما الأسود والبنى لونان كلاسيكيان يروقان لكل الناس.

- لكن أنا يهمنى هذه الدرجات بالذات، درجات اللون المختلفة غير المباشرة.

أخذت السيدة طريقها إلى باب البوتيك، ثم توقفت لحظة و التفتت للبائعة:

- عادة أنا أفضل الألوان غير الصريحة المتمردة على الكلاسيكية فى كل شىء. (بلهجة ساخرة)! إلى اللقاء.

إذا كان بناء التكنيك الفنى لروايات ناتاليا فيكو يقوم بشكل أساسى على تراكم الجزيئات الصغيرة بعضها فوق بعض دون العثور على حدث جلل يتوسط المشهد الروائى، فهذا يعنى أن أعمالها التى تتسم بالبساطة الظاهرية كما أوضحنا تحتاج لمتلق إيجابى يلتقط هذه الشعيرات الصغيرة ويعيد تجميعها هو من داخله لاستقبالها أولا بوعى متيقظ تماما لكل ما يحدث ويربط جيدًا بين المشهد السابق والتالى لخلق السياق العام، ثم إعادة إبداعها مرة ثانية داخله ليستمتع بها من وجهة نظره الخاصة. وينحصر العالم الصغير

للشخصيات فى رواية مثل "ليلة اكتمال القمر" ورواية "عناكب فى المصيدة" داخل مكانين أو ربما ثلاثة أماكن على الأكثر، لكنه مرة أخرى حصار شكلى من ناحية الكم إذا تعاملنا مع تأويل المدلول من فوق السطح. فالأهمية المطروحة للمكان فى روايات ناتاليا فيكو تعود إلى توظيفها له كتكثيف مركز واستعارة تخفى عالمًا ضخمًا وراءها، ومن ثم فالمكان المقدم فى الصفوف الأمامية مثل حجرة المكتب بالبنك فى رواية "عناكب فى المصيدة" ما هو إلا ستار خشبة المسرح الشفاف الذى تتظاهر كل الشخصيات بالحركة فوقها، لكنها فى حقيقة الأمر تعيش ما بعد حدودها فى البعد التشكيلى الثالث تاركة بقية التفاصيل لخيال المتفرج الإيجابى. فحجرة المكتب بالبنك على سبيل المثال تلخص بناء ضخمًا لمنشأة اقتصادية لم تتح لنا الظروف إلا زيارة جزء من حجرة واحدة منه فقط، فى الوقت نفسه تلعب هذه الحجرة دور الاستعارة الرمزية لكل الهيئات الاقتصادية الضخمة فى المجتمع الروسى الرأسمالى الجديد وما يجرى بداخلها، وما تحويه من علاقات مبتورة بين أفرادها على مستوى العمل وعلى المستوى الشخصى أيضا. فطبقا لأيديولوجية المجتمع الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى سابقا، كان طبيعيا أن تدور الكثير من أحداث

الأعمال الأدبية داخل المصنع أو مفهوم الأسرة مثلا تعبيرا عن منظومة جماعية، تتناول بيئة العمال والطبقة الكادحة الشعبية ومشكلاتها وأحلامها وكفاحها إلى آخره.. لكن مع التغيرات العقائدية الجديدة استبدلت فيكو عامل المصنع المكافح الآمن على حياته وأسرته ومصيره ووطنه، برئيس البنك القلق والمكافح أيضا لكن بطريقته الخاصة جدا من أجل أهدافه الذاتية فقط لا غير. وتلاشت العنابر والمنازل الصغيرة المتواضعة والعائلة المتكتلة المتعاونة رغم صراعاتها، ودخلت بنا رواية "امرأة فى قلب السعادة" فى قلب منزل فخم رائع لرجل مهم من موظفى وزارة المالية ممثلا لمجتمع الدولار الجديد، ولم يعد أصحاب البيوت الثرية يحرصون على الاحتفاظ بصور كارل ماركس ولينين وشركائهما، فقد توارت ذكرى هؤلاء الراحلين بأفكارهم وعصورهم إلى متحف التاريخ الذى لا يزوره أحد، وحلت محلها التماثيل الغالية والتحف النادرة وصورة فرنسيس بيكون وألبوم صور العائلات الشخصية والوجوه ذات الابتسامات الملفقة. وطالما أننا فى مجتمع الفرد الواحد داخل الروايات الثلاث فلابد أن يتغير ضمير المتكلم من قاعدة

"نحن" إلى زاوية "أنا"، وبالتـالى ينقشـع المصـطلح البائـد "يـا رفيق" بغير رجعة؛ فأين هو هذا الرفيق الموثوق به..؟!!

كما نلاحـظ علـى مدى الروايـات الـثلاث أن الليـل يلعب دائمًا دورًا محوريا فى حيـاة الشخصـيات، بصـفته شـاهدًا عليهـا ومحرضًـا علـى الإسـراع بأفعالهـا والسـماء المظللـة لصدامات الذروة الأخيرة المرتقبة أيضًـا. فعلـى سـبيل المثـال يتمثل الليل الإطار الزمنى الذى يراقب المواجهـة الحاسـمة بـين أطراف الصراع فى رواية "عناكـب فـى المصـيدة"، كمـا أنـه مؤشر الزمن الوحيد الذى تدور فيه أحداث روايـة "ليلـة اكتمـال القمر". وبعده يأتى النهار فـى الـروايتين كمجـرد فاصـل بـين المشاهد لاستنشاق هدنة مطلوبـة، بعـد ثبـوت تـورط القـارئ الإيجابى بالمشـاركة فـى نسـج خيـوط هـذا الليـل ولحظاتـه الساخنة التى يترقب القارئ بناءهـا مـن البدايـة وتسـعى كـل المشاهد قبلها للوصول إليها بمنطق التراكم البطـىء. فـإذا كـان الإظلام يفصل بين المشاهد فـى العـرض المسـرحى ويُسـتخدم أحيانا كتكنيك مقصـود فـى المونتـاج السـينمائى، فهـو علـى النقيض فى الروايات الثلاث يترك مهمة نقـش الحـدود الفاصـلة بين اللحظات المهمة للنهار الذى يتعاقـب عليـه بمنطـق التبعيـة فقط لا غير. كما أن المؤلفة لا تتعامل مـع سـواد الليـل بمنطـق

التقسيم التقليدى "البداية – المنتصف – النهاية" ولا حتى بمنطق تقسيم غير تقليدى، بل إنها تتعامل معه كقطعة قماش واحدة كبيرة تخلق التفاصيل بداخلها طوال الوقت، لكنها لا تتخلى عنها مطلقا ولا تنعزل خارجها ولا يغريها أى شىء.

أو أى شخص بالتمرد عليها مهما كانت المغريات الفنية. أما فى رواية "امرأة فى قلب السعادة" فيلعب الليل واحدًا من أهم أدوار البطولة، لرسم ملامح هذا العالم بفرشاة داكنة تملك العديد من تدرجات اللون الأسود رغم صعوبة تحقيق ذلك. ولم يلعب الليل هذا الدور المؤثر الحيوى فى متن البناء الروائى ككل فقط، لكن هذه الأهمية الكبيرة تعود إلى زمن ماض طويل لم يلحق القارئ به قبل دخوله عالم الرواية. ففى أول سطر من الرواية نفسها وفى أول تعارف بيننا وبين جينيا، لم تقدم لنا المؤلفة الشخصية إلا بعد التأكيد الشديد على أن الليل قطعة جوهرية من روحها مثلما تعيش هى كقطعة راسخة أصيلة من روحه. فالليل هو منجم ذروة الإبداع، ذروة المشاعر، ذروة الكذب، ذروة المواجهة وذروة الدورة الحياتية أيضا..

"الليل.. هو موعدها مع التوهج والتفرد.. في الليل تتلبسها خفة خارقة وطاقة تفوق الوصف والخيال".

فالليل عند جينيا فى "امرأة فى قلب السعادة" هو زمن الأحداث المهمة والعشق الأول والأخير، والليل عند سفيتلانا فى "عناكب فى المصيدة" هو الهروب غير الشرعى من سجن الحياة الشرعى.. هذا على مستوى الزمن الخارجى.. أما على مستوى الزمن الداخلى الذى يسير حسب عقارب الحالة الروحية الذى نسميه "الليل الداخلى"، فهو أبدى أزلى يفرض سيطرته على كل شيء وكل شخص. فهو قضبان بلا قضبان نزلاؤه هم الشعب الروسى الحبيس وراء جدار عال، يفصل بينه وبين وطنه الذى لم يعد يعرفه على الأقل كما كان.. هكذا تجمع الروائية ناتاليا فيكو خيوط "سحر اللعبة" أو "اللعبة السحرية" بين يديها كلمة بعد كلمة، وبالتدريج تحرض القارئ أن يصبح طرفًا من أطراف اللعبة دون الاكتفاء بمقعده البعيد عن الأحداث. فالمواطن الروسى المعاصر فى حقيقة الأمر ظل حقيقى حى لشخصيات رواياتها التى تنتمى إليه وينتمى إليها، وتعد ملمحًا أساسيا من هويته الشخصية؛ فهى له ومنه وإليه. لكن ليس معنى توطد العلاقة بين تلقِّى الروايات الثلاث وبين أحوال المجتمع الروسى المعاصر أن هذه الأعمال

منفصلة عن القارئ العالمى أو القارئ الروسى المنتمى لعقود تالية. فقد حللنا العلاقة بين هذه الأعمال الأدبية وأيديولوجية المجتمع المحيط مستخدمين المنهج السوسيولوجى لوضع النقاط على الحروف وتقديم رؤية تأويلية، وتحليل الطبقات المتوالية المختفية وفض الاشتباك بينها بعض الشيء، بهدف زيادة متعة التلقى للقيمة الفكرية الفنية المطروحة. لكن هذه النوعية من الأعمال التى تسقط الحائط الوهمى الرابع بينها وبين القارئ تستطيع الصمود أمام مواجهات الزمن، لأن الجوهر الأصيل فى هذه الأعمال يقوم على خلق حالات إنسانية متدفقة متوهجة من داخلها، تمتلك مخزونا من الطاقة الشعورية الخلاّقة تمس المتلقى أيا كان بغض النظر عن الحدود التقريرية الجامدة للزمان والمكان. يتجلى هذا المخزون الفائض من الطاقة الدافئة النابعة من الأعماق الروحية، فى قدرة المؤلفة على فهم وتفريغ وإعادة بناء المشاعر الإنسانية للبشر بدقة وذكاء وخبرة وحسن توقع حسب مقتضيات ومتطلبات الشخصية ذاتها، ودون تدخل منها أو محاولة لفرض وجهة نظرها بتعسف جبرى بسلطة قلمها. فعندما نتراجع خطوة للخلف وننظر لصورة الروايات الثلاث مجتمعة من الخارج، سنجد أن بناء الصراع المشتعل بين

الجميع مشترك فى أساسه والبنية التحتية الفكرية التى ينطلق منها وتحكم علاقاته، مع اختلاف التنويعات من داخله وكيفية توظيفها والهدف المقصود من وراء ذلك. تضم دائرة العلاقات الفاعلة فى الروايات الثلاث ثنائية متكررة من ناحية المسمى، فهناك "الزوج / الزوجة"، وهناك "الطرف الثالث" القادم من ناحية الزوج و"الطرف الرابع" القادم من ناحية الزوجة. وبالتدريج سنكتشف أن الثنائية الثانية تلعب دور الظلال الممتدة والعامل المساعد والقوة الدافعة التى ستعيدنا حسب الطريق المرسوم لعالم الثنائية الأولى الصغير المتاح للطرفين المتصارعين فقط لا غير. فالثنائيتان اللتان تحكمان عالم رواية "عناكب فى المصيدة" هما "الزوج أندريه / الزوجة سفيتلانا" - "الأخ الصغير يوريك / الشاب مدير الفندق"، وفى رواية "ليلة اكتمال القمر" سنجد ثنائية "الزوج / الزوجة" - "صاحب البيت / مقدم التليفزيون"، وفى رواية "امرأة فى قلب السعادة" "سنجد ثنائيتى الزوج/ الزوجة" - "الصديقة سفيتلانا / عامل المدفأة". أما العلاقة الحاكمة بين طرفى كل ثنائية فتعتمد على ذرات التفاصيل الصغيرة التى تحيط بهما من كل جانب، وهى التى تتحد فى النهاية حتى لحظة الوصول لمحطة الانفجار الأخير، عندما يجتمع طرفا

الثنائية المتصارعة فوق الحافة التى لا تتسع إلا لشخص واحد فقط لا غير؛ وهذا هو المأزق الحقيقى والمفارقة الساخرة لمفترق الطرق الذى لا رجعة فيه ولا عنه.

كما أن العلاقة بين طرفى الثنائية تهتز دائمًا على خيوط التوتر الشديد، لأنها لا تنعكس من داخل الشخصيات بشكل سليم متكامل. وهذا أمر طبيعى طالما بقيت المرآة الداخلية لكل شخصية من شخصيات الروايات الثلاث مشروخة على وشك التبعثر، لكن المشكلة الأكبر والأخطر أن شظاياها وحروفها ونتوءاتها تجرح كل من يحاول الاقتراب منها أو تفهُّم تعقيداتها. فضبابية البصيرة التى تعتم الرؤية أمام القلوب والعقول لا تسمح للشخصيات برؤية نفسها على حقيقتها مهما كانت الحقيقة مشوهة وقريبة. فى الوقت نفسه لا تترك لهم الفرصة كى يتجنبوا الاصطدام بهذه الفتافيت المدببة، لأنها هى أيضًا لا تستطيع أن تتجنبهم بحكم أنها هى نفسها حل لغز تركيبتهم الداخلية الغاضبة.. وعندما يتفهم المؤلف طبيعة شخصياته جيدًا ويقبض على ملامح روحها ويترك لها حرية التصرف حسب طبيعتها على غير توقع القارئ أو الشخصيات المحيطة المستقبلة أو حتى الشخصية المُرسلة ذاتها، ينعكس هذا التمكن على صمود

الشخصيات أمام تقلبات الزمن وطول عمرها داخل نفسها ومع غيرها، خاصة وهى تعبِّر عن نفسها دون رقيب، وتأتى بما يحلو لها من أفعال وردود أفعال تتسق مع توجهاتها الفردية. من هذا المنطلق انتظمت المؤلفة الفوضى الكامنة فى نفوس شخصياتها الحادة المهووسة بالبحث عن ذاتها دون جدوى، وهذه العبثية الفردية النفسية ما هى إلا ترديد مُجسَّم لعبثية المجتمع المحيط ذاته. كما أنه من البديهى أن يختلف مفهوم عبثية الرجل عن مفهوم عبثية المرأة بمنطق الفروق الطبيعية بينهما، لكن المرأة عند الأديبة ناتاليا فيكو والمرأة الجميلة بصفة خاصة لها مكانة متفردة تمامًا، وهو ما ينعكس على تفرد الشخصيات التى تحيط بها لتكون كُفئا لخوض الصراع أمامها. ففى رواية "عناكب فى المصيدة" تطبق المؤلفة أسلوب تعددية الأصوات السردية بحرية كاملة دون إخلال بالعمل الفنى، كما تعبِّر عن وجهة نظرها لتشارك الأبطال عالمهم لكن فى التوقيت المناسب. فعلى سبيل المثال تختتم فقرة كاملة مخصصة لوصف الملامح الداخلية للسيدة سفيتلانا فى الرواية نفسها بهذه العبارة البليغة..

"من الضرورى أن تفيض المرأة الجميلة ببعض قطرات الجنون".

فلا المؤلفة حددت نوع الجنون، ولا هى اختصت سفيتلانا وحدها بهذا التحليل، ولا هى جمعت الجنون كله ليكون الساكن الوحيد فى حقيبة يد السيدة الجميلة.. لكن كل ما فعلته أنها ألقت بحجر مرشد فى المياه الراكدة لتحريكها. ولتفتح آفاقا جديدة للمتلقى كى ينتبه لنوعية الشخصية التى سيتعامل معها. مع الحرص الدائم على ترك مساحة تبعد بين المتلقى وبين الشخصية لينظر إليها من مسافة مختلفة وبالتالى بعين مختلفة، حتى لا يقع رغمًا عنه فى مصيدة التعاطف مع الشخصية فيتوحد معها ويلتمس لها أعذارًا مثلاً. حتى لا ينتصر اللاوعى المنحاز على الوعى الموضوعى. وإلا سيتراجع الخطاب الفكرى العام المقصود من وراء إبداع هذه المؤلفات الأدبية، وهو خلق الوعى المستنير داخل القارئ.

أو على الأقل إيقاظه وبعثه من مرقده، وهو ما يذكرنا بأطياف من التكنيك والهدف المنشود من وراء منهج برتولد بريشت المسرحى. لكن تدخل المؤلفة السردى من وجهة نظرها لم يكن هو الوسيلة الوحيدة لكسر الإيهام، فكانت تعتمد أحيانًا على الشخصيات ذاتها فى إطلاق نغمات نشاز مفاجئة تعمل على تنبيه حواس المتلقى باستمرار. لأنها من البداية وهى تعتمد على شخصيات غير سوية، أساس

تعاملاتها الشطحات المفاجئة بحيث تكون السلوكيات المعتادة وترجمتها لكلمات تقليدية هو الاستثناء بعينه.

أضف إلى ذلك أن القاسم المشترك بين شخصيات الروايات الثلاث هو توفر عنصر الذكاء لديهم، حتى لو لم يكونوا يدركون ذلك فى أنفسهم، مهما حاول كل منهم الاستهانة بقدر الآخر والتقليل من قدره مقابل رفع شأن نفسه. فماهية الذكاء فى حد ذاته تعنى توفر عنصر القوة الداخلية، لكنها تظل دائما قوة مع إيقاف التنفيذ لا تحيا إلا إذا تم توظيفها ودفعها فى الطرق المستوية، وإلا تحولت إلى وبال وقوة مدمرة تهدم صاحبها وتسوِّيه بالأرض. وقد وظفت المؤلفة الذكاء الفطرى والخبرة الحياتية التى تتسم بها شخصيات رواياتها، لتكون التكئة التى تبدأ كل شخصية فى التقاط خيط الآخر أو بمعنى أدق نقاط ضعفه، وهى التى توظفها المؤلفة بدورها كمعبر مبرر منطقيا للانتقال إلى اللحظة التالية أو المرحلة التالية من الحالة العامة التى تنسجها حول أطراف الصراعات المحتدمة قطرة بقطرة.

نعود إلى قدرة المؤلفة على وصف أحاسيس الإنسان بصفة عامة والمرأة بصفة خاصة.. ففى معركة البقاء

الشرسة التى تديرها على صفحات رواياتها، لا صوت يعلو على صوت الأنوثة ؛ ليس بمنطق تعداد الهزيمة والانتصار لكن بمنطق مركزية الصراع ومصدر الإزعاج الأزلى لكل من حولها ولنفسها أولاً وأخيرا.. وقد وقع اختيارنا على هذا المقطع بالتحديد من رواية "عناكب فى المصيدة" ليكون دالا على وجهة نظرنا التى نريد توضيحها..

"كيف استطعت امتلاك هذه المرأة والسيطرة عليها بهذه الدرجة؟! مجرد حسبة منطقية وصحيحة. غالبا ما تكون المرأة الجميلة القوية عبدًا لنزعتها الماسوشية. فهذه النوعية تشقى بقوتها وتتعذب بشخصيتها القيادية، تتملكها رغبة طاغية فى اللاوعى أن تلعب دور التابع وتستعذب طعم الإهانة. لكنها فى الحقيقة إهانة قصيرة العمر تولد لتموت فى الحال.. ففى اللحظة نفسها التى تسقط فيها هذه المرأة إلى أعمق نقطة سحيقة فى الهاوية، تجدها تصلب عودها فجأة وتنتصب لتحلق بعيدًا أعلى مما كانت عليه. هذا سرهن.. أغلب الظن أن حواء لا تعرف هذا عن نفسها. هذا النوع من السيدات عشيقات قل أن يجود الزمان بهن، يسكنّ بيت الذاكرة مدى الحياة.."

مرة أخرى نستخدم أدوات التحليل السوسيولوجى للروايات الثلاث، لنرصد ضياع الطبقة المتوسطة فكريا وثقافيا بين "أهل القمة" و"أهل القاع".. تكاد المفاهيم الحاكمة بين الطبقة العليا والمتوسطة أن تكون متناقضة، وكأن كلا منهما يرى الدنيا بناء على تحديد مساحة النقص الداخلى لديه. والمفارقة المثيرة أنه رغم الهوة الحادة بينهما فى كل شيء، إلا أنهما يتفقان على الإيمان بالارتباط الشرطى بين المال والسعادة لكن من منظورين مختلفين.. فنلاحظ أن "أهل القمة" يحرصون بمنتهى القوة على تكديس الأموال حتى لا يفرطون فى سعادتهم، التى لا يستمتعون بها لأنهم لا يملكونها أصلاً ولا يدركون معناها الحقيقى. أما الفقراء وأصحاب الطبقة المتوسطة فى الروايات الثلاث فيمارسون حقيقة ضياع الأحلام بالفعل، لكنهم لا يجاهرون بشكوى التهميش علانية وهو ما يعود بنا إلى نقطة الغضب المكتوم مرة أخرى مثلما نسمع على لسان مقدم البرامج التليفزيونية فى رواية "ليلة اكتمال القمر"..

"ثبّت الضيف نظره عليها: لماذا يحدث كل هذا فى الحياة؟ بعض الناس يحصلون على كل شىء، والبعض الآخر لا

ينوبهم إلا الفتات! ومع هذا الفتات يستمتع بالحياة وهو لا يدرى أنه يعيش وهمًا كبيرا.."

امتدادًا لقدرة المؤلفة على تشريح النفس البشرية بهدوء وصبر، تضع ناتاليا فيكو على لسان شخصياتها حوارت مثيرة تستمد إيقاعها من إيقاع اللحظة التى تمر بها الشخصية ذاتها من قلب الموقف ككل. وكثيرًا ما يختلف مفهوم وسرعة وتوجه الإيقاع الداخلى للحوار عامة أو للكلمة خاصة داخل اللحظة الواحدة، وهذا أمر طبيعى نابع من تقلب الشخصيات ذاتها من داخلها دون الوصول إلى نقطة تماس هادئة. ومثلما أتاحت المؤلفة الفرصة لنفسها كى تتدخل بصوت سارد خارجي وقت اللزوم، سمحت أيضًا للشخصية الواحدة بامتلاك صوتين ساردين أحيانًا فى الوقت نفسه.. أحدهما علنى مع الآخرين على هيئة ديالوج طال أو قصر أشبه بالمعارك القصيرة الطائرة، والآخر صوت سرى على هيئة مونولوجات داخلية بين الشخصية ونفسها أو مع الآخر، وحدها.

أو وسط كم من البشر؛ خاصة فى حالة اشتداد علة الاغتراب الداخلى. وقد وظفت المؤلفة هذه المونولوجات الداخلية مع المقاطع الوصفية الطويلة مع تكنيك القصة داخل القصة، لاستكمال فراغات العالم الصغير الذى تشيده حول شخصياتها بما

يسمح باكتمال بروفيل الوجه الذى تود لفت نظر المتلقى إليه. وهى تمتلك المرونة الإبداعية كى تتوقف بسلاسة فى لحظة ما لتتنقل إلى الزمن الماضى القريب أو الزمن الماضى الأبعد، ثم الارتداد إلى الحاضر بعد تحقيق غرض الفلاش باك الجزئى، وبالتالى تصنع شبكة قوية من الأزمنة والأمكنة المتشابكة المشتبكة التى تحوى عددًا من الطبقات المركبة دون غموض أو تشويش أو تعمد استعراض. كما تتميز حواراتها ببلاغة الوصف والعبارات المؤثرة غير المتوقعة التى تكسر القالب التقليدى للمعنى الدارج للكلمة، فيتولد منها توجه دلالى جديد يمنح الحالة المجسدة حيوية وبكارة وميزة الدهشة الفطرية المنزرعة داخل الوليد الجديد. وكلما قلبنا الصفحات وتدرجنا مع أى رواية حتى كلمة النهاية، سنلمس الكثير من الكلمات البسيطة والعبارات التى تبدو معتادة يتفوه بها الناس فى كل مكان، نخبئ وراءها العديد من الأبعاد المختبئة التى تكشف عن نفسها شيئًا فشيئًا بشكل مرحلى.

كثيرًا ما تبنت المؤلفة لغة المفارقة والسخرية الزائدة لتوليد كوميديا سوداء مريرة لاذعة، كما أنها تهوى اللعب بالألفاظ وتتقنها إلى الحد الذى يريك الشخصية التى تستقبل هذه الكلمة بشكل واضح. فعلى سبيل المثال ذكرنا من قبل فى الكلمة التى سبقت هذه الدراسة أن الاسم الأصلى للرواية

الأولى "عناكب فى المصيدة" هو "عناكب فى البرطمان"، وكلمة برطمان فى الروسية تكتب "Bank" باستخدام الحروف اللاتينية. وبعد الانتهاء من قراءة الرواية سنكتشف وجهة نظر المؤلفة فى استخدام هذه الكلمة بالتحديد، لأنها تعنى فى لغتهم "برطمانا" وتعنى أيضا "بنكا".. وعندما نعلم أن بطل الرواية أندريه مهنته صاحب بنك، سندرك كيف قصدت من خلال المعنى الروسى الأصلى صنع حدود ترديدية بين مفهوم البرطمان والبنك فى مجتمع روسيا المعاصر.. فالمرجعية الثقافية والشعبية للمجتمع الروسى لا تمل من استخدام عبارة مألوفة لديهم، تؤكد أن العقارب إذا اجتمعت يومًا ما فى أحد البرطمانات فلابد أن تدخل فى صراع رهيب ينتهى بحياة أحدها على حساب الآخر.. ومثلما وظفت المكان أو هذا البنك ليكون العالم الترديدى لبرطمان الموت، سنجدها توظف إكسسوار المكان نفسه وتتعمد تشخيص خزانة النقود بالرواية نفسها وتتعامل معها كأنها بشر، وهو ما يذكرنا بالمنهج نفسه لمسرح العصور الوسطى الذى دأب على تشخيص المجردات والجماد لترسيخ معتقداته الأيديولوجية الكنسية وزرع الرهبة داخل نفوس البشر. ورغم ذلك فليس المقصود هو تشخيص هذه الخزانة فى حد ذاتها ولا تصعيدها

لدور البطولة كوحدة صماء، لكن اهتمام المؤلفة بها يرجع إلى وظيفتها الطبيعية فى حفظ الأموال مما يحيلنا مرة ثانية لنتيجة احتلال مفهوم المال وسطوته فى المجتمع الرأسمالى الحالى دور البطولة الحقيقية، وكيف أنه جرف الجميع بين حنايا شباك أقدامه الأخطبوطية المتعددة. ورغم السخرية المستشرية فى الروايات الثلاث ولغة التهكم التى تتبارى فيها كل الشخصيات، لكن المفارقة الغريبة أنه على مدى صفحات الكتاب لم نعثر على ضحكة واحدة أو حتى ابتسامة صادقة فى موقف واحد! يبدو أنه ليس زمان الابتسامة الصادقة.. فكيف تولد الابتسامة فى قلب جاف وعلى شفتى وجه خائف وداخل عينين متفرغتين لمهمة تفريغ الكبت المكبوت بداخلها بأى طريقة ممكنة..

الجدير بالذكر أنه تكرر توظيف المؤلفة فى رواياتها الثلاث لألبوم الصور بتنويعات ودرجات مختلفة، وكأنه وثيقة مصورة تؤكد أن هؤلاء الأشخاص كانوا يعرفون بعضهم البعض فى يوم من الأيام؛ ولو فى الماضى البعيد قبل التفكك والانهيار على كافة المستويات الفردية والجماعية.. كما رفعت المؤلفة من أسهم لغتها المنتقاة بعناية عندما وجهتها لخدمة بنائها الفنى، خاصة فى تحليل النفس البشرية وتوظيفها

فى رسم صور مجسمة ملموسة. ولنأخذ نموذجا من رواية "عناكب فى المصيدة"..

"تمامًا كالمجانين المتعطشين للجنس.. يعذبون ضحاياهم ويرتوون من كل بحار العذاب الهائجة فى قاع عيونهم.. كان يغدق عليها كل حنانه وشوقه بهذا المنطق. كان يريد أن يتلذذ بمشاهدة كيف تموت من الحب وكيف تولد منه من جديد..".

ومع تحولات البشر واكتشاف الحقيقة المفزعة بين حدود الحقيقة والقناع، نلتقط رابطا آخر يجمع بين الروايات الثلاث يتمثل فى الاعتماد على "نظرية المؤامرة" التى تثمر مجموعة من المفاجآت المتوالية من البداية حتى نصل لكبرى المفاجآت فى النهاية. فإذا أدركنا الأبعاد العميقة للصراعات المطروحة فى الروايات الثلاث فى إطار المرجعية السوسيولوجية والسيكولوجية، سندرك أننا لا نفتش فى علاقة الرجل والمرأة عمن يكون الجانى ولا من سينتصر على من. لكن الخطاب الفكرى المطروح يفتش فى حقيقة الأمر عن الدوافع المختفية التى أدت إلى تفكك هذا العالم المنغلق. والمفارقة المثيرة الساخرة أيضا هى اتفاق كل شخصيات

الروايات الثلاث دون اتفاق مسبق على الكذب على نفسها وعلى غيرها أيضًا بتفان شديد، وهو ما يؤدى إلى التعامل مع منظور انتظار ووقوع حقيقة "الموت" بالتحديد بمنظور مختلف.. الواقع أننا نتعامل من البداية مع شخصيات فارقت الحياة من داخلها أصلاً منذ زمن بعيد أو قريب، لكن يبدو أنها لا تفقه شيئًا فى ماهية الموت طالما أنها لا تدرك مفهوم الوجود من الأساس.. ففى مجتمع مختل التقاليد أمر طبيعى العثور على شخصيات مريضة تحتاج مضخات هائلة من مخزون الهوية القومية تعينها على التنفس الصناعى، بعدما امتنع الهواء الحقيقى النظيف عنها بإرادتها أو رغمًا عنها. ربما يسهل التعرف على نهاية الموقف الأخير فى الروايات الثلاث بعد الانتهاء من عملية القراءة، لكن غموض المجتمع المحيط بحاضره ومستقبله يصعِّب من مهمة استشراف خاتمة متخيلة متكاملة.

"ونحن نتتبع تعريف ماريانا تورجوفينك للخاتمة فى كتابها: "الخاتمة فى الرواية"، نيوجيرسى: - Princeton Up ١٩٨١) الذى يميز بين الخاتمة Closure والنهاية ending، حيث تذهب إلى أن النهاية هى "آخر وحدة يمكن تعريفها فى

العمل، الجزء، المشـــهد، الفصـــل، الصــفحة، الفقـــرة، الجملـــة". وترى أن الخاتمة هى الاستنتاج المنطقى للحكاية [٥].

ينص مفهوم "سحر اللعبة" على اســتمرار المعركـــة بـــلا نهاية، طالما تعادلت القـــوى وتماســكت قطعـــة الـــوزير شـــامخة تدافع عن وجودها وعن مملكتها. لكـــن الاســـتمرار فـــى اللعـــب والمنافسة بقوة كما ينص قـــانون لعبـــة الشـــطرنج المســـتقى مـــن قانون الدنيا يمنح اللاعب اختيارين.. إمـــا أن يمـــوت بـــأى شـــكل من الأشـــكال علـــى الســـاحة داخـــل مصـــيدة البرطمـــان، أو أن يخرج من اللعبة نهائيا مطرودًا مـــن رقعـــة الطمـــوحين الأقويـــاء الذين يرفعون شعار "الغزو الهجومى المُهلِـــك". فالعـــالم الروائـــى المطروح فى الروايـــات الـــثلاث منمـــنم المســـاحة، لا يســـع إلا قطعة شطرنج منتصرة واحدة بدون شـــريك. وهكـــذا تفنـــى كـــل الشخصيات ذاتها فى البحث عن ذاتهـــا لتتزايـــد حـــدة الاغتـــراب

(٥) بحث "جسد المرأة. كلمة المرأة – الخطاب والجنس فى الكتابة العربية (الإسلامية) – السرد والرغبة: شهرزاد" – فدوى مالطى دوجلاس – فصول – مجلة النقد الأدبى – ألف ليلة وليلة (الجزء الأول) – المجلد الثانى عشر – العدد الرابع – شتاء – ١٩٩٤ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ص١٦٣.

الموحش بين الإنسان ونفسه ووطنه وأقرب الناس إليه. وإذا لم يعد لدى الإنسان عزيز يعيش من أجله وأمل ينتظر الغد البعيد القريب ليتعلق به، فهذا يعنى وصول مؤشر صراع الإنسان الداخلى لمرحلة حرجة بالفعل جسدها السيد يوريك فى رواية "عناكب فى المصيدة" بهذه الكلمات..

" فلتذهب سمعة البنك إلى الجحيم، فلتذهب سمعة البلد كلها إلى جهنم الحمراء.. المهم فى النهاية هو النقود ولا شىء غير النقود ".

رغم سخونة الإيقاع داخل الروايات الثلاث والزمجرات المرتفعة هنا وهناك، لكن أصابع البرودة الشديدة تسرى عن قصد فى أوصال الشخصيات القلقة الخائفة. وكأن جدران الوطن انهارت فجأة وأصبح الجميع فى العراء، يقعون فريسة سهلة لكل عدو قادم من داخلهم أولاً ومن خارجهم ثانيا. صحيح أن كل الشخصيات تبحث عن الحب وتتشوق إليه مع اختلاف مفهومه لديهم تماما، لكن يبدو أن عبارة "فاقد الشىء لا يعطيه" تنطبق عليهم كثيرا..

أحيانًا يجتمع الحب مع الخوف من القدر أو من أى شىء مهما كان، لكن كيف له أن يجتمع أو يولد إذا كان

الإنسان نفسه يخاف من نفسه، إذا كان لا يحب نفسه أو ربما لا يعرف كيف يحبها؟! فشخصيات الروايات الثلاث منشغلة عن الحب بقلقها البالغ من كل شيء، حتى تصل في نهاية حلقة الملل المفرغة إلى عبثية نقطة اللاشيء.. ومن مفارقات الكوميديا السوداء أيضا داخل الروايات الثلاث أن كل شخصياتها التى ترتعش من داخلها مهما تظاهرت بالقوة، تتلفع بالعديد من الأقنعة وتحاول ممارسة الديكتاتورية على غيرها، رغم أنها مقهورة في أعمق أعماقها.. فهل يؤدى الفضول لسعى كل شخصية ممارسة ديكتاتوريتها المقهورة على الآخرين إلى نزع الأقنعة الزائفة عن نفسها، أملا في اكتشاف ذاتها بعد محو المسافة الفاصلة بين الزيف والحقيقة؟! أم أنه من الأفضل أن تترك شخصيات الروايات الثلاث الأقنعة المضللة على حالها تسكن الوجوه وتغوى القلوب، وعندها يصبح كل فرد هو المواطن ذو الألف وجه..؟!!

نهاد إبراهيم

عناكب فى المصيدة

تقف الخزانة الضخمة فى أحد أركان حجرة المكتب الفاخرة، هذه الحجرة التى التقت فيها بالكثير من أصحابها الذين امتلكوها يومًا ما. كم يعجبها صاحبها الحالى أكثر ممن سبقوه. شغفه بجمع المال. ذوقه الرفيع. الرقة والإحساس. فهذا الشاب تفوح منه جاذبية هائلة ومغرم بحلاوة الحياة.

– ياه يا صديقى.. كان يومًا طيبا.

أدخل السيد المفتاح فى القفل وأدار الرقم السرى – ربما أرقاما – أداره فى ناحية ثم فى الناحية الأخرى.. أخذ الباب الثقيل لهذه الخزانة التى تشبه الدولاب العتيق ينفتح على مهل. كانت هناك أكوام الدولارات تستلقى فوق الرف العلوى. كان يومًا طيبًا بالفعل. أغلقت الخزانة الضخمة أبوابها بعدما اختلط فى قلبها رائحة أوراق البنكنوت بعبق العطر.

– الآن جاء دور حياتنا الخاصة..

اقترب السيد من طاولة كبيرة مصنوعة من الخشب الأحمر، تحمل بخلاف العديد من الملفات الجلدية والأدوات المكتبية الثمينة عددا من التماثيل والتذكارات وصورة لشقراء منسدلة الشعر تبتسم داخل إطار ذهبى. أمسك سماعة التليفون وأدار القرص..

ساعة كاملة تنقص أو تزيد وبائعات البوتيك غارقات فى حالة من التوتر. فالسيدة التى تلبس البذلة ذات اللون البنى الفاتح وأنعمت عليهم بزيارة متجرهم، تفتش عن شىء ما يحمل ماركة "كنزو". بإصبعها الطويل الذى يعلو قمته طلاء أحمر نارى أشارت للبائعات على ما تريد أن تجربه. لكن يبدو أن أحلام السيدة فاقت كل الحدود.. ففى حجرة البروفة لبست وخلعت أكثر من نصف الملابس التى أحضرتها لها البائعات، وأخيرا أزاحت الستار بعيدا ووقفت أمامهم تحاول جاهدة أن تكبح جماح غضبها بصعوبة..

- ما هذا؟ ألا يوجد أى شىء آخر؟

رنة صوتها معبأة بلهجة إنذار خفى.

تبادلت الفتيات النظرات بدهشة..

- كيف لا يوجد؟ ما أكثر الملابس هنا..

تطوعت أكثر البائعات شبابا وجرأة بالإجابة، في حين التزمت زميلاتها الصمت المطبق وهن يحاولن رسم قناع الاهتمام المهذب على وجوههن..

- منذ دقائق قليلة فقط وصلتنا مجموعة من أحدث الموديلات.

- حقيقة أنا لا أعرف من أين هبطت عليكم أحدث الموديلات هذه... هل هى من منتجات مدينة "تسولا" أم مدينة "تامبوف" الصغيرتين المتواضعتين جدا؟! هكذا..؟!! إذن طالما أن كل شيء مباح وتدَّعون بثقة رهيبة أن هذه الملابس العجيبة تحمل ماركة "كنزو" الشهيرة، اسمحوا لى إذن أن أنتحل أى اسم وأقدم لكم نفسى بكل مرح ووقاحة.. ألا تعرفوننى..؟؟!! أنا الكابتن السنيور الطيّار الإسبانى فلان الفلانى، أعيش عمرى سابحا فى الفضاء وأرفرف هائما على أجنحة طائراتى بعيـــــــدا بعيـــــــدا..!!

انفجرت البائعة الشابة فى الضحك على الأرجح وهى تتخيل السيدة بهيئتها الإسبانية الجديدة..

ماذا دهاكِ؟ لماذا تضحكين؟ هل تسخرين منى؟

قذفت السيدة بشعرها الفاتح اللون إلى الوراء بطريقة فجة وهى تصرخ..

- هل ترين شريط كلمات مِطبوعة يمر فوق جبهتى؟!

توارى نظر البائعة الأكبر سنا خجلا، كاد وجهها وشفتاها الضيقتان المزمومتان أن يقولا شيئا؛ لكنهما تراجعا فى آخر لحظة.

تمادت السيدة وصوتها يزداد ارتفاعا مع كل كلمة: مكتوب.. مكتوب.. سأخبرك أنا يا عزيزتى، يا ترى يا هل ترى ماذا يمكنك أن تقرئى على صفحة جبينى؟؟... أجيبك أنا، مكتوب..

(إذا كنت تعملين هنا، فهذا هو يومك الأخير! سأشرف بنفسى على هذه المسألة... و ...)

أجبرها الرنين المستمر المنبعث من هاتفها المحمول على فتح حقيبة يدها المعلقة على كتفها.

- آ... لو..

بسرعة رمت المرآة المعلقة على الحائط بنظرة خاطفة، وكأن الطرف الآخر يمكنه أن يرى وجهها الأخضر المكفهر.

- أهلا عزيزى! مال صوتى؟ صوتى طبيعى جدا، كل ما هنالك أننى لا أستطيع أن أقرر أى فستان أختار. آه طبعا.. أنت تحب دائما أن تكون ملابسى قمة فى الأناقة! متوترة؟؟ طبعا متوترة!

حملت النظرة التى قذفت بها السيدة البائعات كل الحقد الذى يمكن أن تحتويه امرأة.

- وأى توتر! أنت لا تستطيع أن تتصور.. الآن؟ فى البنك؟ ماذا هناك؟ أوكى سأحضر .

ألقت السيدة تليفونها المحمول فى حقيبة يدها وأسرعت إلى الباب، ولم تنس وهى تأخذ طريقها إلى الخارج أن تلتفت حيث تقف البائعة الشابة وتتوعدها بإصبعها الطويل بطردها من عملها فورا.

كانت سيارتها "المرسيدس" الحمراء النارية بلون طلاء أظافرها نفسه متوقفة أمام البوتيك. فى لمح البصر

اتخذت مكانها خلف عجلة القيادة، أدارت المحرك وانطلقت بعنف. عشر دقائق فقط تفصل بينها وبين البنك الذى يملكه زوجها. وبما أنها تصول وتجول فى شوارع موسكو حسب قواعد المرور التى ابتدعتها هى من بنات أفكارها ولم تصل إلى علم رجال المرور بعد، فقد وصلت أمام البنك فى دقائق تعد على أصابع اليد الواحدة. قبل بضعة ملليمترات فقط من الجدار الحجرى ضغطت فرامل سيارتها بعنف، وفى لحظات قليلة اخترقت السلم كالسهم تشق طريقها إلى الطابق الثانى. بمجرد رؤيتها هرول إليها الحارس باهتمام، فتح لها الباب محاولا تذكر رسم ملامح السعادة على وجهه..

رفع الحارس جهاز اللاسلكى قرب شفتيه، وهمس بهدوء وحزم حتى لا تسمعه السيدة التى يبلغ تحركاتها لرئيسه الأعلى: "يا رقم واحد، رقم واحد، رقم اثنين فى طريقها تصعد السلم".

مرت السيدة بهدوء مريب بجوار الحارس دون أن تنطق بكلمة واحدة حتى تركته وراءها، ودعها الحارس بنظرات قلقة. تنفست الصعداء أخيرا بعد مرورها.

الحمد لله مرَّت بخير هذه المرة.

ما إن انتشر خبر وصول المدام حتى سارع موظفو البنك بالاختباء داخل حجراتهم فورا. الجميع يعرف مزاجها، ولم يكن أحد على استعداد للمخاطرة مرة أخرى. اقتربت السيدة من حجرة زوجها، وعلى الفور ملأت السكرتيرة ذات السيقان الطويلة والسترة الزرقاء خريطة وجهها بابتسامة مرحبة..

– مرحبا سفيتلانا فلاديميروفنا! أندريه أوليجوفيتش في انتظارك!

تمتمت السيدة وهي تفتح الباب: هذا ما كان ينقصني.. ألا ينتظرني!

راحت أكتاف السكرتيرة تتقوس إلى الداخل شيئا فشيئا: سيعيد أندريه أوليجوفيتش زوجته إلى رشدها في الحال. فهي تتعامل معه بأسلوب أكثر تأدبا لأنه موردها الاقتصادي الوحيد. إذن مازالت هناك بارقة أمل.

كالعادة مازال جهاز اللاسلكي يوالي إبلاغ الزوج المنتظر بآخر الأخبار..

- يا رقم واحد، رقم واحد، رقم اثنين على وشك دخول حجرة المكتب.

فتح أندريه درج المكتب، أمسك زجاجة العطر وراح يرشرش منها على خصلات شعره وسترته، يبعثر قطراتها في الهواء مرات ومرات. مولع هو بالعطور الفواحة. منذ نعومة أظفاره عندما كان يسكن مدينة بعيدة في جبال الأورال وهو مغرم بحلاوة الحياة. بصراحة لم تكن الحياة هناك رائعة كما يحلم هو، بل كانت أقرب إلى وهم جميل نسجه من صنع خياله. من بين كل فتيات المدينة وقع اختياره على سفيتلانا وجمالها المكتسح الأخريات بجدارة، عشر سنوات معها ولم يزره طيف الندم ولو مرة واحدة ويؤنبه على اختياره، رغم طوابير الشكاوى التي لم ولن تنتهي أبدا بسبب طيشها.. طبق شوربة يطير ويحط فوق رأس طباخ كسول، باروكة تُنتزع بعنف من فوق رأس امرأة تتبرع بدلالها مجانا يمينا ويسارا، تعبئة حملة لإنقاذ قطة صغيرة محبوسة فوق الشجرة في ساحة البنك، تتسبب في تجريد البنك من كل أفراد الحراسة لمدة ساعة كاملة. كيف لا وكل الأنفار مجندون بالإكراه لإنقاذ هذا الحيوان البائس المرعوب. من الضروري أن تفيض المرأة الجميلة ببعض قطرات الجنون.

وقفت سفيتلانا فى مدخل حجرة المكتب: ماذا حدث؟

مالت على زوجها ومدت له خدها.

- أبدًا.. كنت أحب أن أراكِ فقط.

منحها قبلة..

ما أجملك.! من الذى يجرؤ على إنكار ذلك؟ هذه الملامح تحرض على الغفران أكثر من اللازم.

- ألا تصبر حتى المساء؟

سبقها أنفها يتشمم الهواء.

- لا أطيق.

- كم مرة نبهتك ألا ترشرش ملابسك بالعطر أبدًا، مسموح لك بجسدك فقط لا غير.. أما إذا أردت تجديد الرائحة فافتح أزرار القميص و... يعنى...

ابتسم أندريه: أحسنتِ يا حبيبتى.. ها أنا أفك أزرار القميص... أرخى عقدة رباط العنق و... يعنى...

أفلتت من بين يديه.

– إيييييه؟؟ هل دعوتنى إلى هنا من أجل هذا؟؟ أغلق الباب إذن، أم أنك..!

جررته إليها من رابطة عنقه وردت له القبلة.

قطع صوت حارس الأمن القادم من جهاز اللاسلكى تواصل قبلة الزوجين: "يا رقم واحد، رقم واحد، رقم ثلاثة ينزل من السيارة أمام البنك".

اتخذت سفيتلانا مكانها على الكنبة الجلدية الوثيرة.

سألته بسخرية: هل مازالوا ينقلون لك كل تحركات شقيقك الصغير يا رقم واحد؟ حقا.. هذا الأخ الصغير المدعو يوريك أفضل شخص يلعب بكل جدارة بطولة مسلسل "توجد عائلة محرومة من الحمقى!!"..

كانت تسميه "الصغير".. فقد جاء إلى الدنيا عندما كان أندريه فى الرابعة من عمره. هو الاستنساخ الردىء من أخيه. كل همه تقليد شقيقه الأكبر فى كل شىء.. تصرفاته، ملابسه، علاقاته، مناقشاته. شىء واحد فقط لم يفلح فيه الصغير.. أن يرتفع بنسبة ذكائه ولو قليلا.

أندريه: أنا فى انتظاره.

- آه أنت تنتظره، إذن لن أزعجكما. وهمت بالنهوض.

أندريه بحدة: مكانك.. الموضوع خطير.

- هالو.. التحية والسلام على أهلي الكرام!

خطا إلى الحجرة شاب أشقر قصير بخطوات رشيقة، شاربه المكتظ بالشعيرات المرصوصة يبدو كما لو كان ملتصقاً أعلى شفتيه، نظارته الذهبية ماركة "ديبون" تتربع على طرف أنفه بكبرياء.

- ما كل هذه الضجة؟ أتعشم ألا تكون المعركة بينكما اشتعلت من جديد.

ظل يضحك وهو يلقي بنفسه إلى جانب سفيتلانا.

سفيتلانا بسخرية: ذكاؤك فظيع كالعادة.

- كل الناس يؤكدون لي ذلك!

فرد ساقيه أمامه وهو يواصل كلماته..

- آه يا أصدقائي.. لن تتخيلوا كيف فتحت عيني اليوم بصعوبة بالغة، فبالأمس كنت...

رمقه أندريه بحزم: ستحكى لنا هذه الحدوتة فيما بعد!

يوريك بجدية: حاضر...

لكن نوبة نشاط مباغتة اجتاحته فجأة فاستعاد مرحه مرة أخرى وانطلق..

- صحيح هل وصلتكم آخر الأخبار..؟؟ أخيرا سرَّب صديقنا سانيتش زوجته وأرسلها إلى مستشفى الولادة بحجة بقاء الطفل تحت الملاحظة الطبية، ثم انتهز الرجل الفرصة وتواعد مع واحدة من إياهم..

اندفعت الكلمة الأخيرة من فمه وهو يركز نظره على سفيتلانا بالتحديد.

دعا سكرتيرته إلى المنزل و.. هوب.. وقع المحظور! زوجته فى المستشفى وهو هائم فى ملكوت آخر، ويبرر فعلته هذه لكل من يقابله وهو يهمهم كالمسحور (مقلدا سانيتش).. هذه الفتاة تحبنى.. إنه الحب.. لامور يا نااااس..

صنع يوريك بيديه نصف دائرة أمامه ليرسم فى الهواء كِرش سانيتش ثم نفخ وجنتيه فأصبح كأنه نسخة منه..

- مع أن هذه الفتاة لم تترك رجلا إلا ونامت تحته..

سفيتلانا بانفعال: وماذا لو أرسلناك أنت الآخر يا يوريك مصحوبا بكل سرور إلى مكان تعرفه جيدا للحفاظ على عقلك.. هه؟؟

ونظرت إلى زوجها نظرة مزدحمة بمعان كثيرة..

قاطعهما أندريه بحزم: هذا يكفي.. قليل من الهدنة، مازال أمامي تل من الأعمال ليس له أول من آخر.

ضغط على زر المكتب الخاص بالسكرتيرة وأمرها بالنبرة نفسها.

- لا أريد إزعاجا.

همست سفيتلانا وهي تتأمل أظافرها: يا إلهي.. أحيانا لا أعرف ماذا يحدث هنا؟؟

دفع أندريه الفوتيه أمامه حتى وسط الغرفة وجلس في مواجهة الاثنين..

- لابد أن أتحدث معكما.. لا وقت للتفاصيل.. تعرفان طبعا أننا نعيش الآن فى زمن كل شىء فيه ممكن الحدوث..

- حبيبى أندريه أوليجوفيتش.. يوشين، يا سر سعادتى، أنتم أيضا انتشر عندكم وباء المراقبة؟

سؤال سفيتلانا كان مصحوبا بابتسامتها الساخرة..

- نعم.. لا.. أقصد أن الموقف أصبح أمرا واقعا لا مفر منه.

يوريك: لقد توقعنا هذا المصير!!

فك يوريك أزرار قميصه وإذا بسترة كبيرة واقية من الرصاص تطل من تحته.

برقت عينا سفيتلانا وهى تبرطم بغضب: غبى

يوريك متفاخرا: رائع هه!!!؟؟

أندريه المنهك: نعم.. مرة أخرى أنتما أقرب وأحب اثنين إلىَّ، أخى وزوجتى.

لكن الـزوج سـرعان مـا صـحح أوضـاعه بسـرعة البرق بعد نظرة واحدة فقط إلى سفيتلانا.

- أعنى زوجتى وأخى.. لهذا يجـب أن أطلعكمـا علـى الحقيقة.. اقتربا..

اتجهت سفيتلانا مع يوريك إلـى الاسـتراحة الصـغيرة، هناك كانت الخزانة الضخمة تقف شـامخة بجـوار كنبـة ضـئيلة المقام.

أطال أندريه النظـر إليهمـا وأخيـرا قـال: لـو حـدث أننـى...

قاطعته سفيتلانا وهى تصيح: اسكت...!

- أقول لو حدث أننـى...

تدافعت الكلمات من فمهـا متخبطـة تعلـن اعتراضـها: لو ماذا، حدث ماذا؟؟! قلت لك يا يوشين اسكت..

- لا تقاطعينى.

تدخل يوريك فى الاشـتباك: لا يجـب مقاطعـة الـزوج أبدا...

فلاحقته سفيتلانا بغيظ: وفر هذه الحكم لزوجتك أنت!

- ثبَّت يوريك نظره على وجه أخيه وأجاب متباهيا: أنا ليست عندى أى زوجة..

- ولن يكون لك أبدا..

اقتربت سفيتلانا من زوجها ولمست يده بحنان..

- سامحنى، قطعت حديثك.

نظر إليها أندريه ممتنا واستكمل كلماته: لو أصابنى مكروه، كل النقود التى ستجدانها فى هذه الخزانة الضخمة من نصيبكما.. اقتسماها قسمة العدل: النصف بالنصف. لكن أهم ما فى الأمر أنكما لن تتمكنا من فتح الخزانة الضخمة إلا فى حالة وجودكما معا. خذ يا يورا.. مفتاح القفل العلوى. وأنت يا سفيتيك احفظى هذه الأرقام عن ظهر قلب، هذا هو الرقم السرى للقفل الرقمى. أعرف أنك ستودعينه فى ذاكرتك بسهولة، لأنه سيذكرك بشيء ما.. ثبَّت أندريه ورقة تحمل بعض الأرقام أمام عينى زوجته لحظات، وفجأة أشعل فيها النيران وألقى رمادها فى طفاية السجائر على المائدة.

- لن تنسيها هه؟؟

ألقى أندريه بنفسه فى قلب الفوتيه الجلدى الأصفر الوثير الخالى من الأذرع، أطرق لحظات وهو يتفرس فيهما بقوة. يبدو أن المفاجأة زلزلتهما من الداخل.. أخفى الأخ الأصغر وجهه وراء سحابة من دخان سيجارته، وظل واقفا بجوار الخزانة الضخمة تائها فى نوبة من التفكير العميق. أما سفيتلانا فقد حاصرت يوريك بعينيها المتهكمتين، ثم اقتربت من زوجها واستقرت على ركبتيه وجها لوجه. ملست بيدها على رأسه تناوش خصلات شعره، وأطبقت شفتيها فوق شفتيه بشدة..

- مستحيل..

انفلتت منها تنهيدة حارة..

- مستحيل أن أنسى..

ابتسم أندريه بحنان: عظيم.. هذا هو كل ما عندى.

نهضت سفيتلانا والتفتت حيث يقف يوريك، تطاير زفير من بين شفتيها وكأنها فوجئت بوجوده بينهما. عادت

تلف رأسها ناحية زوجها مرة أخرى، وبعثت إليه رسالة صامتة تبوح بالكثير.

فجأة صاح يوريك: يوشين.. يمكنني أن أتنازل لك عن قميصي الواقي من الرصاص.. يعني لو أحببت؟

فعاجلته سفيتلانا بسخريتها المعتادة: يا سلام على البطل المغوار الهمام..!!

- لست بطلا مغوارا ولا أي شيء.. فقط عندي قميص آخر، هذا كل ما في الأمر.

تلّون صوت سفيتلانا بنبرة حزن: لماذا لم يعد لي مزاج للسفر؟ سأبقى! أي راحة يمكن أن أجدها هناك؟

- لا يا حبيبتي سترحلين وكل شيء سيكون على ما يرام. هذا الإجراء من باب التأمين فقط ليس إلا. هيا يا حبيبتي. هل أخذت معك كل ما تحتاجين إليه؟

- لا لن أرحل. أي بحر في الدنيا يمكن أن يغريني بالاستمتاع الآن، فليذهب البحر إلى الجحيم.

مالت سفيتلانا على زوجها ونامت على كتفه.

– حبيبتي.. اذهبي وبمجرد أن أنهي بعض الارتباطات سألحق بك على الفور ولو لمدة يومين اثنين.

دفعها أندريه بنعومة نحو الباب.. باب الخروج .

كعادتها فى كل عام وفى هذه الأيام نفسها كانت تشد الرحال إلى مصيف سوتشى فى جنوب روسيا، لم يكن من السهل أبدا تغيير عاداتها. بالطبع لا.. فإيطاليا، فرنسا، جامايكا، أى بلد قريب أو بعيد كان فى متناول يدها طوال أيام السنة، لكن سوتشى... لم تشغل نفسها يوما بالسؤال عن سر انجذابها الدائم لقضاء الصيف هناك؟ ربما لأنهما عاشا هناك أيام شهر العسل، وكانت هذه أول مرة تقع عيناها على مياه البحر؟ احتمال.. لكن السبب الأرجح أنها فى سوتشى بالذات تنعزل تماما عن كل شىء وأى شىء، ولا تضطر لفراق حدود وطنها أبدا. فى نهاية رحلتها لسوتشى كل عام دائما ما يتكرر مشهد الوداع المؤثر من مدير الفندق الذى اعتادت الإقامة فى أفخر غرفه، دائما ما يشيعها الرجل مودعا والدموع تفيض من عينيه. كانت تقدر له هذه المحبة كثيرا، لأنه لم يخطر ببالها ولو للحظة واحدة أن دموع المدير الغزيرة تنهمر من السعادة لفراقها..

قبل سفرها بيوم واحد صحبها سائق سيارتها "المرسيدس ٦٠٠" إلى المطار، ومن هناك استقلت الطائرة إلى سوتشى. وإذا كانت السيدة تسمح لنفسها بالجلوس خلف عجلة القيادة فى شوارع موسكو، ففى سوتشى يختلف الأمر تماما.. فى المساء كانت تحتل مكانها فى المقعد الخلفى للسيارة وتفتح الزجاج الفيميه حتى نقطة المنتصف، تلوح بيديها للأمام بعصبية ليفسحوا لها الطريق وأيضا لكى تستلفت انتباه الجميع. كعادتها كانت تتعمد الإبطاء من سرعة السيارة حتى تتوقف فى اللحظة نفسها التى تريدها بالضبط، إما حسب مزاجها وإما حسب الجو وإما حسب نظرات أحدهم وطريقة تطلعه إليها..

تفحصت سفيتلانا مدير الفندق الشاب الذى خرج لاستقبالها من رأسه إلى قدميه..

سألته باهتمام: أنت موظف جديد هنا؟

- نعم ولا.. فأنا أعمل هنا منذ ستة أشهر.

أصلحت من وضع نظارتها الشمسية. شاب ظريف لكن عينيه زرقاء، وهى تفضل لون الكارى..

- جارى.. تعال هنا.

هرول إليها كلب بولدوج سمين تحمله أقدامه المقوسة، شق طريقه كالصاروخ داخل بهو الفندق فوق أرضيته الرخامية واتجه إليها رأسا. لكنه لم ينس أن يركن قليلا عند النخلة الصغيرة كعادته قبل الدخول لقضاء حاجته الملحة.

أوشك مدير الفندق أن يفقد النطق تماما من هول الصدمة: ما.. ما هذا.. من فضلك.... كلب؟؟!

أجابته بجفاء وهى تستشعر بوادر أزمة: كلب، نعم كلب.. فهو ليس تمساحا مثلا.. آه لو تعرف أن هذا الكلب منجم لمادة الأدرينالين، أغلى ما يتمناه أى إنسان..

- لكن..

تعطل لسان المدير وهو يستعرض بعينيه وجه الكلب القبيح الذى كان يبادل المدير النظرات النارية وكأنه يفكر بينه وبين نفسه..

- لماذا تتسمَّر مكانك هكذا ؟ اتركنا نصعد إلى حجرتنا ولا تعطلنا! هيا تحرك، وإلا سوف أتسبب في فصلك. عليك اللعنة..

كرمشت سفيتلانا عينيها: ماذا دهاك؟ لماذا تنظر إلى كلبي بهذه الطريقة..؟!

منذ أيام قليلة طالت أو قصرت انتهت سفيتلانا من قراءة أحد الكتب الصعبة... كانت تحرص من وقت لآخر على قراءة كتب ترفع من مستوى الذكاء. بصفة عامة هي امرأة مثقفة، حتى إنها تتحدث أربع لغات مختلفة. صحيح أنها لم تكن تقرأ أو تكتب بها، لكنها على أية حال تكرّسها لخدمة أغراضها الشخصية فقط لا غير.. والحق أنها تجيد هذه المسألة بطلاقة، بالمعنى الكامل لهذه الكلمة. فعلى سبيل المثال قرأت منذ وقت قصير فقط كتابا ذكيا عن كائنات مصاصي الدماء التي تدفع بالبشر دفعا إلى حافة هوة الغضب.. تسرب إليها شعور قوي بالفخر أنها تنتمي إلى هؤلاء. فهي تمتلك قدرة قاتلة على السخرية من أي إنسان، فتفر الدماء من تحت جلد الضحية، مما يحقق لها الراحة والتلذذ. وكل مرة تنجح سفيتلانا في هذه المهمة، تتعاظم

قوتها ويحتل المارد الأحمر وجنتيها وتنضج لمعة عينيها فيتوهج بريقها اشتعالا. حتى شفتيها تظل تضخ نفسها بنفسها ويتمايل لونها بدلال وإغراء.

نعم.. انتاب سفيتلانا شعور جارف أنها وقعت على صيد جديد..

المدير الشاب مذعورا: حضرتك أنا أملِّى عينىّ بالنظر إلى كلبك بكل إعجاب..

(فى نفسه).. ما الذى يجبرنى على التبرؤ من مشاعرى الحقيقية ولماذا؟؟

شرد المدير الشاب لحظات يتأمل سيقان الكلب نصف الدائرية واستكمل حديثه بينه وبين نفسه..

من الذى أفتى أن الكلاب لابد أن تشبه أصحابها دائما؟؟

اختتم تساؤله بابتسامة واسعة أزاحت الستار عن أسنانه البيضاء. فأحست هى أنها تلقت ضربة موجعة اختنقت معها أنفاسها.

- جارى.. هيا ورائى.

اندفعت سفينتلانا نحو المصعد وهى مازالت تصوب عينيها المتعلقتين بالأمل إلى المدير..

- هل اصطحاب الكلاب مندرج فى قائمة محرمات الفندق؟! أم أن..؟

- ماذا تقولين يا مدام "يونيشا"؟؟!!.. لكِ وحدك كل شىء مباح... بالمناسبة لماذا جئتِ هذا العام بدون سائقك الخاص؟

هكذا حاول مدير الفندق إثبات مدى اهتمامه بها وهو يلاحظ ارتفاع درجة توترها.

- السائق.. مريض. (لنفسها) هذا الشاب يتجاوز حدوده كثيرا... مالك أنت ومال سائقى؟

- ربما تكونين فى حاجة إلى مساعدة.. استشارة.. أو يعنى.. كل شىء جائز.

اقترب منها الشاب أكثر..

- أنا رهن إشارتك..

ابتسم المدير وانحنى قليلا يربّت على كتف الكلب، أما جارى فقد استشعر من وجهة نظره خطرا قادما فارتفعت زمجرته عاليا.

تحسس كف السيدة جسد كلبيهما الفاتح اللون بانسجام عميق: فى العادى هو رقيق جدا.

المدير بمرح: واضح.. واضح!

اتجهت سفيتلانا إلى باب المصعد وهى تطلق سخريتها المعتادة: يا له من طفل معجزة!

- أنت أيضا.. مظهرك يوحى أنك حلم يصعب تحقيقه، معتزة بنفسك، لا تتنازلى عن حريتك لغيرك أبدا، فى الحقيقة روحك رقيقة، طيبة، ومرهفة...

حدقت فيه سفيتلانا باهتمام: كيف عرفت؟

- تماما مثل جارى.

قذفت السيدة بشعرها الفاتح إلى الوراء وفى خطوات متسرعة ألقت بنفسها داخل المصعد: هذه الفنادق أصبحت مرتعا يعمل فيها كل من هب ودب! يا ربى! يجب أن أتعامل

معهم أولا، ثم أتسبب في فصلهم بعد ذلك.. نعم.. نعم.. فصلهم بلا رجعة.

أحدث دخولها صالة الطعام بالفندق دويا قاتلا وكأن قنبلة انفجرت دون وجه حق.. كانت ترتدى فستانا طويلا متوحش الشفافية من الشيفون الوردى، له لون جسدها نفسه، وقد احتضنت نفسها بشال من الوبر الأحمر. كانت كمن وضعت كلمة النهاية لمهمتها فى حمَّام السباحة منذ لحظات، وجاءت تتبختر تحزِّم نفسها ببشكير مشدود وبرنس يستر القليل جدا من مفاتنها. بصعوبة تشق هى طريقها الآن بين الموائد تتمنى اللحظة التى تصل فيها إلى مقعدها لتلتقط أنفاسها وتأخذ راحة من تلك النظرات التى تزعجها.

– آه من الرجال.. كم مللتهم!

أطلقت تنهيدة..

– من ناحية جميلة، نعم أنا جميلة.. نعم جسدى فاتن، لكن لماذا تلتهمنى نظراتهم كما لو كنت غانية تعرض ثمرات جسدها بأرخص ثمن؟ ألا يفهمون أننى لا أتبع قائمة ممتلكاتهم الخاصة؟ كل ما يشغل بالهم الجنس، لا شىء غير الجنس.

تنقلت عيناها بين كل من يحيطون بها بنظرات ينبعث منها كبرياء الملكات مثل نظرات كليوباترا..

- أمر محزن.. بالتأكيد هناك أشياء أخرى فى الحياة أهم من الجنس.. لعبة الشطرنج مثلا، الكتب، أو تلك الهواية الأخرى التى تسمى.. تسمى.. آه جمع الطوابع..

قبضت على سلسلة كلبها اللامعة: هيا بنا يا جارى نأكل شيئا خفيفا.

تسابقت كل العيون حولها فى الاتساع تتابعها بدهشة وهى تمسك شالها الوبرى الناعم بيد، وباليد الأخري تجذب سلسلة الكلب وتعبر القاعة كالطلقة من خلف المتر دوتيل متجهة إلى مائدة خالية. على بعد خطوات قليلة هناك يجلس بعض الإيطاليين على المائدة المجاورة يتجاذبون أطراف الحديث بحيوية، تتفاعل حركة أيديهم مع إيقاع كلماتهم بمنتهى النشاط. وما إن تكشّفت لهم ملامح صورة السيدة القادمة ناحيتهم عن قرب حتى تخلى أهل إيطاليا عن حديثهم وتفرغوا لمراقبة خطواتها باهتمام، وكأنهم يتراهنون هل سينفلت منها الشال أم لا!!

بمجرد ما اعتدلت سفيتلانا فى جلستها وبكامل هندامها على الكرسى الذى جذبه لها الجرسون بأدب، انطلقت صيحة خيبة أمل مدوية من المتراهنين، تماما مثل مشجعى كرة القدم المفجوعين فى ضياع ضربة جزاء مهمة بعدما أطاح اللاعب بالكرة فى الأوت..

اقترب منها المتر دوتيل يقدم إليها قائمة الطعام فى غلاف جلدى بنى اللون: لو أذنت لى حضرتك ممنوع وجود كلبك هنا، هل نصحبه إلى الغرفة؟

أشارت سفيتلانا بإصبعها: كلبى سيجلس أمامى.. هنا.

- لكن.. أعنى.. لا أعرف إذا كان هذا الأمر سيروق لزبائننا أم لا.؟؟

- من لا يعجبه ينصرف بألف سلامة..

على حين انهمكت هى فى قراءة قائمة الطعام بتركيز، كان المتر دوتيل يأخذ الكرسى القابع أمامها بعيدا وهو يفرج عن تنهيدة مكتومة. وإذا بالكلب جارى يسبقه ثم يقفز قفزة هائلة ويستقر فوق الكرسى بالضبط. تبادل المتر

دوتيل نظرات سريعة مع ضيفه الكلب، واحتله شعور طاغ أن جارى يبعث إليه نظرات شكر ممتنة على هذا المقعد الجميل.. كان عنق جارى مزينا بفيونكة حمراء من قماش وبرى ناعم تتمايل بعيدا عن نقطة المنتصف، فاجتاحت الرجل رغبة عارمة أن يمد يده ويعيد الفيونكة إلى وضعها الصحيح. لكن الكلب.. استشعر النية المبيتة فأخذ يضغط على أسنانه بشراسة وراح يزمجر بصوت خفيض.

أنابت سفيتلانا عن جارى فى مهمة الشرح: إنه لا يحب الجلوس طويلا أمام طبق فارغ.

فجأة انتفضت السيدة التى كانت تجلس مع صديقها على المائدة المجاورة، فى محاولة علنية لإبداء ضيقهما الشديد مضحيين بوجبة العشاء التى لم يستكملاها بعد.

كاد بركان اللون الأحمر ينفجر من فوهة وجه السيدة من فرط شرب النبيذ والتوتر.. وصاحت وهى تهوى بالمنشفة على المائدة: فوضى! هذه فوضى..!

اندفعت السيدة نحو باب الخروج دون أن تلتفت إلى صديقها مطلقا.. رجل أصلع، قصير القامة، متوسط العمر يهرول داخل سترة مقاسها كبير بالتأكيد أكبر منه بنمرتين

وكأنه استأجرها من أحدهم. سترة أو رجل أو.. في الحقيقة هذا لا يهمنا في شيء.

المتر دوتيل بانزعاج: هل رأيتِ ؟؟!! الزبائن غاضبون.

- دائما ما يغضب الناس لأى سبب.. ثم..

شيعت سفيتلانا السيدة التي انتفضت غاضبة بعينيها..

- .. ثم عندما تمتلك هذه السيدة ساقين مقوستين بهذا الشكل، طبعا لا يتبقى لها إلا إبداء الغضب..

***

جلس "يورى أوليجوفيتش" خلف مكتب من خشب الزان غارقا بين تلال من الأوراق وصحف الاقتصاد وعدد من الملفات الجلدية تحمل عبارة "برجاء اعتمادها من نائب رئيس البنك". من أحد أدراج المكتب أخذ يورى زجاجة نبيذ "ريمى مارتان". نزع السدادة وقذف في جوفه عدة جرعات متوالية وهو يثبت نظره على الباب الذى انفتح فجأة، ودخل رجل طويل القامة يلبس بذلة فاتحة اللون وفي يده ملف

بلاستيكى أخضر. انتفض يورى أوليجوفيتش وزمجر غاضبا فى نفسه: هذا ما يحدث دائما... لا يتركونك تهنأ بلحظة لنفسك أبدا..

- ماذا تريد؟

- أريد تقديم هذا المشروع لأندريه أوليجوفيتش.

- وأنا.. من أنا؟؟ هل تعتقد أننى أقوم بدور سكرتيره مثلا ؟؟!!

نظر يورى أوليجوفيتش إلى ساعة يده. أوشك يوم العمل على النهاية وحتى الآن لم يأت شقيقه إلى البنك، لابد أنه أسرف فى العربدة أكثر من اللازم ... هذا يفسر إصراره على التخلص من زوجته بحجة حاجتها للاستجمام والراحة..

الرجل الطويل القامة: كنت أعتقد أنك تحل محله فى غيابه وستدرس المشروع؟

- أعرف جيدا كل ما تفكرون فيه جميعا.

تنازل أوليجوفيتش عن مقعده وراء مكتبه، ففقد سلطانه على الفور وتحول إلى مجرد "يوريك". كم تلعب قطع الأثاث دورًا مهما فى حياة الإنسان..

- نعم.. أعرف جيدا

ظل يوريك يقطع حجرة المكتب المتخمة بصور عديمة الذوق والفن ذهابا وإيابا وهو يكاد ينفجر من الغيظ. لم يكن يتذكر أسماء الرسامين جيدا لكنه كان يعرف أن هذه الصور بالذات هى أحدث موضة فى عالم الفن، والأهم من ذلك أنها باهظة الثمن جدا. موتور عقله تعطل وتوقف عن التفكير! فلتذهب سمعة البنك إلى الجحيم، فلتذهب سمعة البلد كله إلى جهنم الحمراء.. المهم فى النهاية هو النقود ولا شىء غير النقود. فجأة أحس يورى بنغزة حادة تناوش قلبه، عندما تذكر هذه الخزانة الضخمة الواقفة على حالها فى الغرفة المجاورة.

- خذ أوراقك هذه، لن أفحص شيئا.

- لقد..

- انتهينا.. قلت انتهينا!!!

هوى يوريك بقبضة يده فوق رأس المائدة الرخامية الواقفة بجانبه، وإذا برعدة ألم مخيف كالتيار الكهربائى تصعق قبضة يده؛ وكأن السطح الرخامى يرد له الضربة..

(فى نفسه): هل يمكن أن تصيبنى لوثة عقلية بسبب هذه الحفنة من الموظفين المتمردين؟ أخذ يوريك يمسح يده الأولى بيده الأخرى.

لا أعرف لماذا لا تجد تلك المائدة اللعينة إلا هذا المكان لتقف فيه؟؟ يجب إزالة وجودها من هنا تماما.

سارع الموظف بالفرار من الحجرة. اقترب يوريك من ضلفة المكتب وتناول زجاجة "الريمى مارتان" ليعاود تجرعها من جديد، لكن رنين جرس التليفون لم يترك له فرصة شرب ولو رشفة واحدة. زوى يوريك حاجبيه بشدة.

- نعم.. أسمعك.. أنا.. كيف؟ متى! آآآآآآآآآه...

سقط يوريك مستسلما بين أحضان الفوتيه.

- فهمت.. والزوجة.. هل أخبرتموها؟ ستتصلون الآن. نعم توجد رحلة.. أوكى.

تجمد يوريك ساهما في مكانه بضع دقائق وهو يحملق في نقطة واحدة لا تتغير. فجأة رفضت عجلة الحياة الاستمرار في مسارها التقليدي. توقفت وبدأت تدور في الاتجاه المعاكس.

من الآن فصاعدا ستتبدل كل الأمور.. سيتغير كل شيء، ولم لا؟ لكن كيف حدث ذلك؟؟! يبدو أن شقيقي كان يستشعر مصيره! كيف امتلك هذه القدرة العجيبة..!!

راحت أفكاره المبعثرة تتخبط حائرة في كل اتجاه.

ضغط على زر جهاز الديكتافون وأمر سكرتيرته بحزم: أنا مشغول جدا.. لا أريد رؤية أحد مهما كان..

اجتاز الباب الداخلي واقتحم حجرة أخيه. أخيرا تقابل مع الخزانة الضخمة الموعودة وجها لوجه.. وحدهما تماما. أخرج يوريك المفتاح من جيبه، فانفتح معه القفل الخارجي للخزانة الضخمة، وأنجز نصف المهمة بنجاح.

راح يوريك يعتصر ذكاءه لتخمين الرقم السري للقفل الداخلي للخزانة الضخمة.. ربما يكون تاريخ زواجهما..؟؟!!

قفز إلى الأجندة القابعة على المكتب التى تختزن الأرقام بخط صغير. عشرة.. خمسة.. ألف وتسعمائة و.. لا.. ليس تاريخ زواجهما.. اللعنة على الدنيا كلها! فلنجرب تاريخ الميلاد.. لا.. ولا تاريخ الميلاد أيضا.. ماذا أفعل الآن؟؟ أيتها العاهرة!

انطلقت قدم يوريك تركل جسد الخزانة الضخمة، لكن يبدو أن ركلات الوريث الغاضب جرحت كبرياء الخزانة الضخمة فأصدرت صريرا حزينا قصيرا لا يعبر عن كلمات محددة..

ضغط يوريك على جهاز الديكتافون: ماريكا.. يا ماريكا.. أين أنتِ؟؟!! فورا أجد سيارة نقل كبيرة تقف على باب البنك، أى غد هذا؟؟ أقول لكِ فورا.. حالاً.. إيه؟؟ مالى أنا ومال الليل الذى هبط على الدنيا !! ابحثى عن السيارة بسرعة.. مفهوم؟؟!

ثم انشغل بالتفكير بينه وبين نفسه وهو يتأمل الخزانة..

كم رجل تحتاجه هذه الخزانة الضخمة ليقتلعها من مكانها؟ لا يقل عن أربعة رجال.. الوقت يمر كالريح وعقارب الساعة اللعينة لا تكف عن الزن.

ياه.. استمتعت سفيتلانا بتناول العشاء وسط هذه الصحبة اللطيفة من الظرفاء واللطفاء. صعدت إلى حجرتها وبدأت تستعد لاستبدال ملابسها . الآن قبض الظلام على الدنيا! أفضل موعد للاستحمام في البحر.

كان طقس السباحة في هذا الوقت مدرجا ضمن برنامجها الأساسي. تعشق هي الاستحمام في مياه البحر خصوصا في أحضان الليل، والشاطئ يخلو من البشر، والقمر المكتمل يبرق بين سطور السماء ... ثم تتسلل هي بحذر على هدى ضوء القمر، وتغطس بين حنايا المياه التي تدللها.. الآن حانت لحظة ميلاد القمر وبدأت خطوط أقواسه في التعرج، وكأنها تفتح شرايينها للهواء الطلق متأثرة بحفاوة الحياة. ربما يتعجب البعض من هذا السلوك الغريب، السباحة في البحر ليلا وبعد تناول وجبة العشاء! لكن سفيتلانا لم تكن أبدًا شغوفة بحب الطعام، حيث تستمتع بالتذوق في حد ذاته لا أكثر ولا أقل. خلعت الفستان الطويل الشفاف وحررت الشال

المثبّت فى الفستان بخيوط قوية. فى صالة الطعام كان يبدو أنها تقبض بعناية على شالها، وتوهم الجميع أن الشال لا يلتصق بالفستان ومعلقا وحده فى الهواء. كان هذا من باب اللعب ليس إلا. كانت سفيتلانا تموت فى اللعب.. لبست المايوه البكينى الأصفر الصارخ يسانده خط طويل من الأستك الرفيع، ولم تنس أن تصطحب معها علبة كبيرة متخمة بالكريم تحمى بها جسدها الجميل. راحت أصابعها تتلمس جسدها وتداعبه ببرودة الكريم المنعش، وجارى يتابع صاحبته باهتمام مثير.

دقات على الباب.

وضعت سفيتلانا علبة الكريم بجانبها على المنضدة وهى تتساءل: مَن؟

- سفيتلانا.. أنا متأسف.. لقد أنهيت كل أعمالى وفكرت فى المرور عليك، لا أعرف.. هل تحتاجين أية مساعدة..؟

فورًا تعرفت على صوت المدير.

بسخريتها المعتادة: مساعدة.. لا.. هل بلغت بك الوقاحة هذا الحد أن..؟

فتحت الباب.

باغتها المدير وفجأة وجدته داخل غرفتها.

- هل تنوين السباحة؟ فى هذا الوقت؟؟ وحدك هكذا؟؟؟

اخترقها بنظرة فاحصة متأنية..

- وهكذا تتم سرقتك بسهولة، ألم يخطر ذلك على بالك؟! لو كنت مكانك لتراجعت وغيرت خططى فى الحال.

امتنعت سفيتلانا عن الكلام وتشبعت عيناها بنظرة امتنان غريبة، وبدت كأنها منجذبة إليه لا تملك إلا أن توافق على كل ما يأمر به..

بنبرة متأرجحة بين التمنى والاستفزاز: ماذا تقترح علىَّ؟

- أنا لا أملك أى شيء على الإطلاق.. كل ما أملكه نفسى أقدمها لكِ.

- ماذا تقصد؟؟

خطت سفيتلانا خطوة نحو كلبها جارى الذى كان ينتظر نتيجة المفاوضات بشغف. أمسكت الحلقة الملتفة حول رقبته برفق تداعبه..

- تعال هنا يا حبيبى..

- خسارة أنك لا تنعمين علىّ أنا بهذه الكلمات..

ابتسم الشاب وهو يراقبها تتخلص من الكلب داخل الشرفة، ثم تتركه هناك وتوصد باب الشرفة وترخى ستائر الغرفة..

- هذا أفضل حتى لا يتلصص علينا هذا الكلب الفضولى.

دنت سفيتلانا من المدير الشاب..

- وإذا قبلت عرضك وتناسيت كل خططى، هل أنت متأكد أنك لن تندم فيما بعد؟؟

- مستحيل.

ثبت المدير الشاب في مكانه بالضبط.. من يدرى ماذا تنوى هى؟؟

- لكن يجب أن أحذرك.. أحذرك أن مزاجى اليوم متعكر بعض الشىء.

- الحال من بعضه.. إذن فقد ضربنا عصفورين بحجر واحد..

- أوكى.. نجرب..

مالت برأسها تجاهه..

هيه.. من أين نبدأ؟؟

- نبدأ بتغيير الملابس..

لم يمهل القدر المدير الشاب لإنهاء كلماته الساخرة، ولم يعرف كيف انقضت عليه سفيتلانا فى قفزة واحدة وألصقت شفتيها بشفتيه.

أحس الشاب بطعم القبلة مملحا فى فمه، مذاق مر مثل طعم قطرات الدم..

- آه.. هكذا؟؟!

امتدت يدا الشاب تدفعانها برفق على البساط الناعم، سارع بجذب حزام روب الحمّام الملقى فوق الفراش. فجأة وجدت سفيتلانا نفسها مقيدة اليدين بطرف الحزام، على حين وجدت الطرف الآخر مربوطا فى قدم السرير. قاومته مقاومة صامتة منقطعة الصوت. يبدو أنه نجح فى مهمته.. فك أزرار بنطلونه الجينز وسحب الحزام المحيط بخصره. لمعت عينا سفيتلانا فى استسلام غريب. لقد نجح فى فهمها بالفعل.

- نامى وإياك أن تتحركى.. لو صرخت سأنهال عليك ضربا بالحزام.. هكذا..

ألهب الشاب ظهر الأرض بجانبها بقوة.. تقوقعت سفيتلانا على نفسها فى وضع نصف دائرى من فرط الخوف وجمدت مكانها..

- فهمتِ؟ ليس لكِ عندى إلا هذا!

وعاد يشبع الأرض ضربا بالحزام مرتين أخريين.

وشوشته سفيتلانا: بسرعة..

- لا تتعجلى الأمور!

مد الشاب يده ينتزع قطعة المايوه البكيني الرفيعة. يبدو أن الأستك الرفيع أبى أن يغادر جسدها إلا بعد أن يترك بصماته البارزة، لكنه مع ذلك لم يستسلم لمحاولات الشاب المثار..

أيها الأستك البغيض.. لا تريد أن تهجر جسدها أبدا.. أوكى كما تحب.

لمح الشاب على المنضدة مقصا صغيرا، وبيد مدربة خلع عنها هذا البكيني العنيد.

- أنتِ الآن ممددة ... يحيط بك عدد كبير من الرجال.. يأكلونك جميعًا بنظراتهم، يتلهفون على مشاهدة كيف سأمارس الجنس معك. هيه.. أى طريقة تحبينها ؟؟

فجأة سقط بكل جسده فوقها تماما. بطرف عينيه لمح ساعة يده وراهن نفسه..

- ماراثون جديد.. سنرى ماذا ستكون النتيجة؟؟!

همست سفيتلانا: أنت بالتأكيد مريض نفسى، سأطلب لك البوليس..

- اطلبى البوليس.. وسأشرح لهم أنا كيف قمت باغتصابى..!

أخيرا استلقى الشاب على ظهره بجانبها.

ابتسمت سفيتلانا بمكر: أنا أغتصبك ويداى مقيدتان؟!!

- وهل تمنعك يداك المقيدتان عن اغتصابى؟؟ أنا متأكد أننى لو أطلقت سراح يديك فلن يكفيكِ جسد رجل واحد..

نهض الشاب ليأخذ حماما باردا تحت الدش. عاد بعد دقائق ليجدها مازالت جالسة على الأرض ونباح الكلب يتواصل من الشرفة.

- أطلق سراح يدى.

- أليست لكِ رغبة فى العراك؟؟

- ومن أين آتى بطاقة للعراك..!

- سأقنع نفسى أننى أصدقك .

أخذ الشاب يفك قيودها وبهدوء مر بيديه على جسدها الأحمر من أثر القيد يدلكه برفق.

فجأة سألته سفيتلانا: صحيح! ما اسمك؟

انطلقت ضحكاتهما معا.

- اسمى أندريه..

دس الشاب إجابته المفاجئة بين قهقهاته وكأنها نكتة مرحة تستحق الضحك.

- أهلا.. كى تكتمل الليلة.. أرجو ألا تخبرنى بالمرة أنك تحمل لقب يوشى؟

- ممكن جدا أن يكون يوشى إذا قررتى أن تتبنينى.

غمزته بيدها فى بطنه: قليل الأدب!

ناوشها المدير الشاب وهو يقطب حاجبيه: حالا قلتِ إن طاقتك الباقية لا تكفى للعراك..

- كيف استطعت امتلاك هذه المرأة والسيطرة عليها بهذه الدرجة؟! مجرد حسبة منطقية وصحيحة.. غالبا ما تكون المرأة الجميلة القوية عبدا لنزعتها الماسوشية. فهذه

النوعية تشـــقى بقوتهـــا وتتعـــذب بشخصـــيتها القياديـــة، تتملكهـــا رغبة طاغية فى اللاوعى أن تلعب دور التـــابع وتســـتعذب طعـــم الإهانة. لكنها فى الحقيقة إهانة قصيرة العمر تولـــد لتمـــوت فـــى الحال.. ففى اللحظة نفسها التى تســـقط فيهـــا هـــذه المـــرأة إلـــى الهاوية، تجدها تصـــلب عودهـــا فجـــأة وتنتصـــب لتحلـــق بعيـــدا أعلى مما كانت عليه. هذا ســـرهن.. أغلـــب الظـــن أن حـــواء لا تعرف هذا عـــن نفســـها. هـــذا النـــوع مـــن الســـيدات عشـــيقات رائعات قل أن يجود الزمان بهـــن، بســـكنَّ بيـــت الـــذاكرة مـــدى الحياة..

عاد جارى يعلن عن وجوده بنباحه العالى.

داعبها أندريـــه بســـخرية وهـــو يحـــاول تعطيلهـــا عـــن ارتداء ملابسها: هل تعتقدين أنه يغار مثلا أم ماذا؟؟!!

- ولماذا يغار؟ فهو معتاد على ذلك..

كانت تغلق آخـــر أزرار القمـــيص الـــذى ارتدتـــه، والآن جاء دور البنطلون الجينز الأسود .

تابع المدير الشـــاب مناوشـــاته متصـــنعا الغيـــرة: مـــاذا تعنى جملة أنه معتاد على ذلك؟

- معتاد تعنى معتادًا.. بالمناسبة يا عزيزى سقط منى سهوا تحذير مهم.. نسيت أن أخبرك أننى مصابة بالزهرى..

أغلقت سفيتلانا أزرار الجينز فاكتشفت كم أصبح ضيقا بالفعل.

- يجب أن أفقد بعض الكيلوجرامات.. يا إلهى مرة أخرى!! إلى متى سيستمر هذا العذاب ؟!

أجابها أندريه برموش باردة متصلبة: أنا أيضا مصاب بمرض الإيدز، لقد وصلتنى هذه المعلومات بالأمس فقط..

تبادلا النظرات لحظة ثم غرقا فى ضحكاتهما مرة أخرى.

لمست سفيتلانا أنفه بدلال: النتيجة الآن واحد واحد.. يعنى متعادلان..

- كم هو ظريف هذا الشاب.

جاء صوت نباح الكلب جارى يعلن عن نفسه من بين جدران الشرفة لكن بإلحاح أكثر هذه المرة.

نبرة تردد خافتة بدت فى صوت سفيتلانا: ممكن نسمح له بالدخول الآن؟؟

صعدت بقدميها فوق الكنبة.

- ولماذا.. كى ينهشنى فى مكان حسّاس؟!

- حتى لو.. اطمئن لن تكون الخسارة كبيرة..

اقتربت من المرآة ومررت الفرشاة بين خصلات شعرها.

- لن تكون الخسارة كبيرة بالنسبة لمن بالضبط؟؟

تسلل الشاب بحذر ليقف خلفها تاركا العنان ليديه تعبث بصدرها الطرى.

أطلق تنهيدة حارة..

- شيء مثير.. هل هذا سيليكون أم..؟؟! بالمناسبة ما هو الفارق بين الصدور الطبيعية والمحشوة بالسيليكون؟ فالنساء فى روسيا فقط دون غيرها يخجلن من عمليات التجميل، أما فى الغرب فيتفاخرن بذلك، فهذا دليل على الثراء.

قطع رنين التليفون لحظة الصمت فى توقيت سيئ تماما.

التفتت سفيتلانا إلى أندريه: ارفع السماعة.. هيا.

- أنا؟؟ وإذا كان زوجك؟؟

- يا إلهى.. قل له إن حضرتك السبَّاك.

- أنا؟!

- وهل أكلِّم نفسى؟؟ طبعا أقصدك أنت.

اقتربت من البار وملأت الكوب بقليل من الويسكى .

- رفع أندريه السماعة: السيدة ليست هنا. ماذا أبلغها؟.. ماذا؟

نظر الشاب إليها نظرة قلقة.

- ماذا؟؟!! حاضر.. سأبلغها.. أنا؟ نعم.. وماذا يعنيك من أنا؟؟

وضع السماعة بحرص وقد وقع فى مأزق لا يُحسد عليه. كان من المفروض أن يعود إلى بيته، إلى زوجته، لكن كيف سيتصرف الآن؟؟

رفعت سفيتلانا الكأس إلى شفتيها وهى تتفرس ملامحه: ماذا حدث؟ لماذا أنت مضطرب بهذا الشكل؟؟

احتضنها الشاب بين ذراعيه وتعبأ كل جسده بدفء حرارة جسدها، كم هى جميلة، شابة لكن آه من عدوانيتها..

- سفيتيك.. أريد أن..

لمست شفتيه بأصابعها.

- لا أعرف كيف أخبرك.

فجأة أحس المدير الشاب أنه مخلوق بائس لأقصى درجة.. وحيد.. ما الذى رماه على هذه المرأة؟ هل من قلة النساء حوله؟؟ لا.. فقط أراد أن يتذوق سحر نساء العاصمة؟! تذكر زوجته التى تخدم الزبائن فى مطعم الأسماك، وكيف أنها لم تستمتع بممارسة الجنس معه أبدا منذ تزوجته. كانت هى تقاوم كل محاولات نزقه الجارف الذى يتمادى فيه، وكان هو يريد امتلاك المرأة التى تنام معه بالكامل. يكون سيدها، تتأمل عينيه فى أقصى لحظات الإثارة، يموت معها ثم يولدان معا من جديد. مارس المدير الشاب الجنس أحيانا مع بعضهن لدرجة مقززة، وكم سمع من

اعترافات سرية فى ضباب الليل . هـذا كلـه محـزن.. محـزن بحق.

أفاق المدير من أفكاره عندما أعـاده إلـى أرض الواقـع نباح الكلب القادم من الشرفة.

احزمى حقائبك.. يجب أن تطيرى إلى موسكو حالا.

تعلقت عيناه بعينيها كما لـو كـان يبحـث عـن شـىء ضاع منه..

فزوجك..

تابعت كلماته بقلق: مريض؟

التقط أندريه ولاعته التى سقطت من بـين يديـه: نعـم.. تقريبا

- غريبة.. إنه نادرا مـا يمـرض، فهـو لا يـدخن ولا يقرِّب المشروبات الكحولية من فمه أبدًا خاصة أنـه تجـرع مـا يكفى فى شبابه فى البا..

توقفت سفيتلانا فى منتصف الكلمة، هـل نسـيت نفسـها لتتكلم هكذا بصراحة أمام شخص غريب..؟!

- سفيتلانا.. احزمى حقائبك.. لقد قتلوه.. يجب أن ترحلى فورا..

- قتلوا من؟.. وماذا سيكون مصيرى؟

تسابقت الكلمات على الخروج من فم سفيتلانا بسرعة وهى تحزم حقائبها.

سألت نفسها وبريق خاطف من الأمل يداعبها وهى تجذبه من كُم قميصه..

- هل يمكن أن تكون هذه دعابة سخيفة؟ آه.. قل لى.. قل لى إنها نكتة!!!

وانخرطت فى نوبة بكاء.

- الحمد لله.. الدموع ستجعل الموقف أسهل. وبدأ تفكير الشاب يتجه اتجاها مختلفا.. أرملة؟ هل أصبحت هذه المرأة تحمل لقب أرملة؟ فى الواقع هى ليست فقيرة. يبدو أن القدر يرتب للجميع مفاجأة مثيرة، فالشيطان لا يضيع وقته فى الهزار أبدا.. لماذا خططت تدابير لعبة القدر أن يلتقيا اليوم بالذات هكذا ببساطة؟؟ لكن.. هذه المرأة لن تظل وحيدة طويلا. أى أبله يمكنه إدراك ذلك دون عبقرية. فى الحقيقة

هى لا تصلح إلا لزوج "مازوخى"، لكنه يمكن أن ينقلب إلى هذا الصنف فى سبيل هذه الثروة الضخمة، هذا أمر وارد تماما.

احتضنها بين ذراعيه: سفيتلانا.. يجب أن ترحلى وأنا سأرتب لك كل شيء، سنتصل الآن بالمطار. هناك رحلة إلى موسكو ستقلع بعد ساعة وستلحقين بها. سأجمع أمتعتك وأرسلها إليكِ. لا تقلقى.. أرجو أن تثقى بى..

وضع يده على ذقنها وجذب وجهها نحوه حتى تتلاقى عيونهما..

- هل فهمتِ كل شيء؟؟!!

اندفعت بسرعة نحو الباب: فلنذهب إذن.. لكن جارى!!

والتفتت نحو الشرفة باضطراب متزايد..

- ماذا سيكون مصيره؟

- سافرى وحدك وسأرسل لكِ جارى مع بقية الأمتعة.

بصوت غارق فى الأسى: جارى فى قفص؟ فى قسم البضائع؟

أجابها بسخرية: سفيتا.. هل أنت واعية لما تقولين.. لا يا سيدتى سأرسله لكِ فى الدرجة الأولى!!!

فرت منها تنهيدة..

- طيب.. تصرف كما تشاء، هيا بنا.

- هيا..

فتح المدير الشاب الباب وخرج خلفها، فاستقبلهما ضوء الصباح الذى كان يلقى تحيته الأولى على الدنيا...

بدون سابق إنذار غمر الضوء الساطع حوائط الجراج المغطاة بألواح معدنية.

- هنا.. احملوها إلى هنا.

جرى يوريك ليتخذ موقعه أمام الحمّالين الذين تكتلوا على الخزانة الضخمة يرفعونها بلفائف الحبال التى تحاصرها من كل جانب، وهو لا يمل إرشادهم بعناية..

- ضعوها هنا.. تمام.

أنهى يوريك أوامره وهو يمنحهم المبلغ المتفق عليه..

- يمكنكم الانصراف الآن.

نظر الحمَّال القوى إلى يوريك بعينين معترضتين وملابس تتناثر على معظمها بقع سوداء كمستنقع المازوت..

- لكن يا سيدى هذا قليل!

أخرج يوريك مبلغا آخر من المال ودفعه إليه مجبرا: نقود.. نقود.. المال أصبح هو كل شىء..

عند مدخل البوابة أقبل رجل قصير يضع نظارة على عينيه، له طريقة عجيبة فى تحريك قدميه حتى يبدو أنه يسير إلى الجانب. له كتف يتفوق فى ارتفاعه على زميله الآخر. اندفع إليه يوريك بنشاط.

- أنت زلاتا أوسكى.. زلاتا أوسكى نيكولاى نيكولايفيتش؟

- يمكنك أن تنادينى نيكولاى.. ماذا تريد؟

أسرع يوريك يغلق بوابة الجراج.

تفحص يوريك هيئة الرجل الواقف أمامه مندهشا: هل أنت.. خبير في الخزائن؟!

- ولماذا تعتقد أنني خبير في أي شيء آخر إلا الخزائن؟؟ فبما أن القدر ضاق بي ولم يهبني عضلات العملاق الأمريكي سلفستر ستالوني، اضطررت للتخصص في الخزائن ولا شيء غيرها.

صوب يوريك إصبعه تجاه الخزانة الضخمة الواقفة هناك: رائع.. ها هي.. لم تُستخدم منذ زمن بعيد. تصور أنني خدعت نفسي بنفسي.. وضعت رقما سريا عبقريا حتى إنني أنا نفسي لا أستطيع تذكره... تصور أنني نسيت الرقم السري لهذه الخزانة الضخمة، رغم أنني وضعته بالتاريخ نفسه لأول مرة مارست فيها الجنس باليوم والشهر والسنة.. كنت أعتقد أنه حدث تاريخي في حياتي لن تمحيه الذاكرة. لكن المشكلة أنني مارست الجنس بعد ذلك مع الكثيرات والكثيرات في أيام مختلفة وعلى مدى سنوات متعددة، فاختلطت كل الأرقام في ذاكرتي ولم أعد أذكر أي شيء على الإطلاق..

سرح يوريك داخل نفسه لحظة.. يبدو أنه كان يحاول اعتصار ذهنه لتذكر أسماء رفيقاته بلا جدوى. كان يوريك يدرك جيدا كم تبقى له من الوقت قبل وصول سفيتلانا. على أية حال حتى إذا لم يتمكن من فتح أبواب الخزانة الضخمة قبل مجيئها، لن تستطيع هى العثور عليها مهما حاولت. فصاحب هذا الجراج هو.. فى الحقيقة لا يهمنا كثيرا معرفته. لتذهب سفيتا إلى الجحيم وتحترق بنارها، لكنها لن تنال أو تستمتع بورقة مالية واحدة مهما حدث. فأندريه فى النهاية هو الأخ يعنى دم العائلة.. شبًّا خطوة بخطوة معا، ذهبا إلى موسكو معا، أسسا مستقبلهما معا. باختصار كان طوال حياته الذراع الأيسر لشقيقه الأكبر، أو بمعنى أدق الذراع الأيمن.

دفعه صوت الرجل الخشن إلى الوراء: هيه.. هل نبدأ بالقفل العلوى؟

فتش يوريك فى جيبه وأخرج المفتاح: ها هو.. لقد أدرته فى هذا القفل وانفتح، تأكد بنفسك لو تحب.

دقائق قليلة وانشرحت أسارير خبير الخزائن

- خلاص.. كله تمام.

- أخيرا.. كدت أعتقد أن هذه الخزانة الضخمة لن تكون من قسمتى ونصيبى.

تخلص يوريك من الجاكت الذى يرتديه وألقى به على الأرض. من الغد سيشترى عشرة جاكتات مثله وأفضل. فى ذروة غضبه تخلص بالمرة من القميص الواقى من الرصاص الذى يثقل جسده، وألقاه على الأرض بكل ثقله محدثا ضجيجا مدويا إثر وقوعه على الجاكت الأزرق المصنوع من الصوف الإنجليزى الممدد أسفل.

انحنى الخبير على القفل ونبه يوريك قبل انهماكه فى معالجته: أرجو عدم الإزعاج.

- لك هذا.

فتح يوريك زجاجة الفودكا وارتشف منها رشفة واحدة فقط لا غير.. ياه.. للأسف خلص الكونياك.. لكن لا.. يوجد متسع من الوقت لإحضار زجاجة جديدة من كونياك الأثرياء. على أية حال هناك صندوق فودكا فى السيارة.. مشروب عامة الشعب المفضل. فمخزون فودكتنا عامر دائما وينفعنا وقت اللزوم.

فشل يوريك فى الجلوس على المقعد الخشبى الذى خذله وسقط به لعدم قدرته على تحمل ثقله، كانت قدم الكرسى الرابعة بالية أكل عليها الدهر وشرب. هذه القدم المنكسرة يكسوها الطلاء الأبيض دون سبب واضح، و تتمتع بقصر القامة أكثر من زميلاتها الأرجل الثلاث المتبقية. بدا الانزعاج يطفو على نظرات خبير الخزائن. فهم يوريك الرسالة جيدا فضغط بإصبعه على شفتيه يأمرهما بعدم الكلام، واستمر يتجرع زجاجة الفودكا وهو مكوم مكانه على الأرض. نعم.. يا سلام على الالتزام، الأخ الأكبر يرقد الآن فى مكان ما.. بين جدران المشرحة بالضبط ... لا يشعر بأى شىء.. أى شىء مهما كان.. شىء مقزز.. هز يوريك كتفيه بلامبالاة. لم يشرب، لم يدخن، ماذا جنى من وراء كل هذا؟ ألم يكن من الأفضل أن يستمتع بحلاوة الدنيا... قطعت الزغطة المفاجئة حبل أفكار يوريك. ركز عينيه على جسد الخزانة الضخمة. يجب تناول جرعة ماء حتى لا يخيف الرجل.

وبما أنه لا يوجد ماء فالبديل إذن موجود.. زجاجة الفودكا. كان لابد من ابتلاع نصف الزجاجة كاملة حتى يتخلص من هذه الزغطة الغادرة. تخيل يوريك وجه سفيتلانا

عندما تدخل غرفة المكتب وتجد مكان الخزانة الضخمة خاليا..

- حقيقة أنا لا أعرف عن أى خزانة تبحث هى أو تتحدث؟؟ يبدو أن خللا مفاجئا أصاب رأسك يا سيدتى..

كتم يوريك ضحكاته وهو يتخيل تفاصيل المنظر..

- كله تمام!

جاهد يوريك بصعوبة لرفع جسده الملقى على الأرض واقترب من الخزانة الضخمة وهو يترنح: تمام؟ رائع! من فضلك لا تمد يدك على خزانتى الضخمة، من الآن سأتولى أمرها بنفسى.

سلَّم يوريك الخبير المبلغ المتفق عليه وأزاحه خارج الجراج. عاد مهرولا نحو أبواب الخزانة الضخمة، ومن شدة شوقه نسى إغلاق باب الجراج خلفه. أخيرا.. أخيرا سينال حظه الذى يستحقه من الدنيا!! راح يستمتع بفتح باب الخزانة الضخمة وخده على أقل من مهله. لكن.. لكن ما هذا؟!! الخزانة الضخمة فارغة يصفر فيها الريح ... لا

يوجد أى شيء داخلها على الإطلاق. مد أصابعه وانتشل ورقة مالية وحيدة تساوى دولارا واحدا فقط لا غير..

- ما هذا؟! كيف ؟؟!!!

خنق يوريك الورقة المالية داخل كف يده بغضب، وألقى بها مرة أخرى فى أحضان الخزانة الضخمة.

- لا أفهم.. أين الأموال؟؟ لا.. لن أستطيع فهم أى شيء بدون زجاجة الفودكا...

بهدوء توقفت المرسيدس السوداء أمام باب الجراج. نزلت سفيتلانا مسرعة من السيارة، وعندما لمحت خيطا من الضوء الرفيع ينساب من بين ضلفتى البوابة استدارت إلى السائق واقتربت منه أكثر من اللازم. لم يكن هناك أى أثر لطبقات مساحيق التجميل على وجهها، فبدت أكثر شبابا.. وضعت يدها على صدر السائق وأحست بقلبه ينتفض تحت يدها. شاب لطيف.. الحقيقة أنه عانى منها الأمرين أكثر من غيره، لكنه كان شديد الإخلاص لها كالكلب الوفى. كم صبر هذا الشاب على كل مقالبها الباردة، كان يبدو لها أن هناك سرا ما وراء طاقة احتماله الطويلة عليها، بخلاف رغبته فى الحفاظ على راتبه الكبير.

انزلقت يد سفيتلانا تتحسس جسد السائق: بوريس.. بور.. يبدو لى أنك تحبنى.. هل هذا صحيح؟

لم تمنحه الأرملة أى فرصة لينطق حرفا واحدا، وإذا بها تسرق مسدسه الكامن فى حزامه برقة.

وشوشته فى أذنه: انطلق إلى أقرب قسم شرطة.. قدم بلاغا أن جماعة هجمت عليك غدرا من الخلف واعتدوا عليك وضربوك على رأسك ثم سرقوا سلاحك. بعدها تعود فورا إلى المنزل وتنتظر منى مكالمة تليفونية.

همس السائق بانزعاج : و.. أنتِ ؟

– حضرتِك يا عزيزى! حضرتِك.. أرجو ألا ترفع الكلفة وتنسى مركزك ! يا عزيزى..

انتظرت سفيتلانا حتى غاب السائق والسيارة عن نظرها. راحت تتسلل نحو الجراج بمنتهى الحذر. رمت أذنيها على الباب لعلها تسمع شيئا، لكن الصمت جاثم فى كل مكان. فتحت الباب وخطت إلى الداخل فوقعت عيناها على لوحة أغرب من الخيال! كان يوريك ملقى وحده يقبض بيده على زجاجة الفودكا الفارغة أمام الخزانة الضخمة الخاوية،

التى تشبه دولابا تم تهجير محتوياته عن آخرها . فتح يوريك ذراعيه ليحتضنها بدفء كما لو كانت آخر من تبقى له فى هذه الدنيا، وكما لو كان واثقا أنها لن تخدعه ولن تجرؤ على خيانته يوما. عندما لمحها يوريك قادمة من بعيد كافح كثيرا لينهض من مكانه، لكن كل محاولاته البائسة أثمرت فشلا كاملا وتساقط فى مكانه نفسه مرة أخرى. ولماذا يحاول بذل مجهود فوق احتماله أصلا؟! المهم أنه نجح فى المحاولة الأخيرة وتصالح مع ساقيه ووعيه بعض الشىء وتماسك قليلا..

أحنى رأسه بتحية ساخرة: آه.. سيدتى.. الأرملة.. تشاو.

اقتربت سفيتلانا حيث تقف الخزانة الضخمة الخالية من كل شىء وشبَّت بعينيها إلى الداخل..

- هل بدأت تقيم الاحتفالات من الآن؟ أيها القذر! هذا هو كل ما تفضلت علىَّ به وتركته لى؟

اخترقت إصبع سفيتلانا ورقة الدولار وطعنتها طعنة نافذة فى قلبها.

- أهذه هى كل ما ورثته؟!!

أشاح يوريك بيده: أحتفل..؟ بماذا أحتفل؟!

لا يوجد أى شيء.. سراب، لاشيء إلا السراب.

صوبت سفيتلانا المسدس نحوه : هل تدنت هذه الكلمات الرفيعة ووصل بها الحال إلى قاموسك اللغوى!! أين النقود هيه؟؟

انقضت الزغطة اللعينة على حلق يوريك مرة أخرى: مسدس فى يد سفيتكا.. هذه حقيقة.

دار شريط سينمائى سريع أمام عينى يوريك وتذكرها وهى تطلق النار ببراعة فى أثناء الصيد، هذه موهبة لا تتوفر حتى لكل الرجال. لم تكن لديه رغبة حقيقية أن يرقد هكذا مثل الخنزير البرى الذى أرداه الصياد قتيلا بفضل طلقات رصاصه المحكمة.

- أية نقود التى تتحدثين عنها يا سفيتكا؟؟ أنا نفسى لم أفق من صدمة دهشتى بعد.. يمكننا الآن أن نفكر معًا فى سر ما حدث..

تمادى يوريك فى محاولة النفاذ إلى ما وراء عينيها.. عاهرة.. ليست إلا عاهرة.

مازالت سفيتلانا تحاول الابتسام بسخرية: هل اختفت النقود مثلا؟ ألم تجد رفا سحريا هنا أو هناك؟

حمل تساؤله نبرة انزعاج شديدة: رف سحرى؟؟!!

- آه يا غبى.. صحيح.. لماذا لم يفكر فى وجود مخبأ سرى؟ يا له من وريث مغفل...

زحف يوريك تجاه الخزانة الضخمة ودخلها برأسه باحثا عن الرف السحرى الذى تدعى وجوده، لكن كيف سيجده إذا كان فتش الرفوف الأمامية بصعوبة؟! لم يدرك يوريك ماذا حدث، فقط أحس بمن يدفعه بقوة من الخلف ليجد نفسه منقلبا بين أحضان الخزانة الضخمة..

هكذا تستطيع أن تخلو إلى نفسك وتفكر وحدك بهدوء. إذا استطعت أن تتذكر أين وضعت النقود اتصل بى على الفور..

ألقت سفيتلانا له بالهاتف المحمول يؤنسه فى ليل الخزانة الضخمة .

يا لذكائك الرهيب! هل تصورت سيادتك أن مسألة اختفاء الخزانة الضخمة من حجرة مكتب زوجي ستمر هكذا من تحت أنفى؟ أو لعلك قلت فى نفسك من أين لها بعيون تنقل لها ما يدور فى البنك؟؟

أغلقت سفيتلانا باب الخزانة الضخمة على يوريك وهى تقذفه بكلماتها المنتشية بمرح الانتصار..

الآن سوف يتعلم كيف يرفس بقدميه الخزانة الضخمة المهابة، ويختار لها مأوى فى جراج يليق بمقامها.

ثم أدارت المفتاح فى القفل أربع لفات متتالية.

بذل يوريك محاولات مضنية فى التحدث بصعوبة وصوته الباكى القادم من قلب الخزانة الضخمة أوشك على التلاشى..

- سفيتكا.. افتحى! افتحى قلت لك! أنا مريض بفوبيا الأماكن المغلقة ... افتحى!!! سأختنق. التليفون لا يعمل هنا يا مجنونة!!

توقفت سفيتلانا لحظة تتأمل الخزانة الضخمة بنظرات بلهاء، واسترجعت ذاكرتها فجأة شريطا من فلاشات

الذكريات المتلاحقة كمن يودع الدنيا في لحظاته الأخيرة. اتخذت مكانها فوق الكرسي الأبيض الذي راح يهتز متمردا على فرط ثقلها فلفظها وأوقعها في المكان المختار، على الأرض.

لملمت سفيتلانا شتات نفسها وهي تنفض عن نفسها الأتربة العالقة بملابسها وراحت تفكر بصوت مرتفع: ألم يستطع سرقة الخزانة الضخمة إلى مكان محترم؟ يا له من غبي! لكِ الله يا سفيتلانا.. أنت مضطرة للبقاءِ هنا بين هذه القمامة، انتظري حتى يقر ويعترف بالحقيقة. أعتقد أنك تحبين زوجك!

قطع صوت توسلات يوريك الضائعة عليها أفكارها:

– اسمعيني يا سفيتلانا.. أندريه كان يعتقد أنك تحبينه بجد.. هل يرى الآن بمن وضع ثقته الغالية؟!! آه.. الحقوني! سفيتكا... سا.. دو.. ني.. اخ..

– أنا..؟

هبت سفيتلانا تجري نحو الخزانة الضخمة وراحت تركلها بكل قوتها: سيبدأ في نصيحتي مرة أخرى.. من يظن نفسه هذا الأبله؟ ماذا يفهم هو في هذه الدنيا؟!!

طوال حياتها وهى تراه شيئا يؤذى العين!!

صرخت سفيتلانا بكل قوتها: أحببته! أحببته! منذ اليوم الأول كان منظومة متكاملة من الزيف والخداع. عاش عمره كله يحتقر الناس، يتلاعب بهم كما لو كانوا مجرد دمى لا تشعر. والآن يجلس مستريحا هناك - أشارت بإصبعها إلى السقف - ربما مازال يستكمل فى السماء ألاعيبه التى لا تنتهى..

- ولماذا فى السماء وأنا أعيش بينكما هنا فى منتهى السعادة.؟

فجأة ظهر يوشين بشحمه ولحمه فى مدخل الجراج، يلبس بذلة فاتحة اللون فاخرة وحذاء كريميا لامعا.

عند سماع صوت أندريه تلفتت سفيتلانا ببطء والرعشة تدك أوصالها من أولها لآخرها. رسمت شفتاها كلمة "النجدة" لكنها لم تنطقها أبدا.

اتجه يوشى إليها ببطء

- أفهم من ذلك أنك تحبيننى؟ لماذا إذن لم تسرعى لوداع جثتى أولا قبل أى شىء؟ لكن كيف وقد قررت البحث

عن المال أولا؟! لقد وقعتِ فى غرام جسدى! أم أنك كنت تخدعينني؟

كانت وجنتا سفيتلانا تنبضان بعصبية، تأملته بفزع وهى لا تفهم أى شىء.

- أى صنف من البشر أنتم؟! لم أبخل عليكما يوما بأى شىء، انتشلتكما من القذارة وأنتما..؟!! كأى شخص غبى قررت أن ألعب معكما لعبة، أن أجرى اختبارا - كما يسمونه - لمشاعركما. كان الشك مازال يتلاعب بى، كم هى لعبة قاسية. وأخيرا قررت أن أغدق عليكِ من الذهب حتى تشبعى، سوف تسبحين فى بحور الشمبانيا. أما أخى فسوف يكون البنك شخصيا من نصيبه لعله ينهار فوق رأسه، هذا إذا لم تسبقه الحكومة وهدمت المعبد على كل من فيه.. بمناسبة أخى أين اختفى يا ترى؟

أشارت سفيتلانا بيدها إلى الخزانة الضخمة.. اقترب يوشين وأدار المفتاح المعلق فى القفل، وبلا أدنى اعتراضات أو شغب أعلن باب الخزانة الضخمة موافقته وانفتح على مصراعيه.. تلقائيا أمسك يوريك بيدى شقيقه الحبيب. انكفأ

جسد الشقيق الصغير خارج حدود الخزانة الضخمة. مازال محتفظا ببعض حرارته..

خر يوشى على ركبتيه يهز شقيقه بقوة الأمل الأخير: يوركا! يوركا ! كنت أمزح صدقني..

استدار أندريه إلى زوجته..

- أنتِ يا من تقفين هناك.. أنتِ..

نهض يوشين واندفع نحوها فتقهقرت سفيتلانا جانبا وهى تتضاءل داخل فزعها الرهيب. تملكها شعور أنه سيلمسها بيديه ... الباردتين.. يديه الميتتين.. هل مازال على قيد الحياة؟ لا.. لا.. هكذا ببساطة!! مستحيل.

- أنتِ.. هذا أخى! يعنى قطعة منى! أما أنتِ.. أيتها العاهرة!!!

دفعها بعنف ...

- وأنا الذى كنت أهيم فى غرامك ...

اختل توازن سفيتلانا وانطلقت منها صرخة مدوية عندما وقعت فوق السنون المدببة لحديد التسليح البارز من

الأرضية المحيطة، لم يمهلها القدر أن تفهم أو تدرك مصيرها . قبل فراقها الحياة بلحظات ابتلعت نفسا عميقا من الهواء، كما لو كانت تريد أن تصرخ بكلمات كثيرة دفعة واحدة لا يعرفها أحد غيرها. لكن الوقت لم يكن صبورا بما يكفى حتى يمنحها الفرصة لتخفى وجهها عن شبح الموت القادم إليها وحدها. سقطت سفيتلانا فوق العمود الصدئ الخشن، فاخترق جسدها برفق وحنان كما لو كان يتشوق لهذه اللحظة الفريدة منذ زمن طويل. ارتجفت هى لحظات قليلة ثم سكتت نهائيا إلى الأبد. ظل جسدها مسجى فوق البقعة نفسها وعيناها مفتوحتان إلى أقصى مدى، كفراشة رقيقة نادرة غرست يد القدر المتوحشة فى جسدها دبوسا مميتا بلا رحمة.

انحنى يوشين فوقها يهزها بيديه: سفيتكا.. سفيتا.. ثم اكتشف فجأة أن بنطلونه قد اتسخ، فاسترد نفسه فى الحال ووقف ممشوق القامة ينفض ملابسه..

- فلتذهب إلى الجحيم.. دمية عديمة الروح.

تقدم أندريه من الخزانة الضخمة وأخرج منها ورقة الدولار. هنا استشعرت الخزانة الصامتة أنه قد آن الأوان لتلعب دورها. الآن فقط سوف يثنى عليها صاحبها.. فمنذ

اللحظة الأولى وهى تدرك كل ما يدور حولها، لكنها لم تصرح بذلك أبدا. لم تعترف الخزانة الضخمة يوما بقدراتها الخطيرة، رغم ما تعرضت له من ركلات الأقدام، ورغم ما نالته من الكلمات البذيئة..

اقترب أندريه من خزنته الضخمة الحبيبة ودقات أقدامه تتهادى.. تك.. تك.. تك

تجمد يوشين فى مكانه لحظة ثم سقط للأمام حتى أصبح داخل خزنته بكل جسده، وقد سيطرت الدهشة على ملامح وجهه بالكامل.

تمتمت الخزانة الضخمة بسعادة: الآن فقط أصبحت ملكى.. ملكى وحدى إلى الأبد.. وفتحت أبواب ذراعيها الصلبة على مصراعيها لاستقبال أندريه.. وابتلعته داخلها بلا رجعة..

***

انزلقت خيوط الشمس تداعب زجاج برواز الصورة الصامتة داخل الإطار الذهبى، المركون فوق المائدة الصغيرة داخل حجرة المكتب الجميلة الخالية من أصحابها. صورة

معبّــرة تضــم الثلاثـــى ســـفيتلانا وأندريــــه ويوريـــك يزينـــون وجوههم بابتسامة.

انبعث صوت ســـفيتلانا الرقيـــق مـــن الهـــاتف ترحـــب برسائل المتحـــدثين: "مـــن فضـــلكم اتركـــوا رســـالة، وســـنعاود الاتصال بكم فى أقرب فرصة".

تكتكت الآلة وهى تســـتقبل صـــوت الســـائق القـــادم بـــلا مبالاة : "سيدتى.. تم تنفيذ كل الأوامر حسب الاتفاق".

مازالت الصورة العائلية للثلاثـــى الغائـــب تتربـــع علـــى عرش المائدة.. يا سلام.. كـــم هـــم ســـعداء ومرحـــون وأثريـــاء، ياه.. كم يحب كل منهم الآخر حقيقة من كل قلبه!!

ليلة اكتمال القمر

على شاشة الكمبيوتر ظهرت البيانات المطلوبة على موقع نادى "ميجالكا"، تعلن فتح باب الاشتراك فى سباق التجارة الإليكترونية. خمسة عشر مشتركا سجلوا أسماءهم. زمن لعبة التجارة خمس دقائق. موعد بدء الدورة التجارية.. قبل منتصف الليل بخمس دقائق. الثمن المبدئى للكمية كلها ثلاثمائة وحدة حسابية.

ارتسمت ابتسامة حزينة على وجه مقدمة برنامج "فى عالم الطقس": مساء الخير أعزائى المشاهدين! توقعات الجو غدا لا يمكن أن تسر أحدا..

على رأس أحد الجداول بالكمبيوتر ظهرت كلمة "عرض / Offer"، وعلى التوالى ظهرت أرقام٤٠٠ –٥٠٠ – ٨٠٠ – ١٠٠٠ أمام الرموز الكودية للمشتركين فى اللعبة.

فى منطقتنا سيتوارى الصقيع قليلا، لكن درجة الحرارة لن تقل عن عشرين درجة..

هزت المذيعة كتفيها واستكملت: وهكذا أتركككم وأتمنى ألا تتجمدوا مع هذه الأمسيات الشتوية الباردة.. وحتى لقاء قريب..

انزلقت الكاميرات بحرص على عود المذيعة الملفوف وشعرها الطويل الفاتح ثم تجمدت عند ابتسامتها الساحرة. ظهرت الساعة علي شاشة التليفزيون، عقرب الثوانى يقترب من إعلان منتصف الليل.

رقم ألف وخمسمائة هو المشترى الفائز.. رفع الموظف القائم بالوردية الليلية سماعة التليفون وأدار رقما.

- انقلوا "اللوط" إلى المشترك إكس إل دى.

فكر بينه وبين نفسه وهو يحضر القهوة..

- نتيجة طيبة..

ليست هذه هى السنة الأولى التى يعمل فى النادى الفاخر الخاص "ميجالكا"، فكل مهمته تنحصر فى تلبية الطلبات الخاصة جدا لأعضاء النادى، أصحاب الأسماء المجهولة الذين يتعامل معهم بالأرقام الكودية. لاحظ هو أن ثمن هذا الصنف بالذات يرتفع فى الشتاء..

- آآآآه.. كدت أن أحرق نفسى!!

وضع الفنجان علـــى المنضـــدة واقتـــرب مـــن الشـــباك المغطى برسوم بيضاء من فرط الماء المجمد..

- كم هو بارد شتاء هـــذا العـــام.. ليـــت الصـــيف يـــأتى مسرعا.

قطـــع عليـــه صـــوت الكمبيـــوتر حبـــل أفكـــاره يعلنـــه استقبال طلبية جديـــدة. علـــى الشاشـــة رأى الموظـــف البيانـــات التالية:

- "طلبية".. مطلوب شراء وتوصـــيل معـــدات وشـــنيور كهربائى مع مجموعة بنط قوية لثقب الخرســـانة. موعـــد التنفيـــذ: الثالث عشر من شهر يناير.

ارتشف الموظف رشفة من القهوة وتمتم:

- يااااه.. القهوة أصبحت باردة..

صوت مستفز انبعث من راديو سيارته: آليووووو.. قسم استقبال الطلبيات براديو روسيا؟؟

فكـــر الموظـــف بينـــه وبـــين نفســـه بتـــوتر: ليســـت آليووووووو.. اسمها " آلو "!!

كان هو في حوالي الثلاثين مـــن عمـــره، شـــعره داكـــن يختفي كله تقريبا تحت طاقية مطرزة..

برطم بغضـــب: لا يعرفـــون كيـــف يتكلمـــون الروســـية بطريقة صحيحة، ورغم ذلك يبيعون ويشترون بالتليفون..؟!!

بلغ قمة الغيظ حتـــى أنـــه ركـــل عجلـــة ســـيارته وراح يتلفت حوله. كل ما يحيط به كان دافعا كافيا جـــدا ليخرجـــه عـــن شعوره.. الليل، الشـــتاء، الـــريح المصـــاحبة للأمطـــار الغزيـــرة، حتى السيارة غرزت فـــى الـــثلج الـــذى غطـــى مقـــدمتها تمامـــا. هكذا كان حاله.. رجل وحيد يتجمد مـــن البـــرد، اجتمعـــت عليـــه كل الظروف..

ولم يجد غير نفسه يجادلها بغضب: ماذا تريدين؟

- أريد حمامًا ساخنا.. ومعه فودكا وسمك مملح..

فعندما غادر منزل صـــديقته الواقـــع بإحـــدى ضـــواحي المدينة منذ ساعتين تقريبا، كان يملـــؤه شـــعور كامـــل بالســـعادة،

وإذا به ينعطف فى طريق جانبى يسير فيه لأول مرة كى يختصر الطريق..

كان يريد أن يصل إلى المنزل بسرعة. فقد حل عليه الإرهاق. يبدو أنه لن يرى النوم فى الليلة القادمة أيضا.. فجأة تجلَّى القمر من بين السحب القاتمة الثقيلة.

فكر بينه وبين نفسه: "القمر مكتمل".. الوقت المثالى لظهور مصاصى الدماء والقتلة. فاكتمال القمر يثير نشاطهم. بدون مقدمات استيقظت داخله فورة الشباب. لكن أيا كان ما سيحدث، مازال بينه وبين الموت مسافات طويلة. ثلاثون عاما فقط هى كل عمره. يتمتع بصحة جيدة وأعزب..

سرح مع نفسه قليلا: ماذا يقول أيضا ليستعرض مميزاته أكثر؟؟

النساء تحبه، يلقى كل التقدير فى مكان عمله. على أى حال هو ليس أصغر موظف فى التليفزيون. كما أن برنامجه الشهرى يحظى بشعبية معقولة. صحيح أنه يذاع فى الصباح وتشاهده نوعية معينة جدا من المشاهدين، لكنه لم يكن أبدًا نكرة.. فهو على الأقل يتمتع بشهرة ولو فى نطاق ضيق.. ولو أراد.. من الغد سيقفز إلى كادر أكبر من الشهرة

والنجاح، وربما يوجهون إليه دعوة للذهاب إلى موسكو.. على أى حال كل هذا يتوقف على الظروف.

شطحت به أفكاره أكثر ومازال يحدث نفسه: تخيل أن كل المعجبين بى يتطلعون إلىَّ الآن على الشاشة.. يجب أن أستعد وأفعل شيئا متميزا..

تأمل القمر قليلا وراح يتمطَّع على مهله و...

- ... أوه.. أوه.. أوووه.

فقد انزلق بأكمله فجأة على الأرض المغطاة بالثلج.

وصل إلى سمعه صوت يردد كلماته: "أوه.. أوه.. أوووه"!!!

برطم بينه وبين نفسه: هذا ليس صدى صوت! لم يكن ينقصنى إلا هذا.. الذئاب تعوى..

لف بجسده وفجأة لمح نيرانا ضعيفة تتصاعد من لهيب منعكس.. بعد لحظة اكتشف أنه ضوء.. ودفء.. منبعثان من منزل قريب. أخيرًا هناك بشر قريبون.. ترك إشارة الانتظار مضاءة وأغلق أبواب السيارة. لمبة حمراء

صغيرة بدأت تعلن عن نفسها. أفضل شيء فعله أنه لم يوقف موتور سيارته الدائر أبدًا خاصة فى مثل هذه الظروف.

غادر السيارة.. فى هذه اللحظة تخيل نفسه مرة أخرى على شاشة التليفزيون، فإذا به يندفع بجرأة إلى الأمام ويغوص فى الثلج حتى ركبتيه.. أخيرًا وصل إلى ركن صغير.. نعم.. فقد عثر على منزل فى الوقت المناسب! المناسب جدا! عند أطراف البيت يجلس كلب ضخم تلف السلسلة عنقه ويكشر عن أنيابه بغضب. أرنبة أنفه تسرى فيها رعدة عصبية.. ومع ذلك فقد أنقذه نباح هذا الكلب.. جيوبه خاوية، ولا قطعة سكر أو قطعة لانشون.. مجرد تفكيره فى اللانشون أيقظ آلام معدته.. رمق الكلب باهتمام. فتش فى جيبه، أخرج سيجارة وهو يتأمله بقلق..

جاءه صوت من خلفه: أشكرك.. لكنه لا يدخن.

استدار فجأة وهو يحاول أن يهدئ من روع نفسه: لا تنزعج واهدأ.. لابد أنه صاحب البيت. هو الذى يجب أن يخاف وليس أنت. فالناس العاديون لا يتجولون فى هذه المنطقة فى أثناء الليل. ربما يعتقد هو أنك من أعضاء عصابات المافيا أو ربما سجين هارب..

من بين أسنانه بصق على الثلج.. تلبس الدور تماما، على أية حال هو خريج معهد المسرح.

وسأل الرجل: يا والدى.. هل يمكننى أن أجد لديك نارا؟؟

- أه.. نعم..

راح الرجل يتوقع الحديث القادم بينه وبين نفسه: بعد ذلك سيقول "أنا جائع جدا" ثم "ألا يوجد مكان لقضاء الليل عندكم؟؟" وهكذا إلى آخره..

كان الرجل الواقف أمام الضيف طويلا قويا متوسط العمر يلبس بلوفرا أسود ويعقد يديه على صدره. لم يكن من الممكن رؤية وجهه، كان يقف عكس الضوء.

ثم صاح بالكلب: اجلس يا بوب.. قلت لك اجلس..

فتح صاحب البيت الباب لضيفه..

- تفضل..

نصف ساعة مرت.. شرب الضيف قهوة بالكونياك واستمتع بالدفء وهو يجلس قريبًا من المدفأة الصغيرة. تلفت

حوله باهتمام فوقعت عيناه على ما أدهشه.. المنزل مزدحم بالأنتيكات.. لوحات، تماثيل برونزية، ساعات قديمة، سيراميك وقطع من الأثاث يرجع تاريخها غالبًا إلى أواخر القرنِ التاسع عشر. فاضت صحبة الزهور المدهشة والنباتات المعلّقة في سلال متدلية من السقف برائحة فواحة منبعثة من عبق الزمن الماضي. واضح أن صاحب البيت استقبل الضيف بحفاوة. ظل الرجل يدخن البايب في صمت وهو يتفحص ضيفه بإمعان.

بادله الضيف النظرات وبادره بافتتاح الحديث: أعتقد أنه آن أوان التعارف.. اسمي..

نفض صاحب البيت الرماد من البايب: وهل يستحق الأمر؟؟ فكما قال كاتب كلاسيكي "وما يهمني من اسمك؟؟" "أنت الضيف وأنا مالك البيت.. المسألة بسيطة.. فليبق كل شيء كما هو الآن.

- الضيف هو الضيف فليكن.. لكن المالك.. كلمة الملاَّك هذه اختفت من قاموس حياتنا من بعد ثورة ١٩١٧[٦]..

- وما الجديد فى ذلك؟؟ مالك البيت دائمًا هو صاحب الكلمة، هو مالك الموقف.

- وأنت؟؟ أنت تتصرف فى هذه اللحظة بصفتك مالك البيت؟ هل أنا على حق؟

- أفضل أن نقول مالك الموقف، هذا يروقنى أكثر..

أدار الضيف رأسه ولاحظ صورة "شكسبير" معلقة فوق المنضدة.

عاد الضيف لمحادثة نفسه: ه - ك - ذ - ا.. إذن فقد نزلت ضيفًا على رجل يهتم باللغة الإنجليزية.. اختيار موفق..

---

(٦) بعد قيام ثورة البلشاف الروسية عام ١٩١٧ اختفت كلمة "الملاَّك" حيث سادت الملكية العامة طبقا لنظام الحكم الشيوعى.

منذ عدة أيام أجرى الضيف حديثا مع أحد الباحثين حول أعمال "شكسبير". رئيس محطة التليفزيون الحكومية التى يعمل بها أعد له بنفسه ملفا كاملا من المواد دفعته للتفوق على الطرف الآخر كالعادة.. حتى إن زميله الذى لا يعجبه العجب دائما ربَّت على ظهره بعد انتهاء البرنامج وقال:

– كنت اليوم رائعا.. لقد اخترت الجانب الذكى.. لا تخف.. فالطلبات تنهال دائمًا على مقدم البرامج الذكى أكثر من غيره بكثير.

همس الضيف بينه وبين نفسه: هؤلاء الزملاء.. شياطين..!!

ثم نفث زفيرًا حارا واستكمل أفكاره..

شياطين كالعناكب فى المصيدة.. دائما ينتقدون، يتبادلون الشائعات والمقابلات. من يجرؤ على دعوة شخصية شهيرة إلى البرنامج وهو غير مؤهل بما يكفى.. هؤلاء الحاقدون لا يؤرقهم غير سؤال واحد يتردد داخلهم "لماذا هو وليس أنا"؟؟ أما النساء.. فكلهن حتى المسترجلات منهن يتلقين بالنظرات ويبتسمن فى الخفاء خاصة عندما تكون

النميمة حول رئيس المحطة. على أى حال يجب أن يدرك الجميع أن العلاقات الإنسانية هى الأبقى بينهم دائما. فليحسدوا كما يشاءوا.. فليخافوا كما يحلو لهم.. أما رئيس المحطة المسكين هذا فهو رجل طيب، لكنه مهموم ومضغوط من مسئولياته، من الزوجة، من المرءوسين، من جلسات الشرب التى يعقدها من آن لآخر، ومن سهرات الكازينو الليلية أيضا. لكن ماذا يهمه هو من هؤلاء السيدات؟؟ فحياته الخاصة تكفيه جدا، كل شىء يكفيه ويغطى أنفه ويفيض.. عالم التليفزيون هذا.. شىء فظيع.. فظيع..

مرة أخرى عاد يتأمل صورة شكسبير وسأل صاحب البيت:

– تُرى.. هل حياته هو الآخر كانت صعبة؟؟ يبدو أن هذا هو قدر كل الموهوبين موهبة حقيقية..

أزاح خصلات شعره التى تداعب جبهته وعاد يؤكد لنفسه:

– دائما وأبدًا يملأ الحاسدون كل الدنيا..

- ومع ذلك فأنا لا أوافقك.. فوالده رجل قانون، محرر الإنجيل، قائد الديمقراطية الحديثة. كما أنه مؤلف موسيقى، عالم لغات ومحام أيضا.. كان يمتلك اكتفاء ذاتيا أكثر من اللازم بكثير..

نهض الضيف واقترب من الصورة: هل تتحدث عن شكسبير؟!

- أرجو أن يشمل الله فرنسيس بيكون بحمايته..

نظر الضيف إلى الصورة فاحصا: تقصد أن صورة شكسبير هذه هى فى الحقيقة صورة لفرنسيس بيكون؟ (٧). صورة أصلية؟

- نعم.. أنا لا أطيق التقليد. كل شىء هنا أصلى. انظر.. هذه صورة مرسومة بريشة " كينس فان سومر "..

- تقصد ......

---

(٧) فرانسيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦).. فيلسوف إنجليزى أسس مذهب "المادية/ Materialism".

- أنا لا أقصد أى شيء. أنا أؤكد لك.. هل لمست الفارق؟ الفارق بين النية والفعل الحقيقي.. هناك أساس جوهرى..

تلعثمت الكلمات بين شفتي الضيف: أوكى.. أنت لا تقصد لكنك تقول..أى أن.. أنت تقصد.. أنت تؤكد..

حاول الضيف تهدئة نفسه بصوت خافت: "لا تنفعل.. ماذا لو كنت الآن على شاشة التليفزيون، وكل البلد يشاهدك وأنت تتهته هكذا..؟"

عاد الضيف يوجه حديثه لصاحب البيت بصوت عال: إذن أنت تؤكد أن هذا ليس شكسبير؟؟ يوما ما سمعت رأيا يؤكد أن شكسبير هذا شخصية وهمية، لكن هذا الرأى غامض جدا وسخف كبير على أى حال! أما هذا البيكون فيُقال إنه كان ماسونيا[8]، أليس كذلك؟

---

(٨) "الماسونية" كلمة اشتقت من اسم فرانك ماسون، وهى حركة دينية نشأت فى بداية القرن الثامن عشر فى بريطانيا العظمى وانتشرت فى كل أنحاء العالم، وتنشد لخلق اتحاد دينى عالمى.

- كان ينتمى إلى جماعة روزنكريتسر[٩]. لدرجة أن بعض الناس يتعتقدون أن بيكون هو نفسه روزنكريتسر الأب الروحى لجماعة الماسونيين..

باغته الضيف بدهشة: مثير.. مثير.. من أين لك معرفة كل هذا؟

أشار صاحب البيت إلى الحجرة حوله مبتسما: الحياة يا صديقى، الخبرة، الأصدقاء، الكتب، كل هذا يحملنى مسئولية..

- لكن.. نعم.. لكن.. فهمت.

فى الحقيقة لم يفهم الضيف أى شىء على الإطلاق.. يبدو أن هناك شيئًا مريبا.. فى مكان منعزل، فى الغابة، يقف بيت عامر حتى سقفه بكنوز غالية لا تقدر بثمن. والأغرب أن يدع صاحب المنزل شخصًا غريبًا عليه تماما يدخل من الباب ثم يحكى له عن ثروته. ثم زاد الأمر- إذا سمحتم لى-

(٩) "جماعة روزنكريتسر"..اسم أطلق على منظمات أو جماعات ماسونية سرية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

بإعطائى حق لمس كل هذه العلب المطعمة والفازات والتماثيل، ناهيك عن كل هذه الأشياء التى لا تقدر بثمن.

استفاق الضيف من أفكاره وواصلَ إلقاء أسئلته على صاحب البيت وهو يقترب من دولاب صغير جميل يقف بجوار الشباك..

- وما هذا؟؟ سكرتير؟؟

صاحب البيت بحماس: نعم.. نعم.. تأمله جيدا..هذه قطعة تحمل نقوشا لا حصر لها. كما ترى.. لا يوجد أى درج أو قفل أو مقبض.. حاول.. فتش بنفسك.. لو عثرت على شىء من هذا القبيل، لك عندى زجاجة نبيذ بوردو..

بدأ الضيف يفحص الدولاب بعناية ثم استدرك بسخرية: يبدو أن زجاجة البوردو ستبقى ضمن ممتلكاتك إلى الأبد..

- انظر إلى جناح تمثال هذا الملاك.. اضغط هنا.

ضغط الضيف على الجناح الصغير فانفتح الدولاب الصغير وحده كما لو كان واقعًا تحت تأثير عصا سحرية..

- وكيف يتم إغلاقه؟

- المسألة بسيطة.. سوف أغلقه أنا فيما بعد..

ألقى صاحب البيت نظرة على الساعة: يبدو أنه حان الوقت كى تستريح.

- هل تقترح علىّ قضاء الليل هنا؟

- أنت الذى قلت.. قلت ليس لديك مكان تنام فيه الليلة.

- أنا لم أفكر بعد، لكنى عزمت أمرى الآن.

- بعض الناس لهم وجوه تكشف عما يدور فى رءوسهم.. هذه طبيعتهم.

أظهر الضيف غضبه: أنت تتحدث كما لو كنت أنا أحمق..

- ماذا تقول؟؟!! أنت إنسان لطيف وذكى..

تردد صاحب البيت قليلا وهو يضيف: يبدو لى أن وجهك مألوف عندى.

هذا هو المجد بعينه.. على أى حال الشهرة شىء عظيم. من الطبيعى أن يكون وجهه مألوفا عند صاحب

البيت، ويختزنه فى عقله الباطن. أيها الشيطان.. كان يمكنه الاستفاضة فى موضوع العقل الباطن هذا، لو امتلك وقتًا بالأمس لقراءة المادة التى أعدها له رئيس المحطة خصيصا لبرنامجه القادم عن عالمى النفس "يونج" و"فرويد". تذكر فجأة أن كل شيء عند فرويد كان يقود إلى الجنس، أو بمعنى أصح إلى مشاكل جنسية اعتمادًا على الوعى واللاوعى. أما عند يونج.. لا أدرى.. يجب الاستفسار عن ذلك فيما بعد..

استفاق من أفكاره ليجد صاحب البيت أمامه مرة أخرى وسأله: هل يمكننى استخدام تليفونك؟

- أنا لا أطيق التليفزيونات ولا التليفونات أبدًا، فهذه الأشياء اخترعوها لتضييع الوقت. خذ راحتك كما تشاء فى هذا البهو، أما أنا فسأكون قريبًا فى هذه الحجرة. أتمنى لك ليلة هادئة.

وقف صاحب البيت عند الباب فسقط الضوء على وجهه. ظل يتأمل الضيف وهو غارق فى تفكيره، وأخيرا حذره بأسلوب يخلو من الذوق:

- منذ أيام قليلة عض بوب أحد المتشردين حتى الموت، لأنه كان يتلكأ عند بابه. أرجو ألا تتجول في الخارج للتدخين..

خرج صاحب البيت وأغلق الباب خلفه..

في هذه الليلة لم يقم النوم بزيارة عيني الضيف.. فالجملة الأخيرة التي ألقاها صاحب البيت لم تعجبه. نعم.. نعم.. لم تعجبه أبدا.. لماذا؟ هو نفسه لا يعرف لماذا.. فقط لم تعجبه.. عدم وجود تليفون في المنزل أمر غريب.. واضح أن صاحب البيت ليس فقيرا. ألم يستطع حتى اقتناء تليفون محمول؟؟ ربما يحدث أي طارئ.. في العام الماضي على سبيل المثال هجموا على منزل مقدمة الأخبار بالتليفزيون وسرقوا كل شيء وكادت هي نفسها أن تقتل، لولا أن حظها السعيد مكنها من الاتصال بالشرطة. لا.. فالتليفون.. شيء عظيم! أخرج الضيف زفيرا حارا. فهو نفسه لم يكن عنده تليفون، لكنه كان يحمل جهاز بيدجر لإنجاز عمله. ثم ماذا..؟؟ هل يوقظ صاحب البيت ليناقش الأمر معه؟؟؟ المنزل يسبح في الهدوء فعلا. هذا النوع الذي يطلقون عليه

"هدوء الموت".. الحقيقة أن توقيت هذه الفكرة لم يكن مناسبًا بأى حال..

- صوت خرفشة جعله يركز سمعه تماما.. تكرر الصوت.. أصدرت الأرض شيئًا كالأزيز، الخرفشة نفسها.. نهض بحرص وخطا نحو الباب. بدأ الكلب ينبح بصوت عال. دفع الباب فاصطدم وجها لوجه بصاحب البيت. كان المالك يحمل فى يده صينية عليها بعض السندوتشات وبجانبها شمعة مضاءة مستقرة على شمعدان.

صاحب البيت يدرك ما يشعر به ضيفه: لا تستطيع النوم؟؟

- لا أعرف.. نمت نوما عميقا ثم استيقظت على صوت خرفشة..

ابتسم صاحب البيت: طبعا.. أفهم ذلك.. فهذه الخرفشة تستطيع إيقاظ أى إنسان!

- لا يوجد ما يدعو للابتسام؟!! فأنا أنام كالقتيل دائمًا، لكن عندما أستيقظ..

قاطعه صاحب البيت: يا صديقى.. أنت لا تتعامل مع الكلمات بحرص.. مؤكد أن الموتى ينامون نوما عميقا، لكنهم أبدًا لا يستيقظون.. وهذه هى المشكلة

سأله الضيف بانفعال: أية مشكلة؟؟

– المشكلة لا يشعر بها إلا من يشكو منها.. وأنا قررت أن أحضر لك شيئا تأكله.. ظننت أن الشاب لن يستطيع النوم غالبًا وهو جائع..

– فى الرابعة صباحا؟ جائع؟ هذا لطف منك، لكنه أمر غريب.. بشكل أو بآخر غريب..

تعالى نباح الكلب. صوت سقوط الثلج وضجيج خطوات ما فى الخارج وطرقات واضحة على الباب دفعت لسان الضيف ليتساءل بصوت خافت:

– من يكون هذا؟

صاحب البيت بحدة: تسألنى أنا؟؟ افتح الباب وانظر بنفسك!

– أنا؟ ولماذا أنا؟

- أنت رجل..

- وأنت.. اسمح لى.. ماذا تكون؟

- أنا صاحب البيت.. عندما تفتح أنت الباب أكون أنا على استعداد للتصرف جيدًا فى أى موقف، وسأتخذ الإجراء المناسب. وفى النهاية.. طالما أنت ضيفى فأنا مسئول عنك..

زادت حدة الطرق على الباب.. وضع صاحب البيت الصينية على منضدة مستديرة صغيرة عند المدخل وتراجع خطوة للخلف. قام الضيف وفتح الباب..

فى مدخل الباب وقفت سيدة من الصعب تحديد عمرها الحقيقى، ترتدى بالطو ثمينا من الفرو وحذاء لونه أخضر. حول عنقها شال سميك أخضر اللون أيضا. اجتازت مدخل الباب بثقة، نفضت عن نفسها الثلج. وعلى مهل راحت تخلع الشال الملفوف حول عنقها. وأخيرا التفتت السيدة ناحية الضيف..

- ماذا بك؟ ألم تر إنسانا تجمد من البرد من قبل؟!!

- معذرة.. فقد ذكرتني بعصفور ما يسكن الجنة، فتوترت قليلا.

- تقصد "ببغاء"؟

فاندهش من سخريتها: ولماذا ببغاء؟!! قلت عصفور يسكن الجنة..

بدأت السيدة تفك أزرار البالطو الفرو.

- وأنت تذكرنى بالإنسان الجلياط الذى لا يفقه شيئا فى اللياقة مع السيدات.. ممكن تساعدنى فى خلع البالطو؟؟

ابتسم الضيف: إذا كان على خلع البالطو فهذا ممكن.. هذا يدخل فى نطاق قدراتى.. فقط امنحينى إشارة وأنا تحت أمرك.. تحت أمرك جدا..

- أف.. ما هذه الوقاحة؟؟ من اليوم إياك أن تتسرع فى عرض خدماتك على أى سيدة.. ربما تطلب منك شيئا لا تتوقعه.. بالمناسبة.. أين صاحب البيت؟ فى حجرة النوم؟ هل هو مشغول إلى هذه الدرجة..؟

فجأة خرج صاحب البيت من بين ظلام مدخل المنزل..

- ولماذا فى حجرة النوم؟؟ أنا هنا وسعيد بمقابلتك.

تجمدت السيدة محلها تماما..

سرح الضيف مع ذكرياته.. "فى طفولتنا كنا نلعب لعبة تشبه هذا الموقف كثيرا.. نتخيل أن البحر يضطرب مرة.. مرتين.. ثلاث مرات.. ثم يتجمد أحدنا كالتمثال بلا حراك.. شىء من هذا القبيل..".

بيدها أزاحت السيدة الثلج الملتصق بها. سعلت قليلا ثم أشارت إلى المنضدة المستديرة..

- يبدو أنكما كنتما فى انتظارى وقد أعددتما خبزا وملحا من أجلى..

- نعم.. ولا مانع من اللانشون أيضا.. اسمحى لى أن ندخله فى القائمة.

- لا!

واندفعت السيدة ناحية الباب

- سأذهب.. يبدو أنه لقاء معد خصيصًا للرجال..

يا صاحب البيت.. أليست صاحبة البيت هنا؟ أنا صديقتها، واتفقنا أن نتقابل لكن يبدو أننى أخطأت اليوم..

أفلتت من الضيف تنهيدة.

- إذا انصرفتِ سيكون أمرًا محزنًا للغاية..

احتضنها صاحب البيت من كتفها ودفعها بأدب وحسم ناحية الصالة..

- عزيزتى.. تفضلى.. تفضلى.. هل تأتين لمقابلة صديقتك فى هذا الوقت دائما؟؟ إذن وبما أنى زوج صديقتك بشكل أو بآخر، فأنا مندهش كيف لم نلتق من قبل؟

- ورغم هذا فأنت تتصرف معى بحرية زائدة!

رمقت السيدة الضيف واستقرت على الفوتيه.

- ناولنى حقيبتى..

لكن صاحب البيت هو الذى ناولها حقيبتها المصنوعة من جلد التمساح..

- ميرسى.. والآن هل ستفتشنى؟

- ما هذا الذى تقولينه؟؟ ما كل هذا المرح والفكاهة؟!

- هل تعتبر سؤالى فكاهة ومرحا؟!! تقبض علىّ كتفىَّ ولا تمنحنى أى فرصة للإفلات حتى أقضى ليلتى عندك بالقوة فى..

قلَّصت أنفها واستكملت....

- فى مكتب النيابة العامة..

- يا عزيزتى..

- الحمد لله.. أنا لست عزيزتك.

تدخَّل الضيف: هو يقصد المعنى العام للكلمة.

رمته المرأة بنظرة اهتمام وسألته بنبرة ساخرة: أى معنى تقصد..؟؟

تلطَّف صاحب البيت بابتسامة: المعنى العام كما قال.. فزوجتى لن تغفر لى أبدًا إذا تركت صديقتها تخرج فى الليل وحدها. بالمناسبة كيف وصلتِ إلى هنا؟

اقتـــرب صــــاحب البيـــت مـــن البـــاب. أدار المفتـــاح وأخرجه من القفل..

- الطقس سيئ..

أجابه الضيف: وصلت هـــى كمـــا وصـــلت أنـــا.. فهـــل طارت إلى هنا مثلا؟؟

بصوت خافت: نعم.. جئت طائرة فى الهواء .

ثم ازدادت حدة صوتها..

- افـــتح البـــاب فـــورا.. هـــذا يعتبـــر تعـــديا.. حـــالا سأتصل.. بالبيت..

انتفضـــت الســـيدة واقتربـــت مـــن البيـــانو بخطـــوات متوترة..

- وأين التليفون؟؟

ابتسم الضيف: هل رأيتِ يا آنسة..؟؟

قاطعته هى: مدام..

- يا مدام.. ولو أن هذا لا يهم.

- جائز.. بالنسبة لك.

عادت السيدة أدراجها إلى الفوتيه.

- أما بالنسبة لى فهو أمر مهم.

استخدم الضيف نبرة صوت داكنة غريبة: باردون.. يا صديقتى

فكر بينه وبينه نفسه: "نجحت المحاولة.. يجب تذكر هذه النبرة جيدا.."

استدارت السيدة ناحية صاحب البيت بدهشة: ما بال هذا الرجل؟؟ هل هو شاذ؟؟؟

التفت صاحب البيت ناحية الشباك وبعثر دخان البايب فى الهواء.

صاح الضيف بغضب: أنتِ تقصديننى أنا.. نعم أنا.. هل تعرفين من أنا أم لا؟!!

- اهدأ يا صديقى.. إنها تتحدث عنى.. عنى أنا.

– آه.. إذا كان الأمر كذلك أوكى.. وبالمناسبة لا يوجد بالمنزل تليفون أو تليفزيون، فصاحب البيت عدو الاثنين.

– ماذا تقول؟ هذا مثير جدا..

– وأنتِ.. ألم تحضرى إلى هنا ولا مرة من قبل؟؟ المفروض أنكما صديقتان..

– لم أضطر لذلك.. فالوقت مزدحم بالعمل.. دائمًا العمل.. باستمرار نتقابل فى المدينة. أما هذه المرة فقد وصلتنى رسالة تقول احضرى إلىَّ يا عزيزتى بسرعة. سنشاهد التليفزيون معًا.. ونسمع توقعات النشرة الجوية..

تطلَّعت السيدة إلى الرجلين..

بعض التوتر أصاب صاحب البيت!

– ماذا سنشاهد؟؟

أشاح الضيف بيده: لن نشاهد أى شىء.. لا يوجد هنا تليفزيون. أنا لا أفهم كيف يعيش الناس بدون تليفزيون، وبعدها يوجهون لنا الإهانات ويقولون التليفزيون يتحكم فى

مجتمع المعرفة.. وللعلم هذا صحيح.. فبدوننا، أقصد التليفزيون، لن يمتلك المجتمع أى معرفة.

قاطعته السيدة بحدة: كفى.. هذا يكفى.. زهقت.. أحضرا لنا شيئا نشربه.

- ماذا تفضلين بالتحديد؟

- تقصد ماذا أفضل فى هذا الوقت من اليوم.. بيرة.. أفضل البيرة فى كل الأوقات، بشرط أن تكون قوية.

اتجه صاحب البيت إلى الثلاجة وهو يتابع حديثه بسخرية: بيرة مع سمك مجفف؟

دقت أصابع السيدة بعصبية على يد الفوتيه: ممكن.. أو ربما مع إستاكوزا.

صاحب البيت بخيبة أمل: لا يوجد عندنا إستاكوزا.

- إذن هات خيارا مملحا..

ما إن تأكدت السيدة أن الرجلين منشغلان بفحص محتويات الثلاجة، حتى فتحت حقيبتها بسرعة وأخرجت تليفونها المحمول.

خلفها تماما برز صاحب البيت فجأة، انتزع منها التليفون بعنف وقذفه فى نيران المدفأة..

- قلت لا يوجد هنا أى تليفون ولن يكون!

تدخل الضيف محللا: هذه العدوانية المباغتة دليل واضح على إدمان الكحول، ربما تكون مسألة وراثية بشكل أو بآخر، ألا تعرفين ذلك؟

بصعوبة حاولت السيدة إخفاء خوفها.. للحظة ما خيل إليها أن صاحب البيت سيلقى بها فى المدفأة خلف تليفونها..

عصف التوتر بالضيف أيضا وراح يكلم نفسه بصوت خافت..

- التصرف بهذا الأسلوب مرفوض. يحدث أحيانا أن يفقد الإنسان أعصابه، لكن ليس إلى هذه الدرجة. لماذا كل هذا؟ وما الذى يجرى هنا؟؟ إنسان مثقف عاقل ويسمح لنفسه أن يتصرف بهذه الطريقة؟!! إدخال الرعب فى قلب سيدة مسكينة حتى الموت أمر سيئ.. مثير. يا ترى.. كم يبلغ عمر هذه السيدة؟؟ يستحيل الآن الوصول لإجابة محددة أبدا..

فالسيدات يقمن بشد هذه المنطقـــة، يضـــفن هنـــا ويـــزلن هنـــاك.. كل شيء ممكن.. تمامًا مثـــل بطـــلات أعمـــال المؤلـــف إدجـــار آلان – بو.. [١٠]. فأحد الرجال عنده قد نـــام مـــع جدتـــه وهـــو لا يعرفها فى شكلها الجديد..

جلست السيدة على يد الفوتيه الـــذى يجلـــس عليـــه: آه.. يا له من أمر سيئ.. وكيف نام الرجل مع جدته؟؟

بسمة السيدة ظهرت مصـــحوبة برعشـــة شـــفتيها، ربمـــا بسبب الفزع الذى يسكنها..

– يا الله.. هل أصبحت الآن أفكر بصـــوت عـــال؟ فـــى هذه الحالة من الجائز جدا أن أفقد عقلى!!

– ممكن.. وبمنتهى البساطة.

– وهل تعرف أنت هـــذا المجنـــون الخطـــر منـــذ زمـــن طويل؟

وأراحت يدها على كتف الضيف .

---

(١٠) إدجار آلان – بو.. (١٨٠٩–١٨٤٩) كاتب وناقد أمريكى برع فى تأليف روايات الرعب.

- كل ما أعرفه أننى ضللت الطريق وتتبعت الضوء حتى وصلت إلى هنا..

- يبدو لى أنكما معرفة منذ زمن طويل؟؟ فهناك توافق واضح فى الأرواح..

- تماما.. استنتاجك صحيح.. على أى حال هذا الرجل رائع، لكنه فقط عصبى المزاج.. فى هذا المكان يصبح الإنسان عصبيا.. ثراء فى قلب الصحراء مع الوحدة!

- وهل هو فعلاً يعيش وحيدًا هنا؟

- وحيد تماما.. وحيد.. هذه هى الحقيقة.

انتفضت السيدة وبدأت أصابعها تمر بخفة على كتف الضيف: احك لى.. ماذا حدث؟؟

- فى الليل.. خيل إلىَّ سماع بعض الأصوات، فتحت الباب فوجدت نفسى فى وجه صاحب البيت ومعه هذه السندوتشات الغبية.. فكرت أنه من الغريب أن يحضر لى طعامًا فى هذا الوقت المتأخر، لو كنتِ مكانى هل كنتِ ستفكرين بالطريقة نفسها؟

مالت السيدة على وجه الضيف: أنا أفكر.. يمكننى أن أفكر فى ذلك وغير ذلك..

فجأة ظهر أمامهما صاحب البيت: بيرة، خيار، شيبسى، بندق، فودكا وكل ما نحتاج إليه..

انفعل الضيف: مرة أخرى؟؟ لو سمحت.. دعنا ننهى ما بدأنا.. هذا تصرف سخيف منك..

احتلت السخرية صوت صاحب البيت: هل تحب البيرة.. وهل تحبها صديقتك أيضا؟

- تحبها جدا..

وضعت السيدة الكوب الفارغ على المنضدة ومسحت شفتيها بمنديل ورقى..

- هكذا ببساطة.. تحبها جدا..أليس كذلك؟

تمدد صاحب البيت داخل الفوتيه ووضع ساقا على ساق.

- لم ألاحظ ذلك.. على فكرة.. النساء مخلوقات لا يمكن التنبؤ بأفعالهن أبدا، مستحيل فهمهن.. كثيرا ما يفاجئننا

بأمور غريبة.. أنتِ على سبيل المثال.. لم أتوقع أن تكونى جميلة لهذه الدرجة..

قاطعه الضيف: كيف وأنت لا تعرف أى شىء عنها من قبل.. حالاً قلت لنا...

استدرك صاحب البيت باشمئزاز: أقصد.. لم أعرف أن لزوجتى صديقة جميلة بهذه الدرجة..

– وهى بالمناسبة لا تطيق الكلاب. فهى تدفعنى إلى حالة من الضجر تشجعنى على عضها فى أول فرصة. بالمناسبة.. زوجتك أيضا لا تطيقها.. من أين لك هذا الكلب اللولو القابع فى الخارج؟

مد صاحب البيت يده يتناول بعض شرائح الشيبسى: هدية.. بمناسبة رأس السنة.. أحضرته مفاجأة لزوجتى الحبيبة..

شرب الضيف كأس الفودكا الثانى وبدت عليه علامات المرح: رائع! مفاجأة! نعم.. ربما يكون هذا هو سبب هروب الزوجة؟ أم أن أحدهم سرقها؟؟ حوادث الاختطاف هذه تحدث فى أوروبا..

تبادل صاحب البيت والضيف نظرات صامتة.

صبت السيدة لنفسها كأس بيرة أخرى.

- لن نتحدث عن أوروبا هنا.

- ولماذا لا نتحدث؟ بالعكس. سنتحدث كثيرا.. بالمناسبة.. عندى حواديت كثيرة شيقة.. لقد سافرت مرات ومرات، فهذا جزء من عملى فى التليفزيون..

- آه.. وأنا التى أضنيت نفسى فى التفكير أين رأيتك من قبل؟ كم أنا غبية!! لم أعرفك من أول نظرة. أنت مقدم برامج! هذا مثير! يجب أن نحتفل بهذه المناسبة.

ثم صبت السيدة لنفسها كأسا أخرى من البيرة وابتسمت:

- أم أنه من الأفضل أن نشرب نخب إزالة الكلفة بيننا ثم نتبادل قبلات عربون الصداقة؟

صاح الضيف: أنا قلت نشرب.. لكن هذا النخب.. ياااااااه؟؟!! أنتما لا تفهمان أى شيء.

فى النهاية شرب الضيفان وتبادلا قبلات التعارف.

اقتحم صاحب البيت حديثهما بسخرية: هل يضايقكما وجودى؟

وقع خد السيدة على كتف الضيف: تضايقنا.. أخيرا فهمت أنك تضايقنا.. أنا أسمح لك أن تتركنا وتخرج..

- أخرج؟؟ اقتراح شجاع جدا يخلو من كرم الضيافة، لكنى أستطيع أيضا أن أدير ظهرى.. سوف أرقد هنا على هذه الأريكة وأغمض عينى وأنام قليلا.. غدًا سيكون يومى غاية فى الصعوبة..

واصل الضيف أسئلته متوسلا: كيف ذلك؟

- ألا تستطيع أن تخرج؟؟ ولو لعشر دقائق؟؟؟

• تدخلت الضيفة بدلال: عشر دقائق فقط! وأنا التى وضعت كل آمالى فيك..

همست فى أذنه ببعض الكلمات ثم ضحكا معا..

-- هكذا؟؟ إذن سأذهب إلى دورة المياه.. هل يوجد هنا دورة مياه؟

صاحب البيت من بين أسنانه: الباب المجاور.

- ألا توجد دورة مياه أخرى؟

بإصبعه أشار صاحب البيت إلى الطابق الثانى:

- لن تمانع أن أصعد؟؟

- اصعد..

صعد الضيف درجات السلم. اتضح أن الطابق الثانى مريح مقارنة بالطابق الأول. مظاهر الحياة فى كل مكان. لونا الورد والخوخ يطغيان عليه، حتى قطع الأثاث تكتسى باللونين نفسيهما. فرت من الضيف نظرة حسد إلى الفراش الكبير. هؤلاء الناس محظوظون! يا سلام لو خُصِّص له مثل هذا الفراش. لكنه سيشغل مساحة الحجرة بأكملها، كما أنه سيضطرنى إلى الاستغناء عن الدولاب. بجانب الفراش شدت انتباهه صورة فوتوغرافية فى قلب برواز.. اقترب منها.. شيء غريب! كيف هذا؟ قرَّب الصورة من وجهه.. لا.. لم يخطئ.. الصورة لرجل وامرأة يحتضنان بعضهما البعض.. هو لا يعرف هذا الرجل من قبل، لكن هذه المرأة.. إنها هى نفسها التى شرب معها النخب من لحظة! لكن هذا الرجل من يكون؟؟ فقد أكدت الضيفة أنها لم تأت إلى هذا البيت من قبل.

لكنهم التقطوا لها هذه الصورة هنا! نعم.. بالتأكيد.. في الطابق الأول، عند المدفأة. فهذه لوحة "فان سومر" بعينها..

على المنضدة لاحظ الضيف وجود ألبومي صور.. ربما يفسر أحدهما هذا الموقف.. فتح الألبوم الأول المحاط بغلاف أحمر جلدي سميك.. يا لهؤلاء النساء! كما لو كن في مسابقة للجمال. سيقان طويلة. خصر دقيق. شقراوات وصاحبات شعر أحمر.. ملابس البحر عليهن لا تقل عنهن روعة. تصفح الألبوم.. في الركن الأيمن من كل لقطة لاحظ وجود رقم كودي مثل أ- ٣٤، ويختلف عن كود إكس – ٢٨ الذي يعتلي صورة فتاة شقراء أخرى. شيء غريب.. ثم أمسك الألبوم الثاني المغطى بغلاف ثمين ويشبه الألبوم الأول، لكن لونه أخضر. وكلما قلّب الضيف صفحاته كلما تملكته الدهشة أكثر وأكثر.. فهو ألبوم صور عائلية عادية جدا. هذه صور من رحلات مختلفة.. فيينا، بومباي، إيران، جامايكا، نيويورك. لكن يبدو أن هناك لغزا مثيرا.. كل الصور للرجل نفسه الذي لا يعرفه ومعه هذه السيدة التي تجلس في الطابق الأول.. العجيب أنه كلما أمعن النظر في الصور اكتشف أن السيدة أكثر جمالا! ماذا هناك؟ وإذا كانت

هذه هى الزوجة فأين الزوج؟؟ وإذا.. فى هذه الحالة من يكون صاحب البيت إذن؟؟؟

انتبه الضيف إلى نفسه على صوت صاحب البيت القادم من أسفل..

- هل هناك مشكلة؟

- إطلاقا.. كل شىء تمام..

دخل الضيف دورة المياه وتظاهر أنه استخدم المرحاض.

- سأحضر الآن!

الأمر هكذا إذن.. بدأ الضيف يلتقط الخيوط بسرعة. لنفترض أنها عشيقة.. لكن عشيقة مَن؟ صاحب البيت؟؟ وهما يخدعاننى بهذه البساطة؟ شىء غبى. هل هى عشيقة كل من ينام هنا، فوق هذا الفراش؟ لكن من ينام هنا غير صاحب البيت نفسه؟؟ ثم.. هذا الألبوم.. الإجابة بسيطة.. هذه صور عائلية. فى هذه الحالة ماذا يعنى الألبوم الأول هذا؟

وإذا كانت هذه السيدة زوجة صاحب البيت، فهل يعنى أن مالكه شخص آخر؟ ربما يكون هذا الرجل الموجود

فى الصور. إذن لقد قتلوه، وأخفوا جثته. والآن جاء الدور عليها ليقتلوها هى أيضا... لكن من الذى سيقتلها؟ صاحب البيت المزيف الذى.. الذى يجلس الآن على الأريكة..

وإذا قتلوها، فماذا سيفعلون به؟ هل سيقتلونه أيضا أما ماذا؟؟ لا.. لا.. لم يكن مستريحًا لهذا الافتراض أبدا! يجب أن يتصرف. لكن ماذا يستطيع أن يفعل الآن؟ وماذا لو كانت حساباته خاطئة، وكان هذا الرجل هو صاحب البيت فعلا؟

تخيل للحظة مانشيتات الصحف.. ***[مقتل محرر شهير يعمل بالتليفزيون بأحد البيوت النائية]*** أو ***[مقتل مقدم برنامج تليفزيونى مشهور فى أثناء محاولته إنقاذ امرأة]***.. ارتعشت شفتاه.. لا.. لا يمكن.. سوف يستمر فى المقاومة. نعم.. وهذه المرأة.. يبدو أنه نال إعجابها.. فجأة وقعت عيناه على المنضدة القريبة من النافذة تحمل فوقها قطعة ثقيلة مصنوعة من الرخام والبرونز تثقل الأوراق كى لا تتطاير. احتفظ بها فى يده.. نعم.. إذا ضرب بها أحدًا سيحطم رأسه. وسنرى من منا سينتصر. وضعها فى جيب الجاكت ونزل درجات السلم عائدًا إلى الطابق الأول.

حجرة الصالون خالية من أى إنسان..

باغته صاحب البيت من خلف العامود فجأة وهو يمسك مسدسًا بين يديه..

- ارفع يديك.. قف.. ماذا يوجد فى جيبك؟ أخرجه!

- لا شيء.. لقد رأيت شيئًا غريبًا فأحضرته معى إلى هنا لأسألك عنه بالتفصيل، إلى أى قرن ينتمى وفى أى بلد صنعوه.؟!

ظل الضيف يتكلم ويتكلم بلا انقطاع. فقد تخيل أنه فى اللحظة التى سيتوقف فيها عن الكلام سيقطع صوت الطلقة هذا الصمت المحيط. هل سيطلق عليه النار فعلا؟ لكنه لم يرتكب أى خطأ.. فهو رجل معتدل ذكى، وشاب مرح محبوب من الجميع. لماذا يحدث له كل هذا؟ ومن ناحية أخرى فرصته لم تأت بعد كى يعيش حياة الرفاهية مثل هؤلاء البشر، وهو لم يشك لحظة أن الاستمتاع بمثل هذه الحياة قدر مدرج فى خانة مصيره. بالطبع فقد دفعوا للشيطان ثمنا ولو قليلا ليَهنأوا بهذه الحياة. وهو نفسه ليس معصوما من الخطأ نفسه، فقط إذا عرف الطريق..

– الرفاهية، الثراء، الفخامة، كل هذا يعين على الحياة!

– لا.. لا.. لن يستسلم هو بهذه السهولة!

صاحت السيدة: دعه وشأنه! ما هذا الوسواس؟ لا يوجد فى جيبه أى شيء..

قامت السيدة واقتربت من صاحب البيت..

– أعطنى هذه اللعبة. أنا واثقة أنها لا تطلق رصاصا.. نموذج مسدس؟؟ نعم.. يا له من عمل بديع.. هل يمكن أن أراه؟

مدت يدها إلى المسدس، فدفعها صاحب البيت بعنف حتى كادت تسقط من هول المفاجأة، لولا أن الضيف استطاع أن يلحق بها بسرعة.

غاب الضيف مع أفكاره لحظة: هذه فائدة أننى رجل رياضى.. ميزة تنفعنى فى كل الأوقات. يبدو أن السيدة أعجبت بسرعة رد فعلى..

- إلى الحائط. قفى بجانبه! بسرعة! تريدان سرقتى؟ لكن هذه المسألة لن تمر بهذه السهولة. سأطلق عليكما الرصاص كالكلاب الجائعة.

أخيرًا نطق الضيف بعدما عاد إلى نفسه: لست فى حاجة إلى هذه المسرحية.. فقد رأيت الكثير من هذه المواقف فى عملى. أنت لست صاحب البيت. أنا أعرف كل شىء. وهذه السيدة.. أنت دخلت منزلها بغرض السرقة، قتلت زوجها، لكن فجأة ظهرت أنا..

صب عليه صاحب البيت من سخريته: أوه.. هل بدأ الشاب يستخدم عقله؟

- هذا الشاب - كما تقول - فهم كل شىء. بالمناسبة فأنا أحمل على ظهرى تعليمًا راقيا.

استكمل صاحب البيت سخريته: اعذرنى، لم أكن أعرف. طبعا هذا يغير من الوضع كثيرا.. أكمل مرافعتك..

- هكذا؟ هل تظن أننى لم أفهم؟؟ لماذا دفعتنى لمشاهدة كل شىء هنا؟ نعم.. ببساطة لأنك كنت فى حاجة إلى بصمات أصابعى على كل مكان.. على الصور، على

الدواليب، على الفازات. تريد أن تورط الهدية التى أرسلها الله إليك.. انظر إلى الدولاب، شىء لطيف، كيف يمكن فتحه، ثم بعد ذلك سأغلقه أنا..

ساعده صاحب البيت على التذكر ومازال بصوب المسدس نحوه: ونسيت زجاجة "البوردو"؟

- لكنى لم أشربها.

- لكن كان بإمكانك أن تشربها.

- لكنى لم أشربها..

- لا يجب أن تفوتك الفرصة، ولا تخسر ما يصل إلى يديك هكذا دون عناء!

أطبق الضيف على خصر السيدة الواقفة بجواره: مازلت أتعلم..

ضحك صاحب البيت متهكما: ياللك من تلميذ متفوق!

- صحيح أنت على حق، فأنا متفوق جدا. لكنك أنت أيضًا لست غبيا.

انحنى صاحب البيت شاكرا له إطراءه..

- لقد فكرت فى كل شىء، لكن يبدو أن أوراقك ارتبكت بسببها!

احتضن الضيف السيدة بقوة أكبر..

مرة أخرى سافر الضيف مع أفكاره: "لاحظ أنها لا تبدى أى مقاومة، وهذا يعنى أنها سعيدة معى. يبدو أننى أمتلك مستقبلاً مشرقا. وإذا لم نأخذ فى الاعتبار أننا نقف أمام مسدس، فيمكن القول إننا نشكل دويتو جميلا.."

تمزق حبل أفكار الشاب مرة أخرى وعاد يوجه كلامه إلى الرجل: نعم.. لقد أربكت هى كل الأوراق.. فربما أرادت السيدة ضبط زوجها يعبث مع فتيات، يبدو أنه زير نساء، وهذا ما جاء بها إلى هنا فى هذا الطقس وفى مثل هذا الطريق الوعر..

- لمعلوماتك أيها الشاب.. هذا البيت يمر خلفه طريق بديع يصل مباشرة إلى الطريق العام. أما أنت فقد تخلى عنك الحظ وحضرت من الجهة الأخرى. على ما يبدو أن هذا ليس يومك.

- لا أظن ذلك أبدا.

رمق السيدة التى تقف إلى جواره:

- لا أظن ذلك.

فجأة أحس بألم هائل يعتصر قدمه.. فقد هوت القطعة المعدنية بعدما اخترقت قماش جيبه المصنوع من الحرير الرقيق.

- آه.. آه..

صرخ الضيف وهو يتقافز حجلا على قدم واحدة.

اقترب منه صاحب البيت: لا تصرخ هكذا.. تصرف كالرجال.

تعالى صراخ الضيف أكثر خاصة بعدما لاحظ أن يد السيدة التى اضطر للتخلى عن احتضانها تمتد إلى شمعدان برونزى مستقر على المدفأة القريبة منها..

اعترف بينه وبين نفسه "على أية حال.. ليس من اللائق احتضان السيدة كل هذا الوقت، فالأنثى فى هذه الحالة تفقد أى رغبة فى المبادرة بأى خطوة.."

وعاد إلى صراخه المتواصل: آآآآآآآآه.

نهره صاحب البيت بغضب: كف عن الصراخ.

نظر إليه الضيف نظرات صامتة تفضح أفكاره "طبعا.. لو كنت أنت الذى سقطت عليه هذه الداهية لما طلبت هذا الطلب..".

فى هذه اللحظة هوى الشمعدان بكل قوة على رأس صاحب البيت. سقط منه المسدس ووقع بكل ثقله عند قدمى السيدة..

فكَّت هى حبل الستارة وقيدت يديه خلف ظهره..

صاحت السيدة بالضيف: هيا ساعدنى، لماذا تقف هكذا؟ أم مازلت تريد مواصلة الصراخ؟

جلس الضيف على ركبتيه يساعد السيدة: نعم.. لقد صرخت هكذا عن عمد حتى أشغله.

- هل تتعامل دائمًا بهذه الطريقة مع الرجال؟

- لا.. الأذكياء منهم فقط. فأنا لا أقبل المنافسة.

استكملت حديثها الساخر: لكن لم يكن هناك ما يدعوك للقلق، فهذا المسدس لا يمثل لك أى تهديد!

– هل تقصدين أنه..

– لقد أصبحت إنسانا عزيزا إلى قلبى. لولاك لكنت الآن ملقاة هنا بثقب فى رأسى.. هكذا..

وإذا بالسيدة تسقط على السجدة وتباعد بين يديها بطريقة مسرحية، ولم تنس إغماض عينيها..

هرش الضيف خلف أذنه: ماذا تفعلين؟

أقرب تفسير لما حدث أنه دعوة لإثارته.. مال عليها الضيف ومنحها قبلة. وكانت المفاجأة أن السيدة ردت له القبلة..

وشوشته هى: أشكرك.. فقد ساعدتنى أكثر مما تتخيل.. لكن كيف أدركت كل شىء؟

– الصورة. هناك.. فوق.

ثم تابعها بنظرات يسكنها الأسف وهى تنهض من على الأرض بسرعة وتنفض عن نفسها ترابًا لا وجود له .

– مفهوم..

لكنك تماسكتِ بشكل طيب. تماما كما لـــو كنــتِ ممثلـــة. لقد صدقت فعلاً أنك صديقة الزوجة..

- أنا أيضًا بدأت أصدق ذلك.. لكن هــذا الإحســـاس لــم يكن مريحًا أبدا. تعود من إجازة إلى البيـــت وتظـــن أنـــك ســتجد زوجتك. لكن بدلا منه يفتح لك شخص غريب..

تدافعت أنفاسها المتلاحقة..

- كم أشفق علـــى تليفـــونى المحمـــول.. كـــان صـــغيرًا وجديدا. صحيح.. يجب التأكد إذا كـــان هــذا الشـــخص لا يـــزال حيا؟

انحنى الضيف على الرجل الراقد على الأرض.

- أعتقد أنه أصيب بكسر فى قاع الجمجمة.

هكذا أفتى الضيف متفاخرًا بمعلوماته حيـــث عمـــل فـــى بداية حياته فى برنامج "الإسعاف على الطريق".

إذا أردتِ الحقيقة.. أريد أن أشرب الآن أى شىء.

- بقدر قليل.. فأنت تحتاج إلـــى رأس نشـــيط، فمازالـــت أمامنا تحقيقات الشرطة.

- لا تنزعجى فالخمور تقف عاجزة أمامى! وسواء شربت أو لم أشرب كله سيان. كل الأمور عندى تتساوى.

اقتربت السيدة من البار وملأت كأسين من الكونياك.

ثبَّت الضيف نظره عليها: لماذا يحدث كل هذا فى الحياة؟ بعض الناس يحصلون على كل شىء، والبعض الآخر لا ينوبهم إلا الفتات! ومع هذا الفتات يستمتعون بالحياة وهم لا يدرون أنهم يعيشون وهمًا كبيرا..

أعطته كأسا: تفضل.

همس لها: فلنشرب نخب صدفة معرفتنا.

شرب كأسه..

- كونياك.. هذا هو ما أحتاجه.

خربشة ما خلف ظهريهما اضطرتهما للاستدارة.. فتح صاحب البيت عينيه وحاول النهوض..

التقطت السيدة المسدس من على الأرض.

- قدماه! لم نقيد قدميه! غبيان! بسرعة! سأتولى حمايتك..

صوبت المسدس ناحية صاحب البيت:

- تمدد! تمدد قلت لك!!!

أطلقت عيارًا ناريا على الأرض..

الطلقة الثانية ستكون من نصيبك.

قيد الضيف قدمي صاحب البيت وجرَّه ناحية المدفأة..

- هكذا، تمدد هنا.. استمتع بالدفء.

لحظة صمت!

هل تسمع!

صوت خطوات تقترب..

أنصت الضيف بتركيز..

- هناك شخص آخر فى المنزل.

خفض صوته: قلت لكِ هذا من قبل.. بسرعة! فلنخرج!

عادا يجران صاحب البيت خارج حجرة الصالون واختبأ الاثنان فى أحد الأركان المجوفة خلف ساعة أرضية.

- مِن هنا يمكن رؤية الحجرة بالكامل تقريبا. مخبأهما ضيق إلى حد ما.

راح الضيف يعبث مع أفكاره مرة أخرى: "وإحساس الوحدة لا يبعث على الراحة أبدا، لكن فى وجود هذه المرأة كل الأمور تتطور إلى الأفضل..".

وعاد يحتضن السيدة بين ذراعيه..

نبست السيدة بصوت هامس: اهدأ أنت! وارفع يديك عنى! كفى! لقد نسينا أنفسنا.. فبينما نحن نمرح هنا، كان يمكن أن يقتلنا..

- وأين يمكن أن أضع يدىَّ؟ لكن إذا احتضنتك - انظرى - سنشغل مساحة أقل..

- قلت لك كفى.. ابحث لنفسك عن مساحة أقل بدونى..

- أوكى.. لقد رفعت يدىَّ عنك، لكن أين يمكن أن أضعهما الآن؟ إلى أعلى؟ تخيلى معى.. آه.. احترسى.. هذه

قدمى.. تصورى معى.. قاتل آخر يـدخل وأمامـه تقـف سـاعة أرضية مرفوعة اليدين إلى أعلى.. أمر فظيع!!!

- إنه أنت الفظيع جدا.. هل سددت فـم صـاحب البيـت هذا بأى شىء..؟؟

- نعم.. بجواربه.

- أنت مقـزز.. مـا هـذا القـرف! هـس! الخطـوات تقترب أكثر..

تجمدا فى مكانهما.

رجل مـا دخـل الغرفـة بخطـوات متـرددة.. قصـير القامة، قوى البنيان، يلبس الجينز وقميصا كاروهات.

همس الضيف: قاتل آخر..

- هذا زوجى.

تفحصه الضيف بعينيه: يـا لـذوقك الرفيـع.. بالتأكيـد.. هو الشخص نفسـه المتواجـد فـى الصـور. لكـن وجهـه الآن يفترشه الشر.

بادلته السخرية: اشتريته فى الأوكازيون.

سكتت لحظة..

- سبق لى الحصول على الأفضل منه قبل ذلك.

صاح الزوج: هل أطلقت النار؟ هيه! هيه! أين أنت؟ هل قضيت على هذه العاهرة؟

بأقل صوت ممكن أبدى الضيف ملاحظته: أنا لا أريد أن أغضبك، لكنى أعتقد أنه يقصدك..

وسرعان ما جاءته إجابتها فى صورة ضربة خفيفة بقبضة يدها فى بطنه..

عثر الرجل على الجسد المقيد ممددًا على الأرض. مال نحوه وانتزع السدادة من فمه.

- ماذا أيها الأحمق.. هل فقدتها؟

- فك قيدى.. لم أعد أشعر بيدى.

- ماذا حدث؟ أين هى؟

لم يتحرك الجريح من مكانه..

- آه.. لقد ساعدها رجل ما.. حيوان.

- أى رجل هذا؟ من أيـن جـاء؟ مـاذا فعلـت؟؟؟ هـل أحضرت رجلاً إلى هنا؟

- كل شيء حدث بطريقة مذهلـة.. بالمصـادفة البحتـة حضر رجل ما إلى هنا.. ضل طريقـه.. فـى البدايـة فكـرت ألا أفتح الباب. ثم قـررت.. فليـدخل.. زودتـه بالطعـام والـدفء وهدأت من روعـه بأحاديـث متنوعـة. ثـم رتبـت لـه رحلـة قصيرة.. انظر إلى اليمين.. انظر إلى اليسـار.. لقـد لمـس كـل شيء بيده.. كل شيء لمسه بأصابعه. مـاذا تتوقـع فـى الخطـوة التالية؟ لو كان الأمـر بيـدى لتخلصـت منهمـا معـا وغـادرت البيت كما اقترحت أنت عبر المـدخل السـرى. لـم أنـس أبـدا.. فقط عن طريق المدخل السرى.. ثم تأتى أنـت إلـى هنـا وتـرى زوجتك ممددة مقتولـة، والقاتـل يقـف بـالقرب مـن الـدولاب المفتوح حيث تحـتفظ زوجتـك بمجوهراتهـا. ثـم تجـيء أنـت وتطلق النار منفعلا.. بـالطبع سـيتفهمون موقفـك.. فهـذه هـى الزوجة المحبوبة! ثم هاجمك هذا الشـاب فأطلقـت عليـه النـار.. هكذا كما ترى يبدو كل شيء منطقيا بطريقـة يصـعب الوصـول إلى أفضل منها.

زمجر الرجل غاضبا: وما الذى منعك من التنفيذ؟

– هذا الرجل فهم كل شيء بشكل لا أعرفه أنا نفسي. صحيح أنه فخور بنفسه لكنه أحمق تماما..

انتفضت السيدة المختبئة خلف الساعة من فرط الضحك الهستيرى المكتوم موجهة حديثها للضيف: نعم.. بعد كل هذا الترتيب هل تعرف قيمتك؟ أنت أيضا "أستاذ"!

– نعم أستاذ لكن فى فرع آخر من العلم..

مازال الزوج يزمجر: أنت حمار قذر! لم تستطع تنفيذ المهمة مع امرأة.. أين هى الآن؟

انحنى الرجل فوق الجريح فتعثر قليلا، ثم بدأ يفك وثاقه ...

– أين المسدس؟

– أخذاه معهما.

أسرَّت السيدة للضيف: اخرج بسرعة، يجب أن ننجز مهمتنا قبل أن يفك وثاقه. وإلا فسيصبحان اثنين ويصعب علينا مواجهتهما.. هيا..

دفعت السيدة الضيف أمامها وخرجت بعده. وجهت فوهة المسدس نحو زوجها وصرخت:

- مجرم، حيوان، قاتل، فاجر.

تماسك الزوج وخطا ناحيتها وعلى وجهه ابتسامة سكيرة، وفتح ذراعيه ليحتضنها..

- عزيزتى.. أنتِ على قيد الحياة!؟ كم أنا سعيد! لقد ذهبت إلى البدروم لأحضر زجاجة فودكا، وغفوت هناك قليلا ثم استيقظت. ما هذا؟ طلقة ! ضجيج!! لماذا؟؟ إذن لقد جاءت زوجتى العجوز بسيارتها..

- عجوز.. أنا عجوز!!! كنت تريد قتلى وخططت لذلك؟! سمعت كل شيء!

اقتربت الزوجة من الزوج وصوبت المسدس نحوه.

- نعم.. سمعت.. لم يكن من المفروض أن تتدخلى فى أعمالى! لماذا فعلت هذا أيتها المبتزة؟

- أنا مبتزة؟ صحيح.. أنا التى كتبت طلبًا إلى الشرطة موجود فى الجاكيت، ومعه تسجيل لحديثك مع

الرئيس. وأنا أيضا التى جئت إلى هنا لأخذ الألبوم الذى يضم صور هؤلاء الفتيات.

- لمن أرسلتِ هذا الطلب؟ إلى الشرطة؟ أيتها الغبية! لن تستطيعى تحقيق أى شيء. علاقاتى فى كل مكان، أما أنتِ.. فاعتبرى نفسك من الآن جثة هامدة..

- بل أنت الذى تعتبر نفسك جثة! اذهب الآن واجلس فى المخزن! الجو بارد هناك وستعود إلى رشدك سريعا. أما أنا فسأفكر كيف سأتصرف معك.

ظل الضيف يراقبها بتوتر لعدة ثوان، ثم أدرك أخيرًا كيف يمكن أن يتطوع بالمساعدة. التقط الشمعدان البرونزى الملقى على الأرض، وبدأ يقترب من زوج صاحبة البيت. أدار الزوج رأسه نصف دائرة ورآه يقترب من باب المدخل الخلفى بجانب المخزن ومستلزمات الحديقة. حاول التحرك خطوة إلى اليمين لتغيير اتجاهه بشكل مفاجئ.

صاحت السيدة: إلى أين؟ خطوة أخرى وسأطلق الرصاص بدون إنذار.. تعالى هنا! هيا!

تأكد الزوج أن هذا الضيف له يد قوية في هذه اللعبة الغريبة.. رفع الضيف يده التي تمسك الشمعدان ليضرب رأس الزوج، وبالفعل خطا ناحيته خطوة واحدة واتخذ وضع الاستعداد لضربه. لكن الزوج خطا إلى الخلف خطوة أخرى.

في اللحظة نفسها تقريبا دوى صوت ضجيج غريب وصدرت صرخة من حيوان جريح.. فجأة سقط الزوج ووجهه للأمام، وقد رشقه أحدهم بسهم من قوس ليستقر في ظهره..

التفت الضيف إلى الرجل المقيد على الأرض: يبدو أنك كنت المقصود بهذه الميتة.

- نعم.. أدركت ذلك.. فك قيدي..

خرجت السيدة من حالة تفكير عميق. اقتربت من جثة الزوج الراقد على الأرض ووجهه لأسفل.

خرج سؤالها بنبرة مختلفة بعض الشيء: هل انتهى كل شيء؟ أهكذا ببساطة لم يعد لهذا الشخص أي وجود؟ صحيح.. كل شيء في هذا العالم هَش لا أمان له.. ماذا قلت؟؟ هل طلبت منه فك قيدك؟

التفتت للضيف متسائلة..

- هل يجب علينا فعلاً إطلاق سراحه؟

وقف صاحب البيت وهو يحاول تحريك قدميه..

- هل ضربتمونى على رأسى بكل هذا الوزن الثقيل؟

ابتسمت السيدة ابتسامة لامبالية وقد استردت ثباتها ولمع وميض غريب فى عينيها..

- نعم.. جرِّب بنفسك.. هل هو ثقيل بالفعل إلى هذه الدرجة؟

- صحيح.. ثقيل بالفعل.

- فجأة رفعت السيدة المسدس وأطلقت رصاصتين.. انحنى الرجل وهوى تقريبا فى البقعة نفسها التى كان يقف عليها وظل فيها طوال الوقت. على وجهه تجمد قناع الدهشة. اكتشف أنه لم يستوعب شيئًا من هذه الحياة.. كما يبدو أنه لم يستطع العثور على الإجابة لسؤاله الأخير هذا فى أى مكان..

من فرط الخوف التصق الضيف بالحائط..

- من الذى يعرف هؤلاء النساء؟ ماذا يدور بعقلهن؟ من الجائز أن تطلق عليه النار هو الآخر..

اقتربت الزوجة من جثة الزوج. مالت عليه وأخرجت من جيب قميصه التليفون المحمول..

- الشرطة؟ احضروا فورا! لقد أطلقت النار حالاً على قاتل زوجى الذى حاول قتلى أنا أيضا.

التفتت السيدة ناحية الضيف الذى كان يحملق فيها كما لو كانت مجنونة..

- أمامنا عشر دقائق على أقصى تقدير.. اسمع..

كان زوجى أحد الأعضاء المشتركين فى نادى "ميجالكا". أعضاء هذا النادى ينتمون لأهل القمة فى منطقتنا. كل شيء يسير بالأرقام، بالأرقام السرية ... هل تعرف برنامج "فى عالم الطقس"؟ هذا البرنامج يتبع الطريقة نفسها لتليفزيون موسكو فى إذاعة النشرات الجوية.. دائمًا المذيعات فتيات ولا أحد غيرهن.. فتيات بشعور مصبوغة يلبسن فساتين بسيطة ويقرأن النشرة.. كل يوم فتاة مختلفة. هل شاهدتهن! دائما يلقين فى النهاية عبارة "حتى لقاء قريب.."

وفى كل مرة تحمل هذه العبارة معانى مختلفة، ثم يدرن عيونهن هكذا.. فى الواقع هذا هو الجزء الظاهر من جبل الجليد الطافى فوق الماء. لكن الجزء الخفى كان يتم هنا، بين يدى "زوجى".. كانت الفتيات يعرضن أنفسهن، أما الأغنياء الذين يمثلون سطوة العالم القوى ويملكون.. لا أدرى كيف أقولها.. يملكون اشتراكا فى النادى، فيدخلون فى منافسة تجارية طوال فترة إذاعة البرنامج. وقد صمموا نظامًا إليكترونيا دقيقا، فصاحب النادى شخصية مهمة جدا. حتى زوجى كان يخشاه.

بطرف عينيها لمحت الساعة.

- رقم واحد كان الشفرة الرقمية الخاصة بهذا المالك. وأنا.. قابلته عدة مرات.

سكتت لحظة..

- أذكر جيدا صوت أنفاسه العالية ويده المبللة بالعرق... كانت على لسانه دائما عبارات بلهاء ودائما يقول "للأسف، يا خبر، يا خبر، للأسف".. لكنى حتى ذلك الوقت لم أكن أفهم شيئا.

هل تريد أن تقف بجوارى؟؟ فأنت تعمل فى التليفزيون وهذا هو المطلوب. فكِّر فى الأمر. أمامك دقيقة أخرى..

بصعوبة راح الضيف يهضم كل هذه المعلومات التى تنهال فوق رأسه..

- وإذا كان الرد بالنفى.. أعنى ما علاقتى أنا بكل هذا؟!!

- ما علاقتك؟!! إذن مطلوب منى تفسير الأمور بشكل أفضل.. الآن أصبحت أرملة، يمكن أن تقول وريثة. نستطيع وضع أيدينا على كل شىء أو نسلم كل شىء للبوليس، كما نتفق.. فهمت؟

- ما معنى فهمت؟ طبعا، نعم.. فأى رأى آخر معناه أن تطلقى علىَّ الرصاص، أليس كذلك؟

عادت الزوجة لسخريتها: بدون أن ترمش عيناى..

طرق على الباب..

فتحت السيدة وارتمت فى أحضان الشرطى القادم.. كان رجلا قاسى الملامح عيناه لا تستقر على حال.

تأوهت السيدة: كونستنتين فاسيليفتش! يا لها من مأساة!

- لا تهتمى، لا تشغلى بالك. سوف نعتنى نحن بالأمر. اهدئى.. فلن أسمح لأحد أن يغضبك. أعدك.. فأنت الآن وريثة..

رفعت السيدة عينيها المغرورقتين بالدموع إليه..

- وأنا أعتمد عليك تماما يا كونستنتين فاسيليفتش.. فأنت لا تتخيل كم عانيت..

بمرارة واضحة بدأ مقدم البرامج التليفزيونية صباح يومه التالى. فقد انهار حلمه بتقديم برنامج جديد. واتخذ قراره أن تحل محله زميلة جديدة. رنين التليفون قطع عليه أفكاره المتشائمة..

- آليوووو.. رئيس المحطة يريد التحدث معك..

اضطرب مقدم البرامج.. الرئيس نفسه، هل قرروا فصلى نهائيا؟

جاءه صوت رئيس المحطة الذى يحفظه جيدا:
- صباح الخير.

قام مقدم البرامج مفزوعا كما لو كان الرئيس يقف أمامه، مستحيل أن يسمح لنفسه بالحديث مع شخص مثله من الوضع جالسا.

- صباح الخير..

- هل تسمعنى؟ للأسف، يا خبر؟ يبدو لى أنك مكتئب جدا؟ تعال عندى فى الساعة الثالثة. أعتقد أن هناك ما يستحق الحديث بيننا. صحيح أم أننى مخطئ؟

حاصر الصمت مقدم البرامج. هناك ما سيتحدثان عنه. أما مستقبله الوظيفى فقد بدأت ملامحه تتضح - فيما يبدو - منذ اليوم. وقريبا ستحكى روسيا كلها عنه وتتحاكى..

امرأة فى قلب السعادة..؟!!

الليل.. هو موعدها مع التوهج والتفرد.. فى الليل تتلبسها خفة خارقة وطاقة تفوق الوصف والخيال. أحيانا تستيقظ بين سواد الظلام وتنهمك فى خلق التماثيل. تحت أصابعها تتلون الخامة الطينية على هيئة أشكال إنسانية أو حيوانية أو ربما طيور من بنات أفكارها. بين الحين والآخر تزورها أحلام مثيرة، فيها ترى رجلا غامضا يأخذ بيدها فى هذه الحياة. هكذا هو دائما.. يختفى مرة ليعود إليها مرة ثانية. يهبط إليها من السماء، يتأملها صامتًا دون كلمة واحدة. لكنه اليوم وعلى غير عادته فاجأها لأول مرة بسؤال..

- هل أنتِ سعيدة؟

- هيه.. ماذا قلت؟

- هل فهمتِ معنى سؤالى بوضوح؟

- كل أسباب السعادة بين يدى ورهن إشارتى.

- وماذا تملكين منها؟

- كل شيء! طفلة، زوج، ثروة، أصدقاء أوفياء، بيت جميل، كما أننى أستطيع السفر إلى أى مكان يخطر على بالى.

- صحيح.. عندك كل ما تحلم به معظم السيدات.. لكن هل أنتِ فعلا سعيدة وأنتِ تملكين كل هذا بين يديك؟

- نعم.. كل شيء حولى يمنحنى الإحساس بالسعادة. سعادة الاستقرار الذى نسجته بيدى حول نفسى.

- لكن استقرارك هذا الذى يحتويك من كل جانب مع الأسف مجرد بناء هَشْ..

- من أنت؟!

- حارسك. دائما بجانبك ورهن إشارتك.

- هل تستطيع الإجابة عن تساؤلاتى؟

- حاولى الإجابة عليها بنفسك، ولن أتخلى عنك.

تن.. دن.. نغمات موسيقية انبعثت من باب البوتيك الذى اجتازته السيدة جينكا.

أقبلت إحدى البائعات للترحيب بها وأهدتها ابتسامة.

- أهلاً وسهلاً.

- جينكا باقتضاب: نهارك سعيد.

في هذا اليوم بالذات تلاشت لديها أى رغبة في الابتسام. اقتربت من الفاترينا المزدحمة بأحدث صيحة في عالم الأزياء، مرة أخرى قفزت الأحذية ذات الكعب المدبب على قمة الموضة. آه.. في شبابها كانت تستمتع جدا بالجرى وهى ترتدى الكعب العالى. من يتخيل أنها الآن تبلغ من العمر ثمانية وثلاثين عامًا فقط لا غير، الحقيقة أنها لم تتعمد إخفاء عمرها الحقيقى أبدًا خاصة أمام النساء. فليحاولن هن أن تعكس ملامحهن وهيئتهن ثمانية وثلاثين عامًا مثلها.. شعر منسدل، بشرة متألقة، خصر مرسوم، سيقان طويلة ملفوفة لا تجرؤ الدهون على الاقتراب منها بعكس معظم السيدات الآن، وأيضا صدر غض ناهد. الحقيقة أن الجمال يحتاج إلى بذل مجهودات يومية مستمرة، لكن بمجرد التعود عليه يصبح أمرًا سهلا.

التقطت جينيا أحد الأحذية.. خفيفا جميلا كأنه خلق لها، لكن.. اللون؟!

رمقت البائعة بتوتر: أجيبيني.. كل أحذيــة البوتيــك إمــا سوداء أو بنية اللون، لكــن مــاذا أفعــل إذا أردت شــراء حــذاء أحمر أو بلون الفراولة الداكنة؟؟

بادلتهــا البائعــة نظــرات صــبورة اعتــادت الانتقــاد: الأحذية الملونة لا تدر علينا أرباحا. صحيح هنــاك الكثيــر مــن الألوان وبدرجات مختلفة، لكنها لا تلقــى اهتمــام الزبــائن. أمــا الأسود والبنى لونان كلاسيكيان يروقان لكل الناس.

- لكن أنــا يهمنــى هــذه الــدرجات بالــذات، درجــات اللون المختلفة غير المباشرة..

أخذت السيدة طريقها إلــى بــاب البوتيــك، ثــم توقفــت لحظة والتفتت للبائعة:

- عادة أنا أفضــل الألــوان غيــر الصــريحة المتمــردة على الكلاسيكية فى كل شىء. (بلهجة ساخرة).. إلى اللقاء.

غادرت جينيا البوتيك وتوقفــت لحظــات فــى الشــارع. الأمطار تنهمر، حبات رفيعــة مزعجــة.. هــذا الحــال سيســتمر طويلا، فالخريف يدق الأبواب.

أدارت جينيا رأسها يمينًا ويسارًا، لا السيارة ظهرت ولا السائق موجود.

- جميل جدا.. أين اختفى؟

اشتدت الأمطار وأعلنت عن وجودها بغزارة. هناك على اليمين على ناصية الشارع سمعت صوت نفير السيارة. فتح السائق الزجاج وأشار لها بيده. لم تتقدم هى ولا خطوة واحدة لعله يدرك من تلقاء نفسه أنه هو الذى يجب أن يقترب بالسيارة. ولت الدقائق دون جدوى فأدركت أن أحلامها تبخرت مع الريح، وانطلقت كالسهم نحو السيارة.

تدافعت الكلمات بين شفتيها بعنف وهى تغلق باب السيارة وتندس بين أحضان الصالون الدافئ الوثير: ماذا تنتظر؟

- عفوا.. ماذا تقصدين يا سيدتى؟

- أنت.. لماذا تنتظر هنا؟!

- كنت أشترى سجائر وهدانى تفكيرى أن ناصية الشارع أقل ازدحامًا، وقد تتسخ السيارة تحت الأمطار. لكن

لماذا وقفتِ حضرتك هناك، هل قررتِ الشراء أم عدم الشراء؟؟

- فعلا أنا قررت.. اتجه إلى المنزل..

تراجعت بجسدها على المقعد وسرح خيالها..

- حقيقة.. أنا لا أعرف من أين يبلوننا بهذه النوعية من السائقين الخصوصيين؟ هل ينتقونهم من العيادات النفسية أم من مراكز العاهات العقلية؟!

يقولون إن هناك صدفا نادرة تقابلنا فى هذه الحياة، لكن فيما يبدو أن الحظ لم يدر وجهه لى حتى الآن.

فى اللحظة نفسها التى توقف فيها السائق بالسيارة أمام باب المنزل اعتبر أن مهمته انتهت عند هذا الحد، وراح يقلب الجريدة بين يديه. اضطرت هى أسفة أن تفتح باب السيارة لنفسها بنفسها، فلو انطبقت السماء على الأرض لن تتفتق عبقرية هذا السائق ليتنازل ويفتح لها الباب. كان يعانى مشاكل جمة فى نصف جسده الأسفل خاصة فى المنطقة الخلفية، بديهى طبعًا أن يلاقى معوقات شديدة فى دخول السيارة، وطبيعى أنه يعانى الأمرين للخروج منها أيضا.. ما

إن لمست قدماها أسفلت الشارع حتى وجدتهما تغرزان في بركة مائية، تمادت معها حتى نهايتها. نظرة واحدة فقط كانت كافية لتكتشف أنها الوحيدة التي تقف في الشارع، وفي أعماق هذه البقعة الساحرة على وجه الخصوص. في هذه اللحظة النادرة فارق حذاؤها المصنوع يدويا من الشمواه الحياة إلى الأبد.

تمتمت من بين أسنانها: هذا الكائن حالة ميئوس منها تماما..

ورغم كل ما عانته ومازالت إلا أنها وجدت مخزون مقاومتها لم ينفد بعد، فالتفتت بجسدها في دائرة كاملة ووقفت في مواجهته لتمدحه بطريقتها الخاصة..

- هل تعرف يا كولا..؟ فعلا أنت سائق تحفة فريدة من نوعها..

لثوان معدودة اعتقدت السيدة أن السائق متجل في ملكوته لا يعطيها أذنيه، لكن المفاجأة جاءت كاملة عندما اتضح لها أنه يلتقط كلماتها بوضوح!

كولا بفرحة عارمة: شكراً لكِ يا سيدتي.

لهذا السبب فقد ماكسيم وظيفته طردا، فـــى الواقـــع كـــان السوتيان مقـــاس الســـيدة تمامـــا.. لـــم يمـــض وقـــت قصـــير إلا وأحضر لها زوجها ســـائقًا جديـــدًا كالعـــادة. راح الـــزوج يقلّـــب أصابعه ويرسم دوائر فى الهـــواء بتـــوتر واضـــح، وهـــو يؤكـــد لزوجته أنها ستتسبب لـــه يومـــا فـــى فضـــيحة كبـــرى. آه مـــن السائق الجديد.. كان مثيرا ساخنا كمـــا يجـــب أن يكـــون الرجـــل، وكانت هى تحبه من كل قلبها لدرجة العبـــادة. أفضـــل مـــا يميـــز السائق الجديد امتلاكه ميزة نـــادرة الأوصـــاف، فهـــو يلبـــى لهـــا كل أوامرها دون لحظـــة تفكيـــر واحـــدة. فمـــثلا إذا لمعـــت فـــى ذهنها رغبة الدوران بالسيارة لفة كاملـــة والعـــودة إلـــى الخلـــف، ينفذ فورا وبمنتهى الهدوء يقتحم الخـــط الفاصـــل بـــين النـــاحيتين المتقابلتين ويستكمل طريقه فى الاتجـــاه العكســـى تمامـــا. ومهمـــا حدث لن تنسى له أبـــدًا واحـــدة مـــن أهـــم إنجازاتـــه الســـاحرة، عندما برقت فى ذهنها فكرة وأبلغته فجـــأة أنهـــا لا تريـــد النـــزول بجانب فندق "روسيا" فى هذا المكـــان بالـــذات، لأن مزاجهـــا الآن النزول على الجانب المقابل تماما. الحق أن كـــل مـــا فعلـــه هـــذا السائق المدهش وبدون مناقشة أنه اســـتدار بالســـيارة فـــى إيقـــاع انسيابى، وسار إلـــى الخلـــف فـــى مواجهـــة الســـيارات القادمـــة بوجهها لأن الشارع اتجاه واحد فقـــط. وعنـــدما اســـتوقفه ضـــابط

انتهز هو الفرصة ليلقى نظرة فاحصة على نفسه فى المرآة الأمامية بطرف عينيه، حتى أوشك أن يجن من فرط الإعجاب بذاته. ينزل من السيارة على أقل من مهله، ويتبختر مزهوا بمظهره وقدرته على التحكم فى عضلاته.

من وقت لآخر كان يحملق فى جينيا المكلف بحمايتها بدهشة متوارية ويفكر بينه وبين نفسه كيف صمدت كل هذا الوقت دون أن تشتهى جسدى؟!!

على أى حال أهم ما يميز هذا السائق تنفيذه كل الأوامر العليا كالأعمى بلا تفكير، لكنه يصر على ملازمتها فى كل مكان. الشيء الوحيد الذى لم يسمح لنفسه به هو مصاحبتها فى دورة مياه السيدات.. حتى فى شرائها ملابسها الداخلية يلاحقها أقرب من ظلها، لأنه قرر ألا تتحرر منه أبدًا فى أى زمان ومكان. فى النهاية لم تجد هى مفرا من الإمساك بالسوتيان الفرنسى الأبيض المطرز الذى يتكلف مائتين وخمسين دولارا وتقربه من أنفه..

- ما رأيك يا ماكسيم.. مقاسه يناسبنى؟؟

هذا الوعل المحلى الصنع يمتلك مخزونًا هائلاً من الصفاقة اللانهائية ليجيبها: أعتقد أنه كبير عليك..

كادت دموعها تتساقط من فرط الدهشة..

- يا كولا.. أنا أقف فى مستنقع من مياه الأمطار .

فأفحمها هذا المخلوق الهلامى: العلاج بالماء مفيد للصحة جدا يا سيدتى..

فى البيت.. بيتها.. هاجت السيدة وماجت وهى تعبر عن غضبها العارم مما حدث بكل الطرق فى حدود عدم وصول الفضائح إلى الجيران.. أخيرا تم استبدال هذا السائق فلتة عصره وزمانه برجل متضخم الجثة وكأنه أبوللو إله اليونان ليعمل سائقًا وحارسًا خاصا. تحملت هى وجوده بالإكراه. ممن يحميها؟! من الصعب الإجابة على هذا السؤال.. فى ذلك الوقت وبالتحديد بعد الانهيار أصبحت الموضة فى روسيا تعيين حراسة خاصة يطلقون عليها "بودى جارد"، ليبعثوا فيمن حولهم إحساسًا بالأمان فقط لا غير. وإذا أردنا الدقة سنلاحظ أن هؤلاء الحراس فى حقيقتهم كائنات مبهرة، أما السيدات اللائى يتمتعن بحراستهم فيتحولن بمرور الوقت إلى ظلال بائسة بمعنى الكلمة.. كان السائق الجديد يقضى أوقاته فى اتخاذ أوضاع غريبة بجسده حتى خلف عجلة القيادة. وكلما توقفت السيارة مع أى إشارة مرور، كلما

المرور انفرجت أسارير السائق المعجزة وهبطت على وجهه ابتسامة مذهلة عنوانها البساطة.. هكذا حل السائق المشكلة وانتهى الأمر وتركه الضابط دون أسئلة، خاصة عندما لمح الغياب التام لأسنانه العشرة الأمامية من مكانها الطبيعى فى فمه. وبقدر ما نجحت لوحة أسنانه الفارغة فى إنقاذ العديد من المواقف، بقدر ما تسببت فى طرده من العمل بعدما أعلن الزوج امتعاضه من هذا المشهد. غالبًا هناك احتمالان.. إما أن يكون الزوج لا يزال يحب زوجته رغم كل شىء، وإما أن السائق دهسه بابتسامة مفاجئة من فمه المفتوح أفزعته فى قلب ظلام الليل..

كان يمكن لشارع أرباتسكى الجانبى أن يظل محتفظا بعالمه الهادئ لو لم توقظه سيارة السيدة لتعبره بعدما انتهت من شارع أربات القديم، مركز سكن الأغنياء فى الماضى فيما قبل انهيار الاتحاد السوفييتى بقليل، حتى وصلت السيارة إلى شارع أربات الجديد مركز سكن طبقة الأغنياء المحدثة التى ظهرت مع موجات الانفتاح الاقتصادى المتوالية. وبما أن العثور على مكان خال لوقوف السيارة أمر أشبه بالمعجزة الخارقة، فيمكننا اعتبار السيدة محظوظة بالفعل لأن البيت الذى تعيش فيه كواحدة من طبقة "أهل القمة" ويضمها مع

زوجها منذ عشر سنوات به مكان مخصص لوقوف السيارة، تحيط به الأسوار من كل جانب. في النهاية توقفت السيارة في مقرها الأخير كالمعتاد، بعدما وصلت محطتها المنزلية الأخيرة بسلامة الله.

انتظرت لحظة وسألت السائق: ممكن تفتح الباب؟

السائق ببلاهة: ومن قال إن باب السيارة مغلق أوتوماتيكيا، يا سيدتى.. أين هى المشكلة؟

- طبعا هناك مشكلة.. لكن فى مخك أنت!

صبت السيدة غضبها على الباب الذى دفعته بشراسة، وغادرت السيارة دون أن تغلق الباب وراءها. هكذا أصبح الطريق ممهدًا أمام السائق ليغادر السيارة ويغلق بابها الذى تركته السيدة مفتوحا.

رفعها المصعد إلى الطابق الأخير، ألقت جينيا نظرة خاطفة على عقارب الساعة. هذا هو موعد وجود زوجها فى البيت. لم تستمر فى دق الجرس طويلاً حتى وجدت زوجها أمام عينيها بوجهه البشوش. خطت بقدميها داخل المكان الذى تشعر فيه براحتها الحقيقية. هنا.. فى هذا البيت.. تحلّق فى

عالم من الأشياء الجميلة الباهظة الثمن تظللها بظلها، هنا كانت تشعر بالحماية.

هذه هى دنياها الحقيقية. سنوات طويلة وهى تشكِّل وتجمِّل فيها من روحها بذوقها الخاص دون أن تمسه يد أى مصمم ديكور. لم تكن تتصور كيف يتجرأ أى إنسان مهما كانت خبرته ومؤهلاته على اختيار موديلات بيتها، كيف وهو إنسان غريب؟ بأى حق يشير عليها باللون المناسب لستائر حجرة نومها، ويدلها على أحدث صيحة فى بلاط القيشانى هذا العام مثلاً؟!

أخيرًا ألقت جينيا جاكتها على الفوتيه..

- ما أعجب هذا السائق! كأنه هدية السماء القبيحة التى أسقطتها فوق رأسى مباشرة. بعض المشاوير الأخرى معه وتأكد يا زوجى العزيز أننى سأدرج فى سجل نزلاء مستشفى الأمراض النفسية.

طفا تعبير ودود على وجه زوجها: لا تتحاملى عليه فهو شاب لطيف، لكنه فقط عديم الخبرة.

- ليس بالضرورة أن يكون كل شاب عديم الخبرة لطيفا..

- أنتِ اليوم آية فى الجمال.

كاد يحتضنها بين ذراعيه لولا أنها استدارت بجسدها سريعا، واتجهت إلى الشرفة الكبيرة التى حاصروا نصفها بحصار زجاجى فى العام الماضى، بعد خوض كفاح مرير فى مفاوضات ليس لها أول من آخر مع مهندس الحى، بالإضافة إلى عدد لانهائى من الموظفين الذين ثبت أن لهم فجأة هم وغيرهم علاقة مباشرة حميمة تربطهم بهذه الشرفة.

أفاقت الزوجة من أفكارها.. انتبهت لوجود زوجها وشنت عليه فاصلاً قصيرًا من المناوشات الساخرة.

- وهل لم أكن جميلة قبل اليوم؟!!

لم يمنح القدر الزوج الفرصة الكافية ليشاركها معركتها القصيرة، حيث تكفَّل جرس تليفونه المحمول بالصراخ دون انقطاع. استكملت طريقها نحو الشرفة واستلقت على المقعد الهزاز. بعض قطرات الأمطار تركت

آثارها بوضوح عليه. أطبقت عينيها لحظات وحاولت أن تستعيد صفاءها.

وذهبت هي في سبات عميق.. عميق..

فرس جامح لا يهدأ.. هكذا كانت ترى زوجها في الأيام الأخيرة.. أحياناً تشي نظراته الممتنعة عن الكلام بالكثير مما يجيش في عقله وكأنه يبوح لها: "اسمعيني من فضلك.. حياتي فداؤك، أطلقي عليَّ النار لو كان هذا يسعدك، فقط أريدك أقرب أصدقائي..". لا أحد ينكر أن زوجها يعتبر صديقاً لا بأس به على الإطلاق. بعلاقاتها نجحت هي في إلحاقه بوظيفة محترمة بوزارة المالية، فتحت له أبواب الدنيا على وسعها وعرفته على كل معجبيها بمنتهى البساطة.

"أقدم إليكم زوجي.. أرجو أن تحبوه وتشملوه بحمايتكم"..

من رابع المستحيلات التأكد إذا كانوا وقعوا في غرامه أم لا، لكنهم على الجانب الآخر احتضنوه بينهم وأغدقوا عليه من حمايتهم ليالي طويلة طالما يطمعون أن تعاملهم هي بالمثل. لكنها وفي هذه المسألة بالذات تعتبر نفسها امرأة غير عصرية على الإطلاق. لا.. لا.. لم تكن

تتمتع بهذه الدرجة من التحرر، ولماذا تجبر نفسها على معاملتهم كما يحبون؟! أحيانا كان يحلو لجينيا تسلية نفسها باصطياد بعض العلاقات العابرة من هنا أو من هناك، ومع ذلك لم تسمح لنفسها يوما أن تلعب دور الفريسة الضعيفة التى يتخطفها الملوك البارعون فى الصيد ليمزقوها من كل جانب حتى لا يبقى لها أى أثر.

- سمعته يناديها: جينيا.. جنيتشكا يا حياتى! أين أنتِ؟

لحظات وظهر زوجها فى الشرفة بكامل هيئته.

- جينكا.. هل جننتِ! تجلسين بدون جاكت على كرسى مبلل بين تيارات الهواء.. تعالى معى إلى الداخل.

منحها الدفء بين أحضانه.

حتى فى تلك اللحظات المختطفة النادرة التى يكشف لها فيها عن فيض من الحنان، أبدًا لم ينسَق وراء اندفاعه. لكنه دائما يضع برنامجًا خاصا للتعبير عن إحساسه الداخلى جنبًا إلى جنب مع تلهفه الدائم على رنين هاتفه المحمول بكل

اشتياق، كما يحرص دائمًا ألا يتأملها بعينين يشوبهما التوتر واحمرار الإرهاق.

راحت هى تقلب أوراق ذاكرتها إلى الوراء واستدعت صورته أيام الشباب، عندما تعارفا من أول نظرة. كان زمنا مصابًا بلوثة الجنون فى كل شىء. فى ذلك الوقت انحصرت كل أحلامها فى الحصول على الشهادة الدراسية. تحددت مقابلتها مع الأستاذ الذى سيتولى تقييم أبحاثها فى الخامسة مساء عند مسرح "إمخات" الجديد. عندما أعلنت دقات الساعة الخامسة كانت تقف هى فى المكان المتفق عليه تنتظره بصحبة مذكراتها، وإذا بكل وظائف رأسها تصاب بالشلل التام من هول المفاجأة المخيفة وهى تصرخ فى نفسها..

- "يا ربى.. الجونلة..؟!!"

فقد اتفق معها الأستاذ أن ترتدى جونلة بيضاء كعلامة للتعارف بينهما، لكنها فى استعجالها الشديد غادرت بيتها وهى ترتدى بنطلونا أسود وبلوفرا. يجب أن تتصرف فى هذا المأزق.. على الفور أخرجت من حقيبتها ورقة وكتبت فوقها إعلانًا بخط كبير..

"أنا ألبس جونلة بيضاء"..

تلفتت الشابة حولها ولمحت بعض الرجال المنتظرين مثلها يتململون من كثرة الوقوف. اقتربت جينيا من رجل أصلع يضع نظارة على عينيه ويقبض بيده على حقيبة جلدية، اقتربت منه أكثر عندما لاحظت إلحاح عينيه على قراءة إعلانها الورقى دون أن يحوّل نظره عنه. بالتدريج انسحبت التعبيرات الجامدة من فوق وجه الرجل الأصلع لتحل محلها علامات التعجب المتصاعدة. ودون أن ينطق بكلمة واحدة ضم حقيبته إلى صدره وهرول إلى الجانب الآخر من الميدان. بعده جاء الدور على شاب أشقر طويل قادمًا من الجهة المقابلة وسألها ضاحكا..

- لو سمحتِ يا آنسه.. هل أنتِ التى تنتظرنى؟

غرقت جينيا داخلها لحظات وهى ترفع يدها بالإعلان الورقى درجة أعلى ليصبح أكثر وضوحا، وسمعت نفسها تقول:

- ربما تكون أنت.. الحقيقة لست متأكدة.

جرت عينا الشاب على كلمات الإعلان ونفحها ضحكة واسعة: إعلان مختصر مفيد، شرح الموقف بما يكفى. فأنا طوال عمرى مشهور بالذكاء المهول فوق العادة.

انحنى الشاب بوجهه عليها فأصبح أكثر التصاقاً بها ووشوشها..

- كلام فى سرك أنا شعرى أسود!!! وأمتلك روحا أفريقية ملتهبة لا تنطفئ شعلتها..

برطمت بينها وبين نفسها: أيها العالم.. كم تمتلئ بالمعتوهين فى كل مكان.

توصلت إلى خلاصة هذه النتيجة وابتعدت قليلا. الساعة تقترب من السادسة. مر عليها العديد من الرجال دون جدوى، إلى أن لاحظت رجلاً يجلس على السلم القريب منها يقرأ جريدة "التايمز". لسبب ما كان يمسك بها مقلوبة. ربما يكون منتظرًا منذ وقت طويل. على أطراف أصابعها تسللت ناحيته بحذر بالغ كمن يقدم على اصطياد فراشة نادرة، فهى لا تقصد إزعاجه. مدت إليه يدها بإعلانها الورقى. ثبت نظره عليها وقرأ..

"أنا ألبس جونلة بيضاء"

بادرها بمرح: وأنا عندى جريدة، هل نتبادل؟

افتتحت حوارها بابتسامة: لا يجوز.. فكل ما أملكه جونلة وهمية، على الورق فقط.

- أما أنا فجريدتى حقيقية، وأجنبية أيضا.

- بكل أسف عناصر المقايضة لا تكفى.

أغلقت جينيا باب الحوار الدائر وتركته خلفها.

استكمل الرجل عرضه بصوت مرتفع: أنا على أتم استعداد لقبول جونلتك.

قررت بكلمات يعلوها الكبرياء: ولا بكنوز الدنيا..

واصلت ابتعادها حتى بلغت الطرف الآخر من السلم. من هناك وجهت نظرها إلى شباك سيارة تقف فى موقف السيارات يمين المسرح. لكن الرجل عاشق الصحافة الأجنبية لحق بها.

- أيتها الفتاة ذات الجونلة البيضاء! اعذرينى.. أنا لم أجد فرصة على الأقل لأعرف اسمك!

منذ هذه اللحظة ألقت بلهفتها على انتظار الأستاذ خلف ظهرها بلا رجعة..

اهتمامه بها ورعايته لها كانا شيئًا جميلا. في الصباح اعتادت أن تستقبلها باقات الزهور المزدحمة في الأواني عند المدخل الرئيسي. كما كان البيت عامرًا بالبالونات واللعب المتدلية من مقبض الباب. ليلة بعد ليلة حتى وصلا إلى الليلة التي تسبق ميلاد السنة الجديدة. في هذا اليوم دعاها إلى العشاء في شقته الصغيرة التي تشعر داخلها بالراحة، لتجد في طبقها قطعة سجق وحيدة تلفها فيونكة باللون الأحمر الوردي.

- هل يعجبك تنسيق الطبق؟. حكيتِ لي من قبل عن هوسك بأكلات المطبخ الياباني، إليكِ أحدث اختراعاتي في هذا المجال..

هناك بجانب شجرة عيد الميلاد اصطفت بعض لفائف الأسطوانات الورقية في شرف استقبالها. بناء على طلبه فتحت واحدة..

"ستكونين زوجتي"..

قرأت كلماته التى كتبها بخط يده وأجابته:

- سأكون.. أعرف أنك لن تتركنى فى حالى مهما حدث..

يوم واحد فقط وتزوج العاشقان بمساعدة إحدى الشخصيات المهمة، التى وفرت عليهما التجمد فى طابور طويل من العرسان المنتظرين الزواج حسب المراسم الروسية التقليدية. فيما بعد اعترف العاشق لزوجته الجميلة أن كل الأسطوانات الورقية فى تلك الليلة كانت تحتوى الكلمات نفسها، أغلب الظن أنه لم يتصور أبدًا قدرتها على تخمين هذه الحيلة من تلقاء نفسها وبموهبتها الفردية البحتة...

أزاح صوت زوجها هدير تداعى الذكريات عندما ناداها بقوة:

- هيييييييه.. يفجينيا.. أين ذهبتِ؟!

- يوووه.. أرجوك..كم مرة طلبت منك ألا تنادينى "يفجينيا".. اسمى جينكا. وحده والدى كان ينادينى يفجينيا فقط عندما أرتكب خطأ مخالفًا للتقاليد المفروضة علينا.

- وصلنا إلى النقطة الحرجة.. وهل يجب علىَّ اتباع قوانين صارمة فى معاملتك حتى اختيار الاسم الذى أحب أن أناديك به؟!

اندفعت داخل الشقة، طوحت بحاجياتها وبعثرتها فى كل ناحية. جلست فى البرد نصف عارية.

- وأيضا لا تهتمين بما أقول، هل سمعتينى! غدًا سنذهب إلى المطعم، عندى مقابلة هناك.

- ألا يمكنك الذهاب وحدك.. بدونى! يا ربى! كم مللت هذه السحنات المختبئة تحت الأقنعة!

وانسحبت مرة أخرى إلى عالمها داخل الشرفة.

- هذه ليست سحنات صنف متدن من البشر، ضيوفى إما زملائى وإما شركائى فى مشاريعى.

- أقنعة، أقنعة، أقنعة.. أشك أنهم يحملون وجوها من أصله، الزيف فى كل مكان.

- معذرة.. لكنك ستتحملين من أجل خاطرى.

أشعل سيجارة.

عندما يشغل الزوج وظيفة محترمة بوزارة المالية، أمر طبيعى ازدحام برنامجه بالعديد من المقابلات المهمة، ولا مانع من عقد بعض منها فى المطاعم.

دخلت دورة المياه وهى تضع الروب على كتفيها وفتحت المياه. دائما يساعدها تدفق المياه على استعادة نفسها مرة أخرى.

بديهى أيضا امتلاك الزوج الذى يشغل وظيفة مرموقة بوزارة المالية أموالاً طائلة.

بلغت هى مرحلة يائسة من الإرهاق الداخلى، فى هذه المقابلات تضطر هى للتخفى وراء قناع مزيف مثلها مثل بقية البشر.

- هل هاجمك يومًا الشعور بالجوع والحرمان؟

أصر على مطاردته لها حتى داخل الحمَّام.

وكل هذه العطور وأدوات الماكياج الثمينة والمانيكير والمساج والنوادى الصحية و.. و.. الحقيقة بروجرام حياتك مزدحم جدا مثل الأتوبيس.

- واضح أنك لا تمت لعالم المواصلات العامة بصلة.. فالأتوبيسات يا عزيزى تخلت منذ زمن بعيد عن السير طبقًا لبرنامج متحجر لا يتغير. بالتالى هناك اختلاف تام بينى وبين الأتوبيسات بكل تأكيد..!

- اتفقنا يا روحى.. السابعة مساء غد فى شارع "تفرسكوى".

ألقى عليها التعليمات النهائية وسارع بمغادرة الحمَّام.

صرخت بأعلى صوتها: لا أريد أى شىء.

أنهت احتجاجها المرتفع ثم عادت تستسلم للمياه الدافئة تتهادى فوق جسدها الواقف تحتها.

لم أعد أرغب فى تمثيل دور مفروض علىَّ بالإجبار، مثله مثل الظروف والمكان وكل الناس. أريد أن أكون نفسى. فجأة سألت نفسى "من أنا؟!!" لا أدرى.. أنا امرأة مختلفة وفى الوقت نفسه أنا لا شىء. أشعر أن هناك أكثر من امرأة تعيش بداخلى..

تقاطعت لحظة خروجها من الحمَّام مع رنين التليفون الحاد ثم صوت زوجها المنفعل.

- سبق وقلتم هذا الكلام مائة مرة، أى حراسة هذه التى تتحدثون عنها؟! هذا تهريج.. أنتم ترسلون لنا أطفالاً صغارًا يقومون بحراستنا. واضح جدا أن كل ما يحدث حيلة من مئات الحيل يبتكرها كل من تسول له نفسه الوصول إلى كرسى الرئاسة. بدلاً من هذا الهراء فكِّروا، استخدموا عقولكم ولو قليلا. لم يعد عندى ما يقال. إذا تذكرت أى شىء سأتصل بكم فورا. نعم.. راقبوا جهاز إظهار رقم الطالب، اضبطوه كما يحلو لكم. لكن.. أنا.. أنا..

وضع الزوج السماعة بانفعال عنيف.

دون أن تدرى انتقلت إليها عدوى موجات التوتر المتصاعدة. اقتربت من زوجها وجذبته داخل أحضانها وهى صامتة. لكن المسألة ليست بهذه البساطة. يبدو أن هناك أزمة حقيقية تعصف بحياته. وهى كما هى مدللة لا تتحمل المسئولية. أوكى.. ستنفذ له طلبه وتذهب غدًا إلى المطعم، لكن هذا لا يمنع من إبداء القليل من مهارات الشقاوة التى

تملكها. القليل منها فقط كنوع من الاحتجاج السلمى لن يضر كثيرا.

ظلت أفكارها تتخبط يمينًا ويسارًا فى رأسها الذى يستند إلى كتف زوجها، وقد أوشك الليل على وداع السماء.

فكرت بينها وبين نفسها: من الذى أفتى أن التوتر يؤثر سلبيا على مزاج الرجال وكفاءتهم الجنسية؟؟ الحقيقة أن كل المتخصصين فى الجنس وعلمائه لا يفقهون أى شىء.

فى هذه اللحظة دارت بوصلة رأسها للناحية العكسية تماما وتوقفت عند والدها الذى تذكرته بدون مناسبة. كان موقف والدها المعارض بشدة لمسألة زواجها لا يفارق رأسها أبدا. كان يرفض حتى مبدأ تخيل ابنته مع زوج المستقبل الموعود هذا، وهى الفتاة المتفوقة التى استحقت الميدالية الذهبية وأنهت دراستها فى المعهد بجدارة وحصلت على الدبلوم بامتياز. والدها.. الأستاذ بجامعة موسكو الحكومية، الإنسان المثقف جدا الذى فقد زوجته بعد أسبوع واحد فقط من ميلاد جينيا، عندما علم بقرب زواج ابنته من هذا الرجل كاد يحطم المنزل بقدميه ذهابا وإيابا ممسكا رأسه

بكلتا يديه. فقد تأكد أن الأمر خرج من سلطته تمامًا بلا رجعة.

"حياة الريف التى نشأ فيها زوج المستقبل واستوطنت روحه ليست هى المشكلة الوحيدة، لكنكما شخصان متناقضان! قادمان من عالمين مختلفين كليا وجزئيا! أنتِ.. أنتِ مخلوق مبدع، طاقة من النشاط والحماس! إنسان يحب الحياة كما هى لذاتها! أما هو.. كائن براجماتى لا يخطو أى خطوة غير محسوبة مطلقا، لا يقدم عليها أصلاً إلا إذا كانت ضرورية جدا بالنسبة إليه وحسب حسبة الفائدة التى ستعود عليه من ورائها. إنسان مادى خارج حدود الحياة. مستحيل أن تحقق هذه النوعية من الزيجات أى قدر من النجاح والسعادة! النتيجة المنطقية الوحيدة هى تصدع وانهيار الزوجة بعدما يستنفذها الذوبان الكامل فى فلك الزوج. وهكذا ينتهى بها الحال إلى البقاء وحدها حبيسة فى قفص الحياة المادية".

مسكين أبى! انفرط عقد مقاومة عينى جينيا وبدأت رموشها تتلامس حتى تعانقت معا. نامت جينيا.. قبل انقطاع آخر خيوط وعيها التام مدت يدها تلقائيا تحت الوسادة التى

تستند رأس زوجها إليها، ظلت أصابعها تداعب الفراغ المحيط وتتحسسه بهدوء حتى فوجئت باصطدام يدها بمسدس يشاركهما الفراش..

"قهوة بوشكين".. هنا في هذا المكان تواعدت مع زوجها لتلقاه. هذه القهوة من أقرب الأماكن إلى قلبها في موسكو، رغم عمرها القصير منذ حوالى عام. أيام قليلة وأصبحت ملتقى "أهل القمة" من سكان موسكو ومن الأجانب أصحاب الذوق الرفيع، ربما تكون "بوشكين" من الأماكن النادرة التى لا يعانى مالكوها من مشاكل مع الحكومة.

انهمكت عيناها فى مراقبة السائحين المنتشرين على المقاعد يلتهمون بنهم أطباق ثعبان السمك التى تلتف حولها صلصة اللفت البرى تحميه، ويتهافتون على أطباق الفطائر المحشوة بالمخ واللسان، ناهيك عن سلطة الأوليفييه التى تطبق شهرتها الآفاق. فهى دسمة حافلة بتشكيلة مزدحمة من أصناف مأكولات القرن الماضى، والأهم من ذلك أن هذه السلطة لا تعانى من وجود البطاطس، يكفى وجود أوراق الشيكوريا التى تحتضنها بعناية فائقة. تعبأت جينيا بشعور طاغ بالفخر. أحياناً تغزوها موجات عاصفة متفرقة من

المشاعر الوطنية والعاطفية، وكثيرًا ما تساقطت على رأسها كلمات زوجها الساخرة لحرصها على مشاهدة هذه الأفلام التسجيلية التى يصر التليفزيون على عرضها بكثرة فى الآونة الأخيرة. كيف لا تهطل دموعها وهى ترى بعينيها الدب ميشكا بعينيه الواسعتين رمز دورة الألعاب الأوليمبية المقامة بموسكو، وكأنه يحملق فى البشر ويقول لهم "إننى الآن معلق على أعلام هذه الدورة بين السماء والأرض". توافق استضافة موسكو لدورة الألعاب الأوليمبية مع استضافتها مرحلة جديدة من حياتها بعد استقبالها سنوات العشرينيات الجميلة، يصحبها أول حب ملك عليها قلبها وأيضا أول قبلة تتذوقها. أين الرجال من كل هذه المشاعر؟؟ فهم محرومون من الإحساس تغويهم الأمور الدنيوية.. هذه الأعراض تضرب غالبية صنف الرجال.

فى دقائق قليلة توقف التاكسى بها أمام "قهوة بوشكين" المتفق عليها، فتنت لها نظرات الحارس الذى فتح لها الباب على نجاحها الساحق فى تحقيق هدفها الذى خططت له بدقة.. كم كانت رائعة وجذابة، كيف يمكن لأى إنسان وصف جمال تصفيف شعرها. هذه اللمسات المبدعة لديما أرلوف الذى يلقبونه بكريستيان ديور موسكو، وقد أمضى

ساعتين كاملتين فى تكوين هذه اللوحة الفنية الساحرة التى تزين رأسها، ناهيك عن ساعة أخرى قضاها فى التنزه بأصابعه وأدواته على صفحة وجهها الجميل. راحت هى تتبختر بدلال بين الموائد، تمرق بينها وتعد ضحاياها الذين اغتالهم بريق جمالها الفاتن.. واحد، اثنان.. سبعة.. عشرة.. قبل وصولها للرقم الحادى عشر تراجعت، فالضحية هذه المرة زوجها. من المعروف أن الزوج لا يندرج فى قائمة ضحايا الجمال. لكن ذلك لا يمنع أن زوجها قد فضحته ملامح وجهه التى انفجرت بإحساس الدهشة والانبهار، أما رفيقه فكأن تيارًا كهربائيا مسه وانتفض رماد سيجارته وهوى منتحرا على سطح المفرش! ربما يكون الدافع الأساسى وراء هذا الحادث فستانها الأنيق التى صممته فيكتوريا أندريانوفا شخصيا، والذى ضمته مع إخوته إلى دولابها المتخم فى أثناء مشاهدتها أسبوع الموضة. الحقيقة أنه مصنوع من أفخر أنواع القماش المطرز بخيوط معدنية، ونال نصيبه من التصميم المدهش الذى يدرك جيدا كيف تُدار لعبة الأنوثة.. من فضلكم أود أن أصف لكم معالم فستانى.. فتحة صدر متهورة أكثر من اللازم، تنسجم فى هارمونى مثير مع فتحة جانبية مرتفعة. هل تتمنونه قصيرا؟ أوكى.. كما تريدون..

جلست جينيا على المقعد ووضعت ساقا على ساق.

صحيح.. نسيت أن أقول لكم إنه من السهل عليكم ملاحظة صناعة حذائى اليدوية الراقية.

تعطفت جينيا على الحاضرين بابتسامة جميلة..

- عذرًا للتأخير.

لم تستطع الشابة الجميلة الرقيقة صاحبة العيون الواسعة المستديرة والشفاه الغليظة زحزحة عينيها الحاسدتين من فوق جينيا، كيف ذلك وهى تجلس مع الصحبة نفسها وعلى المائدة نفسها. انحناءة خفيفة فرضت نفسها على جسدها تحت وطأة أوزان الحلى الذهبية الثقيلة المتدلية منها هنا وهناك. مع الأسف حققت بيوت الأزياء نجاحًا ملموسًا فى إيهام المتسلقين الجدد إلى عالم "أهل القمة" أن التكبل بالذهب فى كل بقعة فارغة هو قمة الأناقة، حتى أصبح من الصعب تصحيح ذلك المفهوم داخلهم. صدق من قال إن الإنسان يولد وهو يحمل ذوقه بداخله.

أخيرا فض الضيف الجالس فى الجهة المقابلة سكون النظرات المتبادلة وبدأ بتعريف نفسه..

- إيفان إيفانوفيتش.. سيدتى سمعت عنك الكثير.

على أطراف أصابعه شب الرجل قليلا متكئا على شعوره بالعظمة الجارفة. يبدو أن سنوات الشباب هجرته منذ زمن طويل. استغرقت جينيا فى صمتها لحظات وهى تفكر..

"لماذا يقطر مظهر رجال البنوك إنهاكا بعينين متعبتين كما لو كانوا يعتصرون أذهانهم ليلهم ونهارهم؟

لا أدرى إن كانوا من النوع المثقف أم لا، لكنهم بالتأكيد يبذلون جهدا كبيرا.

ثم جاء الدور على زوجة رجل البنك التى أعلن الرجل عن وجودها بطريقة مسرحية متكلفة..

- أقدم إليكم زوجة رجل البنك، أعتقد أن هذا اللقب يكفى تماما.

تجاوبت جينيا مع طبيعة الموقف.

- إذن تستحق هى بالفعل لقب زوجة الموظف الكبير..

هكذا وضحت معالم الصـــورة تمامًـــا، فكـــل إنســـان لـــه لغته التى يفهمها.

ها هى أهم نتائج الإنهاك الشـديد الـــذى يعانيـــه رجـــال البنوك تكشف عن نفسها تلقائيا.. انظروا من الـــذى ينـــال شـــرف الجلوس بجانبهم؟ إنهـــن الزوجـــات.. عـــادة الزوجـــة الثانيـــة أو الثالثة. وداعًا أيتها الزوجة الأولى التى تحملـــت معـــه وصـــعدت به السلم الوظيفى من الصفر، صـــبرت وكافحـــت معـــه ســـنوات وطالما بللـــت دموعهـــا الليـــالى الطويلـــة. الآن يكبـــر أبنـــاؤهم ليجدوا الزوجة الثانية أو الثالثـــة تحتـــل عـــرش والـــدتهم. قائمـــة اختيار الزوجة البديلة مطوَّلة ليس لها آخـــر.. الاختيـــار البـــديهى الأول يضم فى بروازه رجل البنك وســـكرتيرته، يـــا تـــرى هـــل كلَّف أى إنسان خاطره من قبل بـــالتفكير فـــى هـــذا الأمـــر؟ هـــذا الطراز البديع من السيدات مبهر بحـــق.. لكـــن هـــل الســـكرتيرة محل ثقة حقيقية؟ أغلب الظن أننا لـــن نجـــد كـــل فتـــاة ترتضـــى هذه النوعية مـــن الأعمـــال بســـهولة، إلا إذا كانـــت مـــن النـــوع المازوخى. فى البداية تخضـــع وتقبـــل لعـــب دور التـــابع، علـــى أمل تعويض مـــا فاتهـــا فـــى المســـتقبل القريـــب. فتحشـــد كـــل مواهبها المتمركزة فى النظرات والسيقان لإنجـــاز هـــذا الهـــدف، البداية نفسها تؤدى إلى النهايـــة نفســـها دائمـــا.. نظـــرة إعجـــاب،

لمسة حنونة، صوت ناعم خجول و.. يقع الرجل.. لكن كيف يسمح هو لنفسه بكل ما يحدث؟!

لا يهم أبدًا إذا كان الرجل المنشود يتقدمه كرشه أو تتوج رأسه صلعة أو تحد أطراف وجهه أذنان كبيرتان. دائمًا ما يقنع رجل البنك نفسه أن كل هذا من توافه الحياة. فأنا الرئيس وهى تحبنى كما أنا.. نعم تحبه.. بالكرسى الذى يجلس عليه..

نصل إلى الاختيار الثانى..لا أدرى كم عدد بقية الاختيارات فى القائمة. على أى حال دائمًا ستظل السكرتيرة متربعة على قمة الاختيارات مهما حدث. الحق أن هؤلاء الرجال البائسين يستحقون الشفقة من كل قلبى. فهم يثقون بأى إنسان وبأى شىء بسرعة متناهية كالأطفال، لكنهم لا يعرفون أنهم مصابون بمرضين مستعصيين بقوة.. الثقة الزائدة بالنفس وفى الوقت نفسه الشك فى كل شىء. أما المرض الأول فيُفضى إلى الغباء، بينما يؤدى المرض الثانى إلى.. على أى حال الإصابة بالاثنين نتيجتهما واحدة.. تفشى الكذب والخيانة. يا ربى خذ بأيديهم وبيدى أنا أيضا، فأنا الآن محكوم علىَّ بالجلوس أمام شابة حمقاء ملطخة بكم هائل من

ألوان الماكياج المتنافرة، وكل مهمتى الآن محاولة اختراع أى موضوع يصلح للدردشة بيننا".

رغم كل شيء وجدت جيينيا نفسها تتعاطف مع هذه الشابة البلهاء التى لم تكتشف بعد سقوطها فى الفخ المحكم وليس القفص الذهبى كما تتصور. صحيح.. تواضع موهبة الذكاء نعمة لو تعلمون عظيمة. يتلخص الفارق بين القفص ومصيدة الفئران أن الأول حتى لو كان مصنوعا من الذهب، فهناك على الأقل أمل أن تنفتح أبوابه يومًا ما. أما مصيدة الفئران فلا يتوهم أحد الفرار منها أبدًا، لأن..

فعلاً أنا حزينة لهذه الفتاة التى هوت فى براثن الفخ، وهى لا تدرك أنها ستحتفل بعامها الثلاثين بعد سنوات قليلة فقط بينما سيكون الطرف الآخر واقفا على مشارف الستين عاما. ربما يكون من الأفضل لو كانت هى فى الأربعين من عمرها مقابل أعوامه السبعين. تتلفت يمينًا ويسارًا لترى نفسها محاصرة بشابين مفتولى العضلات يحرسان زوجها، وخطوة خطوة تتقهقر المسيرة وتنتهى الحدوتة بالطلاق؛ هذا إذا كان هناك عقد زواج مشروط من أصله. أما إذا دفع هو عجلة الزمن للأمام أسرع من المعتاد وتملكته رغبة التخلص

منها ومن عالمه ومن كل شيء، فاللجوء إلى أقراص "الفياجرا" سيعجل له بالنهاية من أقرب طريق. في هذه اللحظة ستتلاشى المشاكل تماما..

آه.. أيتها الفتاة التي تشبه عروسة باربي.. أيتها الفتاة أنتِ سعيدة لأنك لا تدركين كم أنتِ تعيسة..

لسبب ما استعصى عليها النوم في هذه الليلة. إلى جوارها يرقد زوجها الذي لا ترى منه غير ظهره. حاولت استعادة هدوئها بكل السبل دون جدوى.. فقد طلبت من رجل البنك أن يشعل لها سيجارة، وأسرت له أن التدخين يتسبب في إيقاظ فتيل الإثارة داخلها. شربت معه بعض كئوس الخمر وتبادلا بعض القبلات نخب تعارفهما الجديد من باب رفع الكلفة بينهما كما جرت العادة. همست له بجملة أو جملتين أو ربما ثلاث محمَّلة بدلالات جنسية موحية بأكثر من معنى..

لا أعرف ماذا أفعل الآن؟ إلى هذه الدرجة أصبحت أنثى خليعة! لامت نفسها كثيرا. كنت أرى نفسي وأحس وأدرك كل شيء.. يبدو أنني أفسدت لزوجي شيئا ما.. خرج الأمر من بين يدي، أبدًا كان من المستحيل التحكم في نفسي. مازلت أتذكر هذه الفتاة الشابة.. صغيرة هي وناعمة كسطح

المكواة الأملس يحرق فى طريقه كل شىء، والمكواة رأسها صلب لا يفكر ولا يعقل.. لكن ما علاقتى أنا بها؟! فلتهنأ هى بحياتها حسب مزاجها وعلى حريتها، فهى مثل أى امرأة يطفح لعابها شرهًا وراء المال.. كان يجب علىَّ إلقاءها فى المرحاض ورأسها إلى أسفل. وطالما لم أمنحها ما تستحق فلن أرى الراحة أبدا. هنيئًا لكِ عزيزتى جينكا.. إلى هذا الحد تدنيتِ إلى مستوى العاهرات والقرويات اللائى يفتشن عن السعادة! هل فعلا تمنيت التحدث بلغتهن؟ يبدو أن الطريق مازال أمامك طويلاً لتتعلمى..

هبط عليها رفيقها القادم من السماء وراح يتأملها، لم يقف بعيدًا عنها كثيرًا ولم يحاول الاقتراب. ثم قطع الصمت بسؤالها..

- هل اخترت طريقك؟

- طريق؟ أى طريق؟؟

- طريقك.. الرحلة من نقطة الصفر إلى القمة.

- من نقطة الصفر؟!

- أقصد قمة حياتك السابقة التى تركتها وراءك.

- وهل أعيش الآن على القمة؟

- لكل إنسان قمة تتلاءم معه. إذا كنت قد اكتفيتِ ونفذت طاقتك لمواصلة المشوار أبعد من ذلك، فلن يستطيع أحد إجبارك على شيء. لكن تذكرى دائما أنك أنتِ التى صعدتِ هذا الطريق بقدميك، وأنتِ التى توقفتِ هنا بنفسك.

- لكن من الصعب علىَّ استكمال الرحلة بعد الآن.

- كل إنسان فى حياته يمر بمجموعة من الاختبارات، يكبر عددها كلما كبرت قوة احتمال الإنسان. الثروة والفقر، المتعة والألم، النجاح والفشل، الوفاء والخيانة..

- جواربى.. أين جواربى؟

- أية جوارب؟!!

عين واحدة فقط فتحتها جينيا واعتدلت فى الفراش. الساعة الآن السابعة صباحا. هذا ليس وقتًا مناسبًا أبدا لبداية التفكير فى أى شيء. تذكرت المقولة الشهيرة.. "القدرة على التركيز تنعدم طالما يصعب عليك رسم التجاعيد على الجبهة". استدعت ذاكرتها هذه الكلمات وأيقنت أنها موجهة

إليها فى هذه اللحظة بالذات. فتحت العين الثانية. وجدت زوجها يقف أمامها نصف عار، أو بمعنى أدق يرتدى نصف ملابسه فقط لا غير وبدأ وصلة الصراخ..

- أين ذهبت الجوارب؟

- اختفت.

- اختفت؟ كيف اختفت؟! هل تهذين؟!!

- أنا لا أهذى.. الجوارب اختفت فى القمامة.. ربما تكون الآن مستلقية على رأسها أو مندسة فى قلب أكوام القاذورات.

طوحت يديها بلامبالاة فسقطت على الوسادة وأغمضت عينيها من جديد واستكملت..

- الجوارب مليئة بالثقوب.

- لكن زوج الجوارب هذا بالذات من أحب الجوارب إلى نفسى!!

- كيف تفكر أنت؟ هل تتخيل مثلا أنني سأداوى الثقوب بالإبرة والخيط، أم أنني سأرسلها إلى الرفة؟! خذ غيره من الدرج.

(بحزن واضح): لا أريد غيره، فأنا أحب هذا الزوج بالذات.

أخذت نصف دورة بجسدها على الفراش ونامت على جانبها الآخر، وأخفت رأسها بالوسادة. لكن النوم كان قد خاصم جفونها بغير رجعة.

"ما أغرب الحلم الذى رأيته. لابد أن أقلِّبه على كل الوجوه. بكل أسف زوجى أيقظنى بمشكلة جواربه الغبية. لكنهم كما يقولون.. إذا أحببتِ رجلاً، فعليكِ أن تحبيه كله على بعضه قطعة واحدة.. بعينيه ويديه وقدميه وجسده، لكن.. لا يهم.. باختصار لابد أن تحبى كل ما يلبس ويلمس هذا الجسد. لكن جوارب؟!! لا أعرف لماذا لا أطيق جوارب الرجال؟ ربما لأنها المحطة الأخيرة التى تجتمع فيها كل المعلومات عن الرجل. كل ما يجب أن يختفى عن عيون الآخرين.. فكل مميزاته وإيجابياته ترتفع إلى المنطقة العليا، وكل عيوبه وسلبياته تنحنى إلى المنطقة السفلى. كلما أدور

بعينى فى أى مكان لا أجد إلا جوارب.. جوارب.. شىء مقزز.. هذه الجوارب تذكرنى بالعوازل الطبية المستعملة. كل شىء حولى لابد أن يتشرب رحيق الجمال".

تخلصت من الغطاء وأزاحته جانبا، واتجهت إلى الشرفة مباشرة. بكل ذراعيها احتضنت كتفيها وهى تقف مستسلمة للهواء المنعش تنفض عنها آثار النوم. السماء المشمسة تداعب مدينة موسكو الباردة، لكن الأشعة الخافتة لم تعد قادرة على تحمُّل مسئولية تدفئة سكان العاصمة الذين يرتجفون من البرد. منذ ساعات طويلة فتحت المدينة عيونها، وشهدت كل سكانها وهم يهرولون إلى أعمالهم. الأمهات يمسكن بأيدى أطفالهن المساكين الذين يقاومون النعاس بلا جدوى. ظهور الأطفال تئن تحت الحقائب الثقيلة وهم يجرون أقدامهم إلى مدارسهم القريبة. داهمتها دهشة مفاجئة عندما لمست بنفسها مدى روعة الصباح الباكر. ما إن تنتهى الطبيعة من نومها حتى تنخرط الشوارع والبيوت والسيارات والبشر فى دوامة الأعمال اليومية المعتادة.

- أوكى.. اتفقنا.

ثبتت وجهها تجاه شمس الخريف التى لا حول لها ولا قوة واتخذت قرارها.

- أوكى.. منذ هذه اللحظة سأستيقظ مع زوجى فى السابعة صباحا. أعد له الإفطار بنفسى، رغم أنه لا يشرب إلا القهوة فقط. لا يهم.. ماذا أيضا؟ سأقوم بجولة عدو حول البيت. عندى بدلة تدريب جديدة لم ألمسها. يقولون أيضا الدش البارد بعد الدش الساخن مفيد جدا. هذه هى نقطة البداية!

أخرجها جرس التليفون من الحمَّام.

- آلو

جاءها صوت زوجها..

- هذا أنت؟ عطلتنى؟ طبعا عطلتنى. كنت فى الحمَّام أستمتع بالدفء. ساعة كاملة وأنا أعيش حياتى هناك. انتهيت من الدش الدافئ، والآن حان دور الدش البارد. كوكتيل سحرى واختراع ليس له مثيل.

- أهنئك يا يفجينيا.. بعد أمسية الأمس سنبدأ حياة جديدة تماما.

- كان بودى.. لكن بعد هذا الدش قررت الاستمرار على طريقة حياتى القديمة المعتادة نفسها.

- جهِّزى لى الحقيبة.. حالاً سأطير إلى ألمانيا لمدة أسبوع، وسيأتى السائق ليأخذها. لن أتمكن من وداعك وأنتِ السبب فى ذلك، فقد أفسدتِ لى بالأمس كل الأمور التى أرتب لها منذ ستة أشهر. والآن يجب..

- قاطعته بعصبية: سآتى إليك.. أوكى؟ سأجهز الحقيبة وأحضر، لكننى أفضل التاكسى.

- لا داعى لذلك. اليوم أحضرت سائقًا جديدا. عجوزًا لكنه ذو خبرة كبيرة ولا يجلس منتظرًا فى السيارة، يلبس المعطف ولا يعرف الثرثرة وسيفتح لكِ الباب. باختصار سيتوافق معكِ تماما. لا داعى لحضورك وسيأتيك هو بعد ساعة من الآن. لا يوجد ما يستحق الغضب.

وضع السماعة ولم يسمح لها بالاعتراض. من داخلها انطلق زفير ملتهب ولم تنطق.

بعد ساعة حضر السائق المنتظر، أعطته الحقيبة وأخذت منه لفة يحملها معه. فتحتها فوجدت جهاز إظهار رقم الطالب ومعه رسالة:

"جينيا.. ضعى فيشة الجهاز فى الكهرباء ولا تجيبى على مكالمات لا تعرفين أصحابها. اتصلى بمسئولى الأمن عند الضرورة".

أوصلت التليفون بالكهرباء وأدارت رقم صديقة.. هى أقرب صديقاتها وسرها الأمين.

التقت بها لأول مرة فى معرض لوحات "الفرنيساج" بعدما رضخت لطلب زوجها باصطحابه هناك مع أحد أصدقائه. ظلت هى تتنقل من لوحة إلى الثانية، ولم تبد اهتمامًا كبيرًا بما رأت. فجأة وبدون مقدمات تعثرت فتاة قصيرة القامة – لها جسد رياضى وتلبس زيا أخضرا فاتح اللون غير تقليدى – بجانبها تمامًا فأغرقتها وأغرقت نفسها بالشمبانيا. وقعت الفتاة فى حرج بالغ وأخذت تنظف جونلة جينيا الواسعة، وعندما اقترب الزوج كانت السيدتان قد قامتا باللازم من أمور التعارف وانتهى الأمر.

- سفيتلانا خوخلوفا.. أرجو أن تنال إعجابك وتغفر لها ما فعلت. بالمناسبة سفيتلانا زميلتك وتعمل محاسبة.

مدت سفيتلانا يدها إلى الزوج بعكس وجهها الذى توارى وراء حمرة الحرج. نادرًا ما صادف الزوج سفيتا بين زملائه فى أى مكان. عادة تفضل النساء الاختلاء ببعضهن البعض فى مكان ما يتهامسن بأسرارهن. مسافة ما تحافظ جينيا على بقائها دائمًا بينها وبين معارفها. ورغم أن سفيتا عاشت تحت سماء موسكو سنوات طويلة، لكنها مازالت تحتفظ داخلها ببعض الطبائع القروية. تعانى مجهودًا فى اختيار الملابس، لكنه فى النهاية مجهود خالٍ من الذوق. أحيانًا تقوم بتصرفات ملتوية، ومع ذلك تتحملها جينيا لأنها صديقة مخلصة.

اليوم اتفقت الصديقتان على اللقاء فى نادى "إيكيباج" الصغير الذى يتوسط العاصمة موسكو. انتزع هذا النادى شهرته بسبب مطبخه الرائع وتقديمه موسيقى حية على الهواء فى السهرة، كما أنه أفضل مكان لتلاقى الكثيرين بهدوء بعيدًا عن الأنظار. كثيرًا ما يحضر إليه نجوم التليفزيون والفن عمومًا، هنا يمارسون حياتهم العادية بحريتهم. ويتعاظم هذا

الإحساس أكثر وأكثر، عندما تحتجب وجوه الضيوف وراء ستار سميك من الدخان المبحر فى الهواء.

دارت الكئوس بين الصديقتين وبدأ صوتهما يتخلى عن الحذر.

- جينيا.. لماذا تشكين باستمرار؟ عندك كل ما تتمنين.. عندك زوج ثمين القيمة كالذهب..

- نعم.. لكن كل الأيام متشابهة. المعاكسات. لا تنقطع وفرمان عدم الاقتراب من التليفون مازال ساريا. وتعقدت الأمور أكثر عندما أحضر جهاز إظهار رقم الطالب هذا. كاد لسانها ينفلت بالحديث عن المسدس لكنها تراجعت فى الوقت المناسب. فليس من الضرورى أن تعرف سفيتا شيئًا عن هذا الموضوع، وماذا ستقول إذا كانت هى نفسها لا تعرف شيئًا عنه بعد؟

صاحت سفيتا: لماذا يرتفع صوت الموسيقى اليوم بهذا الشكل أعلى من المعتاد؟!

جينيا بملل: نعم.. لقد جلسنا فى مكان غير مناسب، بجوار الموسيقى تماما.

- جينيا.. كفاكِ شعورًا بالملل، فهذا لا يليق بالسيدات الجميلات مثلك. انظرى كيف يحدق فيك كل الرجال.

أمسكت سفيتا بيدها..

- اسمحى لى.

بدأت جينيا تستجيب لكلمات سفيتا وتنقلت بين الوجوه حولها، تأكدت أن الجميع يرشقونها بنظراتهم دون يأس. أخيرًا أدركت حقيقة ما يحدث حولها. طوال الليل وهى تستشعر عينًا غريبة تراقبها وتلاحقها باستمرار. دارت برأسها هنا وهناك. صعب جدا استكشاف أى شىء وراء ستار الدخان. لكن بالتأكيد هناك شخص ما يصر على مراقبتها. بشكل لا إرادى زوت كتفيها.

سفيتا باهتمام: هل تشعرين ببرود؟، هل هناك ما يقلقلك؟

خففت سفيتا من جديتها وحولتها إلى لهجة مرحة وراحت تضرب المنضدة بيدها وهى تضحك: آه طبعا.. الآن

فهمت.. زوجك هو الذى يعانى من الملل.. كل الناس تعانى من الملل.. حتى أنا.

- لكن زوجى لا يشغل باله بهذه المسألة، مثلها مثل كل شيء عنده.

أرسلت جينيا خصلات شعرها إلى الوراء.

- نكتفى بهذا القدر.. استرخى تماما.. دعينا نشرب حتى الثمالة ولو مرة واحدة فى حياتنا. بالمناسبة هل الويسكى كلمة مذكرة أم محايدة؟!(١١).

أعادت سفيتا كوبها الفارغ إلى المنضدة.

- الويسكى ربما يكون ذكرًا أو ربما يكون بين بين.. على أى حال نحن نسميه ويسكى وكفى.

---

(١١) تنقسم الكلمات طبقا للقواعد النحوية للغة الروسية إلى مذكر ومؤنث ومحايد، والمحايد ليس له سمة مميزة ولا تعريف بعينه سوى أنه ليس مذكرا ولا مؤنثا. وهذا التقسيم نفسه نجده أيضا فى القواعد النحوية للغة الألمانية. وفى أغلب الأحيان نجد أن الكلمات الأجنبية الداخلية على اللغة الروسية تنتمى للجنس المحايد.

أنهت جينيا كلماتها واستدارت ناحية الجرسون بملامحه الغريبة بعض الشيء وصاحت:

- جرسون.. كأس ويسكى.. كأسان.

- كالبرق شاورت سفيتا عقلها وأضافت: دوبل من فضلك.

وجهت إليها جينيا تعبيرًا على شكل علامة استفهام.

- هل هذه هى كل مفردات القاموس الذى تتعاملين به؟

جذبتها سفيتا من ملابسها بلهفة..

- انظرى.. انظرى.. آه من جمال هذا الرجل الجالس فى المنضدة المجاورة.. انظرى.. إنه يراقبنا.

همست فى أذن صديقتها: دعيه.. مالى أنا يراقبنا أو لا؟ لا يهمنى.. فأنا لا أهيم عشقًا إلا بالزنوج ولا أحد غيرهم.

"هل من الممكن أن تكون جينيا على حق؟ نتجرع قطرات الويسكى إلى ما لا نهاية ولا نحسب حساب أى شىء

على الإطلاق؟ لكن المشكلة أن إحساسها المرضى الدائم أنها مراقبة بدأ فى إطلاق شرارته الأولى"..

- تقولين من؟

كاد الكأس يسقط من يدى سفيتا من هول صدمتها..

- قلتِ الزنوج؟!!

- نعم.. أقصد أصحاب الأصول المخلَّطة من عدة أجناس. تخيلى معى.. أنت بيضاء بياضًا شاهقًا، وهو..

انتزعت آخر قطرات كأس الويسكى فى فمها..

- هو.. يميل إلى السمار أو قمحى اللون مثلاً.. له جسد رشيق مثل الثعبان الممشوق.

مسحت جينيا كل الجالسين حولها هنا وهناك بالسرعة البطيئة وقالت فى نفسها:

- صحيح.. إلى هذا الحد يفوح اللقاء الجنسى مع رجل مخلّط بسخونة لافحة.. هكذا تمضى الحياة ولم أستمتع بالنوم معه إلى اليوم. ربما تكون هذه المسألة مهمة، وربما لا

تكون مهمة أبدا.. يقولون أيضا إن ممارسة الجنس مع اليابانيين ممتعة للغاية.

ارتشفت هي جرعة أخرى من الويسكى. نسيت نظرات جينيا نفسها فى مكانها وهى تتساءل صمتا..

- هل من الممكن أن تكون سفيتا نامت مع يابانيين؟! شىء مثير.. مثير جدا..

نهرتها سفيتا بتوتر: مالك تأكليننى بعينيك بهذه الطريقة؟

هدأت جينيا من روعها بابتسامة: لاشىء.. مجرد أفكار خطرت على بالى.

برطمت سفيتا بينها وبين نفسها: آآآآآه بدأنا.. التهمت الويسكى وانهالت عليها كل السخافات تقتحم رأسها..

ثم استكملت حوارها مع جينيا بصوت مسموع:

- هل فكرتِ كيف ستقضين وقت فراغك فى غياب زوجك الوفى؟

مع الكلمة الأخيرة فى سؤالها دفعت سفيتا بقطعة كبيرة من السمك الأحمر بين فكيها:

- أريد الانتهاء من تماثيلى.. ستكون شيئًا خارج الإطار التقليدى تماما.

- أى تماثيل تقصدين؟ بالمناسبة جربى هذا السمك وإلا سيفوتك الكثير.

وناولتها قطعة سمك على طرف الشوكة.

- فى الوقت الحالى يستغرقنى تمثالان لرجلين غريبين غريمين فى حالة صراع، كل منهما يجاهد ليجذب بيده شيئًا ما يشبه الحبل. لا أنكر أننى أحاول مساعدة الطرف الأول أحيانًا، لكننى أعود وأمد يدى للطرف الثانى أيضا. الاثنان يتوقان للتوازن النفسى الداخلى. حتى هذه اللحظة لا أدرى كيف أوفق بينهما..

قاطعتها سفيتا: كنت أكلمك عن السمك، جربيه.. لذيذ جدا خصوصًا أنه قليل الملح.

استفاقت جينيا من أفكارها بغضب: اذهبى أنت وسمكتك إلى الجحيم.. قطعت علىَّ حبل أفكارى .

تمادت الصديقة فى مرحها وكأن شيئًا لم يكن..

- كنت تقولين إنك ترغبين فى مساعدة الاثنين فى الوقت نفسه، لكنى أؤكد لكِ أنك لن تنجحى فى ذلك..

- أنت غبية.. العكس هو الصحيح.. حالاً قلت إننى لم ولن أطيق أبدًا الوقوف على الحياد بالنسبة لأبطالى..لا أفهم من أين يمتلك المؤلفون والكتاب هذه القدرة! هل يمكن أن تقف موقف المتفرج فى كل ما يواجهه أبطال أعمالك؟ ليس من باب المساعدة، لكن من باب التأمل الدقيق لما يعانونه. هل يمكن مثلاً أن ألعب أنا دور البطولة فى صراع رواية تحدث فى العالم الآخر؟؟

جارتها سفينتكا وهى تقذف بقطعة سمك فى فمها بسرعة..

- عدنا مرة أخرى لمشكلة البحث عن الذات.. اسمعينى يا جينيا.. عودى إلى الأرض.. أرض الواقع.

كالعادة انقلبت لهجة سفينتكا إلى المرح.

- مثلا.. هل ترغبين فى تغيير مدفأتك لتعينك على هذا البرد القارس؟ أمامك أسبوع كامل، بعده سيعود زوجك ليجد مفاجأتك فى انتظاره. ما رأيك فى هذه الفكرة؟

- رائعة.. لكن أين سأبحث عن هؤلاء العمال؟

ثم إننى لا أحب أن يطأ بيتى أناس غرباء.

انفجرت الكلمات فى فم سفيتا: قبلينى بسرعة! قبلينى بسرعة!

لم تستطع جينيا إسكات ضحكتها: آآآه.. الويسكى يرفرف بك الآن فوق حافة الذروة.. لا ينقصنا إلا أن نتبادل القبلات علنا لتكتمل نشوتنا..

- طلبك عندى.. عامل ماهر! سبق له العمل عند جارتى وأثبت كفاءة. كان فى الماضى عسكريا، مع تراكم بعض المشاكل لجأ إلى الأعمال اليدوية لزيادة دخله. إذا وافقتِ سأرسله لكِ على الفور، صباحًا أو فى أثناء النهار، أوكى؟

- أوكى..؟؟!

- رجل المدفأة، هيييه.. أرسله؟

- رجل المدفأة؟! قوة كلماتك تؤكد أنك تثقين به فعلا. ربما تكون وجهة نظرك صحيحة. أوكى.. أرسليه.

دفعت السيدتان الحساب وغادرتا النادى إلى الخارج.

ابتلعت جينكا نفسا عميقا..

- أخيرا.. هواء منعش يعيدنا إلى أنفسنا بعد هذا المكان المعبأ بالغازات الخانقة! فيضان الأوكسجين هنا يكاد يطيح بى.

دارت سفيتكا حول نفسها وفتحت أحضانها فى الهواء وصرخت..

- أيها الناس.. ساعدونى.. أعيدونى للحياة مرة أخرى.

ضحكة عابثة تقافزت على وجه جينيا.

- سفيتكا.. كفاكِ شقاوة.. المسألة بسيطة.. تعالى إلى سيارتى وأمام فوهة الشكمان بالضبط توقفى.. سيعيدك العادم إلى وعيك فى الحال..

اقترب منهمـــا ســـائق عجـــوز متوســـط القامـــة تخطـــى الخمسين بقليل، فتح لهما بـــاب الســـيارة بـــاحترام وانطلـــق إلـــى البيت.

فجأة صـــاحت ســـفيتلانا: جينكـــا! نســـيت تمامـــا! لـــن يناسبك عامل المدفأة هذا بتاتا! كل الخطط ستتغير!

تخبطت الكلمات على لسان جينكا..

– ولماذا لا يناسبنى هذا بالذات؟!

فى هذه اللحظة بالتحديد كانت جينيا قـــد تشـــربت تمامًـــا فكرة حضور عامل إلى المنزل فى الغد ليعيـــد للمـــدفأة عافيتهـــا، ورأت نفسها تجلس إلى جانب النيران يهـــب عليهـــا الـــدفء فـــى هذه الليـــالى البـــاردة، تســـتمتع بالفرجـــة علـــى ألســـنة اللهـــب المتقطعة..

لماذا هذا التغيير المفاجىء؟

– لأنه..

غادرت سفيتلانا السيارة قبل توضيح الموقف.

ثم توقفت في وسط الطريق لتضع النقاط على الحروف.

- لأنه ليس زنجيا مخلَّطا..

جرس الباب تكفَّل بطرد النوم من عينيها..

- من الذى يجرؤ على الحضور فى هذه الساعة المبكرة؟

قرَّبت الساعة من عينيها..

- ياه.. الساعة الثانية.. كيف استطاعت النوم كل هذا الوقت؟

إلحاح جرس الباب لا ييأس..

- آه.. يبدو أنه العامل الذى أرسلته سفيتكا..

ضرورى جدا أن أفتح له الباب أم أنه لا داعى لذلك من أصله؟

نهضت جينيا ووقفت بجوار الباب..

- وما المانع أن تفتح؟؟ فهى ترغب فى تغيير أى شىء فى حياتها. ما الذى يمكن أن يحدث أكثر من ذلك؟

بحزم صريح شقت طريقها نحو الباب وفتحت. على عتبة الباب أطل وجه رجل طويل القامة قوى البنيان يكبرها ببضع سنوات، أو هكذا تصورت..

وجه عبوس أكثر من اللازم، أم ربما تكون هذه ملامح الجدية؟ تعجبت هى بينها وبين نفسها.. وما الذى يغرى الابتسامة لتتسلل إلى وجهه؟؟ لقد جاء فى موعد عمل وليس فى موعد غرام!

- بدأت هى أول أسئلتها برقة: هل أنت رجل المدفأة؟

وبدأ هو أول إجاباته بصوت مكتوم: عفوا..

- أقول هل أنت متخصص فى إصلاح المدفأة؟

- نعم..

- هل تعمل لحسابك الخاص؟

- بجدية يشوبها بعض التجهم: عامل أجير.

- تفضل.

فتحت له الباب..

هذه هى المدفأة.

- نظر إليها العامل لحظة: نعم.. هذه هى.. ما المشكلة؟

- أريدها أن تقوم بواجبها كمدفأة حقيقية.

ولدت ابتسامة على وجه جينكا لم تستطع إخمادها..

- أين عثرت سفينتكا على هذا الكائن العجيب؟!

يخيل إلىَّ أنه طرزان هبط لتوه من فوق أغصان الشجرة..

- هل ستتولون إحضار قوالب الطوب؟

- أية قوالب..؟!

- إذن هى مهمتى أنا.

بدأت جينيا تهدأ من داخلها عندما استشعرت أنه بدأ يتفهم الأمر أخيرا.

- كم ستأخذ مقابل هذا العمل؟

- يجب أولاً أن أصعد فوق سطح البيت، أين الباب الخلفى؟

- فوق السطح؟! آه.. نعم.. من هنا لو سمحت.

لحظات ذهابه وعودته كانت كفيلة ليتسرب إليها إحساس بالندم على ما فعلت بنفسها.. هل تتراجع وترفض الأمر برمته؟ لكن المدفأة هى المصدر الوحيد للنار الحية فى البيت.

شوّش على تفكيرها دون قصد عندما فاجأها بسؤاله..

- قطعتان؟

- أية قطعتين؟؟

- أقصد ألفى دولار.. موافقة؟

- آه.. دولارات.. لكن.. أوكى.

- بأى منطق ترفض وهى لا تملك أى خبرة فى تكلفة هذا العمل؟

توقف عند الباب ليبلغها: سأحضر غدا.

رددت كلماته بتوتر: ستحضر..

أعاد عليها قراره مصحوبًا بمسحة من الشفقة: سأحضر غدًا.. إليكِ.. هنا فى بيتك.. الساعة الثامنة.

- أوكى.. أوكى.. بالتأكيد.. فقط كنت أريد أن أقول.. لا أوافق.. لا.

- لماذا هاجمتها هذه النوبة من التهتهة؟

- هذا موعد مبكر جدا.. تعال فيما بعد.. فى الثانية عشرة.. اتفقنا؟

- قلت فى الثامنة.. افتحى لى الباب واذهبى لاستكمال نومك كما يحلو لك.

- كيف أستكمل نومى ومطلوب منى أعمال كثيرة؟

- فهمت.. إلى الغد.

- الغد.. لكن.. من فضلك.. هل ستتراكم مخلّفات كثيرة؟

- نعم.. لكن لا تقلقى.. سأتولى تنظيف كل شىء.

- هل يمكنك ذلك؟

- طبعا.. والآن سأنصرف.

- من فضلك.. اشرح لى ما هى مهمتك هنا بالضبط؟

- شىء غريب.. هل أنتِ من فصيلة أطفال الأنابيب، أم أنك لا تفقهين شيئًا فى اللغة الروسية؟!! قلت لك سأنفذ مهمتى.. منحتك كلمة شرف وهذا يكفى..

- أنت.. كيف تتجرأ..

فرت الكلمات من بين شفتيها وقاربت على الاختناق من فرط الاستياء والغضب.

أنهى الرجل الجدل الدائر: إلى الغد..

وصفع الباب خلفه..

- أمر غريب.. ما كل هذه الوقاحة التى يتمتع بها هذا العامل؟ لم تستوعب هى لماذا ضربت مقابلتها معه أوصال جسدها بالشلل التام والتيبس الكلى ولم تعد لحالتها الطبيعية أبدا.. انكفأت رأس جينيا على نفسها تقلِّب الأفكار فى كل اتجاه.. زمن طويل اعتادت هى أن يكون الحظ السعيد من أقرب أصدقائها. منذ أيامها الأولى فى هذه الدنيا وهى تشعر أنها محبوبة، مرغوب فيها، تتمتع بالحماية المطمئنة

باستمرار. صحبة لا مثيل لها من الرجال يحتضنونها طوال حياتها. مع بدايات تفتح زهرة شبابها وزملاؤها وأصدقاؤها لا حيلة لهم أمام إعجابهم بها. وتمر الأيام ليحل الزوج محلهم. جميعا كانوا أذكياء، شرفاء، أقوياء. معهم ينزرع داخلها إحساس جارف أنها أنثى متكاملة. كان الجميع ينتمون إلى عالمها الذى اعتادته. انقضت السنوات وسلك كل منهم مسلكًا مختلفًا فى الحياة.. أحيانًا تقابلهم هنا أو هناك، يتقابلون ليفترقوا بعد لحظات، ومع ذلك فهى لا تنكر أنهم يمثلون علامة فارقة فى حياتها. أما هؤلاء التعساء الذين وقعوا فى غرامها وسلبتهم أرواحهم هكذا ببساطة تحت تأثيرها العجيب، فقد أصبحت بصمة غائرة فى حياتهم. تفهم هى جيدًا أنهم حولها وقريبون منها. تطلب أحدهم بالتليفون وتعلن له ببساطة.. "أحتاج مساعدتك"، بالتأكيد سيتخلصون من أعمالهم ويلبون نداءها فى لمح البصر. لكن الأهم من ذلك أنها هى أيضًا لم تتخل عنهم فى لحظاتهم الصعبة أبدا. وإذا اصطدمت حياة أحد أصدقائها بأزمات من النوع الخطير، مثلما حدث بالفعل مع الجميع كانت لا تدخر أى جهد فى مساعدتهم بكل ما تملك.

أطرقت بكل حواسها تواصل تفكيرها العميق مع نفسها.. ربما تكون وجهة نظر هذا العامل صحيحة. فعلا.. عشت حياتى بين جدران أنبوبة اختبار، تغطس برأسها حتى الثمالة فى محلول فسيولوجى اسمه "الحب". لهذا اعتدت مواجهة الصعوبات فى حياتى بين الحين والآخر.

انتقلت جينيا إلى الحجرة الصغيرة التى أطلقت عليها اسم "الحجرة الصينية"، بسبب تصميمها الذى ينهل من مذاق الشرق. ومع ذلك ليس بالضرورة خضوع كل أثاث وإكسسوار الحجرة للطراز الصينى. بدّلت ملابسها بأخرى مريحة فضفاضة وراحت تهيئ نفسها للحظة تأمل. أشعلت فتيل الشموع، عزلت التليفون عن الحياة وأسدلت الستار على فتحات الشباك. ارتشفت رشفة ماء صغيرة. لا ينبغى أن يرتبك برنامجها الخاص عند إحساسها بالجوع. يوميا تحرص هى على تنفيذ طقوسها الخاصة. الارتحال عبر أعماق غيبية ليتعارفا معًا، الاستقرار على أسلوب بعينه لاستيعاب الحياة من خلال التلامس مع الأشياء. مرت لحظات واستولى عليها شعور داخلى بالسكينة.

اقشعرت خطوط لهيب الشموع الساخنة من فرط البرودة، سخونة خفيفة لامست أطرافها كأنها تيار كهربائى فى بداية مرحلة النضوج. شعرت أن جسدها بدأ يتمرد على مظهره المعتاد وعلى أبعاده التقليدية، وبدا أصغر مما كان تمامًا، مثله مثل كل ما يحيط بها ويشجعها على الانعزال عنه. لكن فجأة زلزلها اضطراب روحى مدمر، مصحوب بهياج لا حدود له عندما استشعرت مدى توغل إحساسها الداخلى بعدم التوافق، بالتعاسة، بالحرمان من السعادة. نتيجة طبيعية جدا.. كل هذا بسبب هذه الأفكار وتلك الأحاسيس التى تفزع لحظات تأملها حتى كادت تكتم أنفاسها. تسلطت عليها رغبة فى البكاء. أمطرت الدموع خديها. ومع ذلك انساب داخلها شعور بالراحة.

لم تنتبه ولم يكن متاحًا لها رؤية النظارة المعظمة المسلطة عليها من المنزل المجاور. لم تكن تدرى أنها هدف إستراتيجى مهم فى حسابات شخص ما..

فى صباح اليوم التالى استقبلت العامل وقد اتخذت كافة الاحتياطات التامة من الأسلحة والذخيرة. ثلاثون دقيقة أنفقتها فى عمل ماكياج خفيف. استدعت خصلات شعرها إلى

أعلى بدبوس أنيق، وارتدت فستانا طويلا مخصصا للتجول المنزلى فقط.

بجفاء أشارت للعامل بالدخول، واجتازته بدون كلمة واحدة إلى الشرفة. على غير العادة الشمس تملأ السماء.

ولا صوت لأى رياح قادمة فى الطريق، فاتخذت قرارها بتناول إفطارها هنا على هذه المنضدة الصغيرة الجميلة. اصطف أمامها فنجان قهوة ومكعبات صغيرة من الجبن. ليست من هواة الجمع بين الخبز والجبن. فى السنوات الأخيرة انتظمت حياتها طبقا لتعليمات مسيو "مونتينياك" أستاذ الريجيم الفرنسى الشهير. المصادفة البحتة وحدها وضعته فى دائرة معرفتها. فى أحد الأيام كانت تتصفح بعض الكتب المعروضة على الرصيف قرب "دار الكتب"، وفجأة وقع بصرها على كتاب رفيع اسمه "تناولوا ما يحلو لكم وحافظوا على قوامكم".

استفسرت من البائع السمين: ماذا يعنى ذلك؟ تأكل الهوت دوج بشهية وتفقد عدة كيلوجرامات!! هل يوجد مجانين يصدقون هذا الهراء؟

- هذه هى النسخة الأخيرة المتبقية، عليها تخفيض خاص، فالغلاف ممزق قليلاً كما ترين.

- لا يهم.. سآخذها..

أعطته النقود.

همس البائع لنفسه: ستأخذينها..؟!!

يبدو أن دهشته اقترنت بتذكره وصف " مجانين " الذى أطلقته السيدة على كل من يشترى الكتاب..

انفرجت أساريرها قليلا: لأنه مخفض فقط.. هذه فرصة لا تفوتنى.

انكبت على قراءة صفحات هذا الكتاب فوجدته شيقًا للغاية وقررت أن تجرب بنفسها. فاقت النتائج كل توقعاتها بمراحل.. همّت الدمعة بالفرار من عينى زوجها وهو يرى كيف تملأ طبقها بالمكرونة وتزينه بصلصة من صنع يديها مكونة من الطماطم والخضرة والثوم. أقلعت تمامًا عن كل طرق الريجيم المنتشرة حسب الموضة. فقد افترش لون الورد وجنتيها ونقص وزنها كثيرا. ومن فرط إعجاب زوجها بهذه النتيجة الإعجازية، وعدها بتعليق نصائح الأستاذ

مونتينياك على جدران بيتهما فى الريف. كان هذا النجاح المبهر دافعًا قويا لشغف صديقاتها بالطريقة الفرنسية. لكن القليلات فقط هن اللائى تحملن بصبر هذا النظام إلى نهايته.

عكّرت الضوضاء الصادرة من حجرة الصالون نهر أفكارها، هل يستمر الأمر كذلك لمدة أسبوع؟! ممكن طبعًا تغادر البيت إلى أى مكان أطول فترة ممكنة فى ساعات عمله.. لكن كيف تترك العامل طوال اليوم فى بيتها وحده؟ هذا ليس حلا عمليا. عليها أن تفكر فى شىء آخر. لكن ما هو؟؟ يستحيل الشعور بالراحة أبدًا طالما هناك غريب فى البيت لأنها من عشاق الهدوء. تركت جينيا المقعد واقتربت من الباب. لم تر من العامل الواقف إلا ظهره. كان يهوى على المدفأة بشاكوش ضخم. هذه المدفأة من بقايا مالك البيت السابق، لم تتكيف هى مع وجودها منذ اليوم الأول مطلقا.

مرة بعد مرة حاولت التخلص منها، لكن زوجها كان يعارض بقوة. سحق العامل المدفأة بشاكوشه مرة أخرى، تناثرت قطرات العرق من جبينه. خلع فانلته وألقاها جانبا.

"له جسد جميل". أيقظت هذه الملاحظة شيئا من التوتر داخلها.. كتفاه.. يداه.. كيف تبدو زوجته يا ترى؟ أغلب الظن شابة، لطيفة، ربة منزل وحنونة.

فجأة أدار العامل وجهه نحوها. يبدو أنه أحس بوجودها.

ركز العامل عينيه عليها: نسيت أن أخبرك أننى سأتغيب فى المساء.. من السادسة إلى السابعة ثم أعود.

- هل يفتقدك أطفالك الصغار؟

- نعم.

- فليكن إذا كان ذلك ضروريا.. المهم الانتهاء من العمل فى الموعد المحدد.

عادت إلى الشرفة وأغلقت الباب خلفها وتقدمت ناحية السور. ناغش الهواء فستانها الخفيف وصنع منه جناحين. فتحت ذراعيها حتى النهاية.. أغمضت عينيها...

الآن تحلق هى فوق المدينة.. تماما مثل "مارجريتا" بطلة رواية "بولجاكوف"(١٢).

وحدها حرة لا يراها أحد.. هذه هى الوصفة السحرية لكل من يهوى الطيران فوق الهموم.

فى الليل انهمكت مع تماثيليها وهى جالسة خلف المكتب. حتى جاءها العامل واستأذنها.

- سأنصرف.

مسَّها قليل من التوتر: آه.. نعم.

- الأطفال الصغار.

دون أن تلتفت إليه: نعم.. تفضل.

- انتظرينى.. سأعود بسرعة.

وأغلق الباب خلفه..

---

(١٢) بولجاكوف ميخائيل أفاناسيفتش (١٨٩١ - ١٩٤٠) مؤلف روسى منع تداول رواياته لفترة طويلة فى الاتحاد السوفييتى أما روايته "الأستاذ ومارجريتا/Master and Margerita" فهى واحدة من رواياته المشهورة، وكانت بطلتها مارجريتا تسافر كثيرا ومولعة بركوب الطائرات.

- أنتظر! كم أنت وقح؟!!

لماذا انتفضت دقات قلبها تتزايد بشدة؟ غالبًا بسبب الجو الخانق. أطلت من الشرفة، عامل المدفأة يبتعد عن بيتها مسرعا. لمح ساعته فزاد من إيقاع خطواته. لحظتها تملَّكها فزع داخلى عندما أدركت أنها ستنتظره فعلا. شىء جميل.. أحست أن ظهوره فى حياتها سيغير شيئًا ما. بالنسبة لها هو إنسان من كوكب آخر..

أخرجها رنين التليفون من حالة التفكير. أعلن الشريط المركَّب على جهاز إظهار رقم الطالب النتيجة التالية "الرقم غير معروف.. الرقم غير معروف..". مزعج جدا هذا التليفون! عشر مرات يشكو إليها فى اليوم الواحد من عدم قدرته على تحديد رقم الطالب. رفعت السماعة وأدارت رقم سفيتا. أمر غريب.. هى أيضا تمتلك جهاز إظهار رقم الطالب. هل هذا نوع من الاتحاد أم التوارد أم ماذا؟ دنت جينيا من المنضدة وأمسكت بواحدة من صورها التى أعجبتها. بعد تفكير استقرت على وضعها أعلى الرف فى ركن الصالون. مكانها هناك. اتجهت عيناها رغما عنها نحو الساعة. كيف حال زوجى يا ترى؟ اتصلوا بها اليوم من

الوزارة وأبلغوها أنه غارق فى مشاغله، لكنه حمّلهم رسالة إليها تبلغها أشواقه وأنه على وصول. أما هى فمازال أمامها أعمال كثيرة.

أيام طويلة مرت ومازال عامل المدفأة يمارس مهمته بانتظام. يخرجان من صمت إلى صمت. لكن أحيانا كانا يتبادلان جملتين أو ثلاث. فى كل مرة تصدر له جينيا وجها متعجرفا ولهجة مثلجة، وبالتالى كان يجيبها هو الآخر بلامبالاة.

أما اليوم فقد تسبب فى إفساد شهيتها. فبينما كانت تأكل شرائح الدجاج التى تحبها حسب موعد وجبة الغذاء لم تشعر به وهو ينسل إلى المطبخ.

- أريد كوبًا من الماء.

لم ينتظر ردها وتوجه ناحية الحوض مباشرة ملطخا بحذائه المحشو بالتراب مساحة كبيرة من الأرضية المصنوعة من المرمر.

- ألم يكن ممكنا أن تشرب من الحمّام؟

دست قطعة دجاج في فمها وهي لا تتخيل كيف ستذوب بين شفتيها؟

- أنا لا أشرب من المرحاض.

ثم ملأ كوبًا بالماء وانصرف خارجا.

يبدو أن أسلوب جينيا في التفكير أوقعها في ورطة مع نفسها.. فبعد هذه الكلمات ارتسمت في ذهنها صورة عامل المدفأة أمام المرحاض ممسكًا بالكوب و.. قذفت الشوكة من يدها. لا.. لا يمكن تصور هذا المنظر. الحقيقة أنها تشعر منذ ليلة أمس أن شيئًا ما بداخلها يفيق من غفوته.. شيء إنساني. في المساء وبعد عودته من مشوار "أطفاله الصغار"، انجذبت عيناه فورا ناحية صورتها المرتكنة على الرف. صورتها بفستان سهرة ووجه صبوح. كانت جينيا تراقبه من المطبخ. اقترب عامل المدفأة. تأمل صورتها طويلاً ثم أمسكها بين يديه.

دخلت حجرة النوم واختارت كتابا للمؤلف "هنرى هيس" [١٣]. من أحد الأركان، تمددت هى بعدما أحاطت جسدها ببطانية مصنوعة من الوبر.

لم يكن هناك أحد فى الحجرة غير المؤلف توجه إليه طلبها..

- عزيزى.. احكِ لى عن أى شىء لطيف قبل النوم، أخبرنى عما أحتاج إليه الآن أكثر من أى شىء آخر.

بالحظ فتحت الكتاب على أى صفحة وقرأت العنوان "النزوة التى تدفعك للطيران هى أكثر ثروات الإنسانية قيمة"، وتابعت القراءة.. "هذه النزوة هى الإحساس بالارتباط مع منابع القوة. لكن فى الغد القريب لن تظل الإنسانية على حالها. وهذا الأمر بصفة خاصة خطير جدا، فغالبية الناس يمتنعون عن الطيران تمامًا وتفضل السير على الرصيف طبقًا للقوانين الطبيعية. لكنك لست واحدًا من هؤلاء. فستواصل أنت طيرانك إلى الأبد كأى إنسان عنيد". توافق

---

(١٣) هنرى هيس (١٨٧٧ - ١٩٦٢) من أشهر الروائيين الألمان، وقد عاش حياته فى سويسرا.

غريب حقق الهدف مباشرة. في هذه اللحظة بالذات لمعت عينا جينيا وهي تتذكر العالم النفسي الشهير "يونج" رغما عنها. شكرته في سرِّها وأغلقت صفحات الكتاب، وضعته بجانبها وأطفأت الأنوار.

شيء ما وقع من يد عامل المدفأة..

- من وراء الباب همس مترددًا بين الارتفاع والانخفاض: هل أيقظتك؟

بادلته النبرة نفسها: لا أبدا.

- يمكنني الانصراف اليوم مبكرًا إذا كنت قد ضايقتك.

- لم تضايقني.. استمر في عملك.

شي ما ولد لتوه في هذه الوشوشة المتبادلة خلف الباب بين شخصين ناضجين. شيء ما ربما يُكتب له عمر طويل..

لم يكن هناك مكان في الحجرة يخلو من الضيوف. الضحكات ترن هنا وهناك. فشلت كل حيل جينيا التي استغرقت نصف ساعة فقط لتحضر إلى هنا، في اصطياد

لحظة واحدة تهنئ فيها زميلة الدراسة بعيد ميلادها. أخيرًا لم تجد حلا إلا القبض عليها من كُم فستانها فى أثناء مرورها سريعًا بجانبها.

- مدام.. تعطَّفى على صديقتك القديمة بدقيقة واحدة.

- جينكا.. حبيبتى.. فرصة أخرى، هذه قبلتى، اليوم مزدحم بالبشر، وأنا تعبت من القبلات. ما أجمل فستانك. أنا لا أجرؤ على التعامل مع هذه الملابس. فمؤخرتى حجمها كبير.

ضربت الصديقة مؤخرة نفسها بيدها فى الطريق..

- وأنا جهولة فى سلوكيات المجتمعات الأرستقراطية. لم أتعلمها بعد. لكننا مازلنا فى ريعان الشباب وأمامنا الكثير نتعلمه.

منذ خمس سنوات أصابتها زميلة دراستها الرياضية المرحة النشيطة بالحزن، عندما أخبرتها بزواجها من أحد رجال السياسة البارزين الذين ينتظرهم مستقبل باهر. نادرًا ما قابلتها جينيا بعد زفافها، فقط كانتا تكتفيان بالحديث تليفونيا. فدائما صديقتها منشغلة للغاية، لأنه بعد وقت قصير

أصبح زوجها بالفعل واحدًا من رجال الحكومة. إنسان ذكى لا يعبأ بالظهور فى المجتمعات كثيرًا، لكنه يقوم بكل مسئولياته بدقة. ثم اتضحت الصورة أكثر بحرص زوجته على المشاركة فى بناء هذا المستقبل، وانتهزت كل الفرص المتاحة للاستمتاع بحياتها. اعتادت السفر إلى الخارج ووازنت بين شراء الكثير من قطع الأثاث والنجف وبين تعمير دولاب ملابسها بالكامل.

لم يكن لدى جينكا أدنى رغبة فى الذهاب إلى الحفل اليوم، لولا رغبتها فى مد يد العون لصديقتها فى لحظات عمرها الحرجة، فقد كان عيد ميلادها الأربعين.

- أسرَّت لها صديقتها: طبعًا سقط من ذاكرتى كصاحبة الحفل أنه عيد ميلادى الأربعين، على أى حال فهو أفضل من الاحتفال بمرور أربعين يوما على وفاتى.. فقد أصبحت عجوزًا..

وتلقت جينكا ضربة صديقتها على كتفها.

أخرجت جينيا من حقيبتها علبة، ومن العلبة أخرجت زجاجة من الكريستال وقدمتها لصاحبة الحفل..

- هذه لك.. من الشرق.

- إكسير الحب؟!

قرَّبت الزجاجة من الضوء لتفحصها جيدا.

- نعم.. ثلاث قطرات فقط قبل النوم.

استفسرت صاحبة السهرة بدلال: على الريق...؟

- على الريق؟؟!!

فهمت جينيا اللعبة ودخلتها..

- تقصدين على الجسم..

- جسمى أنا؟

- فى حالة ظهور جسم آخر يمكن أن ينال هو الآخر من الحب جانبا.. من أين واتتك هذه الشجاعة؟! أى جسم "غريب" يتجرأ على المنافسة فى وجود زوج مثل زوجك؟

- ممكن.. كل شيء ممكن.. المهم أن يكون الجسم "الغريب" جسمى أنا ولا أحد غيرى.. نعود إلى الجد.. هل هو زيت أثير؟

- نعم.. نعم.. مستخلص من خمس وعشرين زهرة من دلتا نهر النيل. هل جربت شيئًا مشابهًا له من قبل؟

- ومن أين لى الحصول على مثل هذه الأشياء. فطموحى لم يتعد أكثر من استخدام زيت عباد الشمس على الموقد..

وجلجلت ضحكتها بصوت مسموع.

استردت جينيا الزجاجة من يدها..

- علمنى أحد مصممى الأزياء الفرنسيين طريقة استعمالها. انظرى.. نقطتان فقط على الأصابع وامسحى هنا..

ملَّست جينكا بيدها على المنطقة الداخلية من فخذها ببطء.

فهذه أكثر الأماكن سخونة..

لاحظت جينيا نظرة نهمة مصدرها عينا رجل يقف بالقرب منهما.

- ثم يمكنك أن تدهنى هنا.. وهنا..

مرت بأصابعها على الرقبة والثديين والكتفين..

- هيييييه.. توقفى.. ارحمى المدعوين حولنا.. فبالتأكيد لن يستطع أحدهم أن يحتمل أكثر من ذلك. سأنصرف، اذهبى أنتِ أيضًا وابحثى عن جسم.. للتجربة..

فى لحظة واحدة ذابت الصديقة بين الزحام.

اقترب من جينيا الرجل نفسه الذى لم يرفع عينيه من عليها.

- ترقصين؟

- هذا يتوقف على الطرف الآخر، مع مَن؟؟

- معى أنا مثلا.

- لا.

- لماذا؟ اسمحى لى أن أعرف السبب.

- لا أحب الاقتراب من رجال طموحين أكثر من اللازم.

- وهل تعتقدين أننى طموح أكثر من اللازم؟

- أنا لا أجيد الرقص.. فأنا أفضل أن أقود الرقصة وهذا لا يعجب الرجال الطموحين. فهم لا يرضون بديلاً عن القيادة، حتى لو كان ذلك مجرد وهم فى رءوسهم.

- وهل تفضلين دور القيادة عند ممارسة الجنس أيضا..؟

ابتلعت جينيا جرعة من الشمبانيا وهى تخاطب نفسها: يا له من وقح .

وأجابته بسخرية: هذا يتوقف على الطرف الآخر.. نعم.. أنا.. أحب القيادة، ولكن أحيانا.. بل نادرًا ما أرفع الراية البيضاء وأستسلم.

بدون أدنى مناسبة قفز عامل المدفأة فوق مسرح خيالها وثبت بجانبها. يقترب منها.. يتحسس وجهها بيده. يقبّل يدها، كتفيها ويهبط بحمالة فستانها إلى أسفل..

اقترب الرجل منها متخطيا كل الخطوط الحمراء.

- هل تعشقين قوة الرجال الوقحين خاصة عندما يقذفون بسفالاتهم فى كل اتجاه؟ هل تثيرك العبارات الصفيقة؟؟

- أنا لا أفهمك. أعتقد أنك أخطأت...

- بل تفهمين كل شيء. شهوة شخصين بالغين.

ألا تكفي من وجهة نظرك؟

وضغط على يدها.

- لم أقابل امرأة مثلك من قبل.

خفضت جينيا صوتها وأوضحت: لا تشعل درجة حرارتك.. النساء حولنا من كل صنف.

- أنتِ مخطئة..

- الجنس اللطيف مزدحم بصنف المرأة المتميزة .

مرت إلى جانبيهما سيدة قصيرة القامة تلتصق الهالات السوداء بعينيها، نحيفة لكنها لا تمت لجسد الأنثى بصلة. شيعها الرجل بنظرة قرف صريحة.

- واضح.. صنف المرأة المتميزة.. النساء..النساء.. بتقدير المعنى الدقيق لهذه الكلمة، يمكننا أن نعدهن على أصابع اليد الواحدة. لكن.. يبدو أن عبارات الإعجاب أزعجتك.

همست جينكا لنفسها: عبارات الإعجاب.. أحيانا نتخلص منها بإلقائها في حقيبة تهتز بين أيدينا، وأحيانا.. نتشبث بها كما لو كانت هناك يد قوية لا تأذن لها بالسقوط.

لبرهة صغيرة خايلها كتف عامل المدفأة العارى ويداه..

- صدقيني.. يداى قويتان جدا.

فجأة انتفضت وأسرعت الخطا: يجب أن أنصرف.

- سأصحبك.. هل معكِ سيارة؟

- سأطلب سيارة تاكسى. عندى سائق لكن اليوم الأحد ولم أتوقع..

- سأوصلك. كيف..!

- يا روحى.. لا تقلق. نحن كما تعلم، كيف يقولونها، آباء هذه المدينة؟ بالتالى لا توجد مشكلة.

- هل..؟

- لا.. لا.. شكرا.

لحظات وكانت فى قلب الشارع. كان خاليا تماما كالصحراء. حمقاء، كم هى حمقاء! هل يتصور أحد ذلك؟ نعم.. يوم إجازة، لكن لماذا خجلت من استدعاء السائق؟؟

فجأة توقفت بجانبها سيارة ونزل منها الرجل الذى كان يحدثها بالداخل.

- هيا.. هل تتشجعين على ركوب سيارتى؟

لا تخافى. أنا الذى يجلس خلف عجلة القيادة ولا أستخدم سائقًا، خاصة فى أيام الإجازات.. فهم يدسون أنوفهم فى حياتنا الخاصة. فهمت الآن؟

- أوكى.

هكذا أعلنت موافقتها دون مقدمات.

ماذا يحدث لها؟!! لم تعد ابنة الثمانية عشر ربيعا..؟!!

أرجو أن نصل عند أول شارع " ستارى آربات ". من هناك سأستكمل طريقى إلى البيت وحدى.

- مستحيل.. عنوانك بالكامل وسأصحبك حتى باب البيت. فهذه معجزة لا تجود بها الأقدار كل يوم. إلى أين؟

أخبرته بعنوان بيتها. فى الطريق حاول أكثر من مرة أن يقول شيئا. كلما التفت إليها تأمره "انظر إلى الطريق"!

قرب نهايات الليل هجر السكان شوارع المدينة، فوصلا إلى البيت بسرعة. أسرع مما توقعت. أوقف الرجل السيارة وفجأة جذب مقعدها إلى الخلف وهبط كالصاعقة فوقها بجسده. خليط من عطر هوجوبوس مشتبك مع رائحة الثوم وبخار اللنشون المدخن ينفجر منه من كل جانب. دس يده تحت بلوزتها المغطاة بالجاكيت، نزع الحمالات وبدأ يقبل جينيا بشراهة. عبثًا حاولت هى التخلص من جسده بدفعه إلى مقعده، لكن محاولاتها كلها فشلت فشلاً ذريعا. ثم انقلب معها الأمر إلى ضحك متواصل.. طبعا.. لابد أن يحدث كل ما حدث بالضبط، فطبقًا للقاعدة.. كلهم صنف واحد. عادى جدا.. إذا لم تكونى من هواة المشاكل، فإياكِ والاختلاء مع رجل وحيد فى سيارة مهما حدث. واسترسلت هى فى ضحكاتها أعلى وأعلى.. فبدأ الرجل يضطرب..

سألها بنبرة انكسر فيها شىء: مالك؟

- أراجوز.. عندنا أراجوز مدهش.. بديع..

وانفتحت فى ضحك هستيرى.

تراجع وزن الجسد الجاثم فوقها. أراد الرجل أن يرى وجه هذا الأراجوز الذى أضحك رفيقته بهذا الشكل. بمنتهى العنف جذب مرآة الرؤية الخلفية ناحيته، فقفزت جينيا خارج السيارة. خطوتان بالعدد وشعرت بيدين تتلقفها. يدان قويتان. رفعت جينيا رأسها إلى أعلى و.. عرفت وجه عامل المدفأة.

- على مهلك.. على مهلك. انتهى الأمر. كل شىء على ما يرام.

سألها بصوت مكتوم وهو يتجه إلى السيارة:

- هل أتولى أمره؟

خطا العامل خطوة واحدة فقط ناحية السيارة.

أشارت جينيا برأسها: لا.. لا داعى لأن تضربه.

تدرك هى تماما أن الذنب ذنبها. يبدو أنها بالغت فى تقدير قوتها.

لم يتراجع عامل المدفأة عن موقفه.

لملمت بقايا صوتها وهى تسأله..

- ماذا أتى بك إلى هنا؟

- انتهيت من العمل ولم أجدك فى المنزل. كنت أريد تدخين سيجارة. فضَّلت الانتظار. ربما يحدث شىء. ولاحظت أنك تستعدين للخروج. هل أنتِ بخير؟

بصوت فقد كل قدرات المقاومة: نعم.. شكرا.. اتركنى.

- تحت أمرك.

مال عليها قليلا..

- والآن.. انظرى إلىَّ.

- لماذا؟

أحنت عينيها قليلا.

كررها بحدة: قلت لكِ انظرى إلىّ.. هل تبكين؟

بالفعل كانت دموعها تتساب فى صمت قاتل. أمر طبيعى بعد كل ما عانته منذ لحظات حتى لو لم تكن مذنبة.

- سأرافقك إلى الباب وأنصرف.. أوكى؟

أجابته وهى منهكة: أوكى.. بعدها تنصرف .

دخلا إلى المصعد. نكّست عينيها إلى أسفل وسيطرت عليها فكرة واحدة فقط لا غير. مجنونة.. امرأة مستهترة.. لم تكن تريد أن تتخلى يداه عنها. شىء فظيع..

توقف المصعد

- انتهى الأمر. شكرا. الباقى أعرفه وحدى. إلى الغد.

أخرجت مفتاح البيت..

- إلى الغد.

نظر فى الساعة وعدّل مسار كلماته..

- أقصد إلى اليوم. الساعة الآن الثالثة.

- نعم.. نعم.. أتمنى لك ليلة هادئة.

دفعت نفسها داخل بيتها وأضاءت مصباح المدخل. انهارت كل البقية الباقية من قواها. استندت إلى الباب وراحت تزحف على الأرض بين دموعها. لم يستوعب عقلها ما يحدث لها!! فهى امرأة بالغة متزوجة، وما تلقاه الآن لا يتناسب أبدًا مع مكانتها. لا أصدق كل هذا. فجأة استرقت السمع وعرفت كيف تخربش الفئران فى زاوية الباب من الخارج. آه.. طبعا. هذا ما كان ينقصنى بالضبط! مسحت دموعها وفتحت الباب بحذر. وجدت عامل المدفأة يفترش الأرض بجانب الباب مستندًا إلى الحائط. استقبلها بابتسامة وخربش بأصابعه فى الباب.

- إذًا هذا هو الفأر بلون عينيه الأزرق.. ادخل، لكن ستنام فى الصالون.

كانت الابتسامة مازالت متمسكة بوجه عامل المدفأة:

- يمكننى النوم هنا على السجادة.

دون جدال آخر عادت جينيا إلى الشقة وتركت الباب مفتوحا. لم تستسلم لمياه الدش كعادتها، بل أغلقت حجرة

نومها بالمفتاح وتكومت على السرير. فقد كانت جائعة للنوم بشكل مخيف.

قبل أن تفتح الشمس باب شروقها كانت هي تغط في النوم. فجأة زارتها فكرة وسوست لها في أذنها..

"لكن ابتسامة هذا العامل جميلة بالفعل".

في اللحظة نفسها خبأت رأسها في أحضان الوسادة وسمعت صوتا بداخلها.

- "أنا سعيدة جدا، جدا، جدا.."

توقفت لحظة. أشاحت بيدها والتعب يعتصرها. استدارت على جانبها الآخر ولبى النوم نداءها.

"الرقم غير معروف".. هذه هي العبارة الوحيدة التي يرددها جهاز إظهار رقم الطالب القبيح بلا حدود.

- أي جهاز هذا؟؟!

تنهدت جبينيا وفتحت عينيها..

- إذا لم تحدد الرقم فلتصمت إلى الأبد، أما إذا حددته فأبلغنا أنك أنجزت مهمتك.

صوت المطر ينهال خارج الشباك. السماء قاتمة. لم يكن لديها مزاج للنهوض. تمطت جينيا فى الفراش.. الصبح ينشر أصابعه على السماء. بالنسبة لها يعتبر الصباح من التوقيتات النادرة التى تتعرف عليها، خاصة بعدما اعتزلت منذ عامين الندم على عدم سماح زوجها لها بالعمل. فيما يخص تناغمها البيولوجى تنتمى هى لفصيلة البومة بوصفها من عشاق الليل. الاستيقاظ مبكرا بالنسبة لها آلام طبيعية حقيقية. بعد مناقشة رسالة الدكتوراه بقيت فى القسم نفسه تشتغل بالتدريس، هناك عملوا على راحتها بحجبها عن المحاضرات الصباحية تماما، باستثناء أيام الامتحانات التى تجبرها على الحضور فى الصباح المبكر يوميا.

مساكين تلاميذها، مساكين! مصيرهم كان معلقًا على لحظة دخولهم إلى القاعة، لأن السيدة جينيا تحدد تقدير الطالب مسبقًا بناء على مظهره الخارجى وطريقة تعامله وكيفية استعداده للإجابة.. أحيانًا تبذل هى كل ما بوسعها لإنقاذ فتاة نحيفة، صغيرة، شاحبة، فقط عندما تتخيلها تعيش فى شقة مشتركة مع عائلات أخرى، تهدهد طفلا رضيعا أنجبته من زوج سكير. وأحيانًا أخرى تتلذذ بتعذيب شاب

وسيم يجلس أمامها متفرغا لمنحها درجاته هو بعد تقييمها كأنثى، فتسارع هى بإخماد أنفاسه بأسئلتها الإضافية.

لم تكن تتعامل مع الجميع كامرأة، بل كأستاذة جامعية. يوما ما أدركت جينيا أنها لم تخلق لهذا العمل، وأفضت إلى زوجها بكل شكوكها فى هذه المسألة.

صرخ فى وجهها: فورا.. اتركى عملك فورًا، قبل أن تقضى على علماء الفيزياء فى بلادنا وعلى مهد الحضارة كلها. ثم أنتِ يا جينيا تملكين مواهب عديدة. لكِ مطلق الحرية فى عمل ما تحبين، ارسمى، استمتعى بخلق تماثيلك. تعلمى لغة ثالثة. الحمد لله أننى قادر على الإنفاق على عائلتنا.

ترددت جينيا حتى بينها وبين نفسها فى طرح اقتراحها..

- يمكننى الانتقال للعمل فى مركز الأبحاث.

ثارت ثائرة زوجها مرة أخرى: هذا يكفى.. يكفى!

وأخيرا باغتها زوجها بدافع مقنع وكاف جدا بالنسبة لها!

- فكرى فقط أنك لن تجبرى على الاستيقاظ فى الصباح الباكر.

هكذا أعلنت جينيا استسلامها التام.

وبذلك تم إنقاذ مستقبل العلم فى روسيا..

لماذا شعرت هى بهذا الضعف الموحش أمامه ليلة أمس؟ عندما جلست فى المطبخ لتتناول الإفطار فكرت فى دعوته للطعام لأنه حُرم بسببها من الإفطار. تقدمت من الباب.

- يمكننى أن أعمل لك ساندوتشا.

استمر عامل المدفأة فى عمله، فكررت سؤالها بصوت أعلى. لم يبد الرجل أى رد فعل، فصبت عليه غضبها.

- ماذا بك؟ هل أصابك الصمم؟

التفت إليها بهدوء: تصورت أنك تكلمين نفسك.

ردت له جينيا تهكمه بالقدر نفسه: إجابة منطقية..

سحبت نفسها إلى المطبخ.

وصلها صوته من الحجرة: ممكن نعمل ساندوتشا.

أجابته داخلها: أخيرا استوعب قصدى ولكن متأخرا بعض الشىء.. أما الآن فقد أصبت أنا بالصمم..

جاء إليها فى المطبخ: ممكن نعمل ساندوتشا؟؟

صدته جينيا بجفاء: رجعت فى كلامى.

رد لها تهكمها بالقدر نفسه: إجابة منطقية..

وسحب نفسه إلى الخارج.

وبخت نفسها: أنتِ مريضة يا يفجينيا! هناك إنسان سيموت من الجوع وأنتِ هنا تستعرضين طباعك السيئة..

تنهدت وقطعت قطعة خبز كبيرة، وملأتها بكمية وفيرة من الزبد. فكرت قليلاً وأضافت إليها شريحة جبن كبيرة. هذا يكفى. يستطيع أن يأكل الآن. أخذت علبة عصير ووضعتها مع غيرها فى صينية على منضدة صغيرة فى الصالون.. استغرقها العمل على الكمبيوتر طوال اليوم تقريبًا، حتى انتهت من ترجمة مقال إلى الفرنسية. ترجمة بطيئة الإيقاع بسبب ضعف تركيزها، ناهيك عن هذه الضوضاء القادمة من خلف الحائط، ومكالمات الأصدقاء

والمعارف التى لا تنقطع. فبمجرد معرفتهم خبر سفر زوجها فى مهمة، قرروا بدافع الواجب تحمُّل مسئولية الترفيه عنها. يوما ما فى أثناء سفر زوجها دعاها أحد أصدقائها القدامى لمنزله فى الريف، وهناك ستجد شلة لطيفة.. لكنها تراجعت..

لا داعى لذلك. لقد جربت الذهاب هناك مرة من قبل..

.. وتذكرت يوم ألح عليها صديقها..

- تعالى معنا.. لماذا غيرتِ رأيك؟ سنقابل شلة مهمة.. رسام وشاعر وصحفى وكاتب، فكرة اللقاء دعوة كل منهم لامرأة فى صحبته.

- ماذا يا عزيزى! هل تقترح علىَّ أن ألعب دور صديقتك؟ فى الساونا؟ مع رجال أغراب عراة؟! هل أصابتك حمى؟!!

- اسمعينى أولاً حتى النهاية.. هدف اللقاء الاستمتاع بحمَّام بخار، بعدها يشربون البيرة مع الجمبرى. والأهم من ذلك جهاز تسجيل وسط المائدة وكل منهم يحكى باختصار عن أى قصة مثيرة وقعت له فى حياته. كل شىء يتوقف

على موضوع السهرة. ثم نعلن عن الموضوع المختار في حضور الجميع. لا تقلقي. المجموعة كلها محترمة، لن يضايقك أحد. إلا إذا أردتِ أنت ذلك طبعا..

ثم أخذ يضحك من تلقاء نفسه..

– هل تفهمين الشرط جيدا.. لا ينبغي أن يحضر زوجان معا. ممنوع.. لا تنسى أننا نعرف بعضنا منذ سنوات ونتعامل معًا بإعجاب يصعب إخفاؤه، أليس كذلك؟ هل أنا مخطيء؟؟

تغيرت معالم وجهها فيما يشبه الابتسام..

– لا لست مخطئا.. لكن، هل تعلم.. يمكنني رغم ذلك اصطحاب زوجي معي، من باب الترفيه عن نفسه، ما رأيك؟

– قلت ممنوع اصط..

– لن نخبر أحدًا أنه زوجي.

وانتظرت الإجابة..

- تخيل معى.. سأحضر إلى هناك كما لو كنت رفيقتك، بعد نصف ساعة يحضر زوجى. ماذا ستقول له؟ ستقوم بتقديمنا جميعًا إلى بعضنا البعض. مثير جدا.. أليس كذلك؟ بهذا يمكننى أن أطمئن إلى حد ما. هيه.. ما رأيك؟ هل ندخل اللعبة معًا؟

- أنتِ تدهشيننى.. ألا توجد طريقة أخرى؟ كنت أشتاق لرؤيتك فعلا؟

- لا توجد طريقة أخرى، وطبعًا سأراك بكل سرور.

- اتفقنا..

- أوكى.. سأذهب.

حقيقة كانت ليلة رائعة. قدموا إليها زوجها، رمق كل منهما الآخر باهتمام. لكنهما لم يتعاملا معًا تقريبا لأن الزوج كان مشغولا أكثر من اللازم. فقد زاد عدد السيدات على عدد الرجال قليلا.. نصف الحاضرات من ممثلى الجنس اللطيف تدللن على زوجها بما يكفى. كان يداعبهن بسعادة وبشقاوة أيضا وهو يراقب جينكا وسط ضحكاته، بينما تفرغت هى

للثرثرة مع صديقها بنشوة، حتى إنها حاولت إغراقه فى حمَّام السباحة. أخيرا قررت أن تلعب على زوجها لعبة شقية صغيرة، وانتهزت فرصة سعادته البالغة ووجهه المشرق. تهامست سرا مع صديقها واقتربا من الشلة.

- أصدقائى.. نحن مضطران للانصراف.. فزوج جينيا غيور جدا وقد وعدته أن أعود بها إلى المنزل وأسلمها إليه شخصيا يدًا بيد.

لو تلقَّى الزوج هذه المعلومة وهو فى حمَّام السباحة، لغرق بالتأكيد من تأثير وقاحتها..

بدت السعادة على وجه جينيا: إلى اللقاء.. أتمنى أن تهنأوا بالراحة.

وانصرف الصديقان.. هكذا أخذت بثأرها من الزوج. عاد هو إلى البيت فى الثالثة صباحا. مثَّلت جينيا أنها نائمة. وضع زوجها قبلة على خدها بحنان.

اقترب من أذنها: أنت أفضل امرأة فى هذه الدنيا.

أدارت المسألة فى رأسها وتوصلت إلى نتيجة ساخرة..

"هذا يعنى أنك عقدت مقارنة..".

اكتفت بذلك ولم تنطق حرفًا واحدًا، وماذا يمكنها أن تقول فى هذا الموقف؟؟

"الرقم غير معروف".. "الرقم غير معروف".. "الرقم غير معروف".

لم تطق جينيا الصبر أكثر من ذلك..

- كفى حماقة. فليحضر بنفسه ويسمع جهازه هذا. أما أنا فقد اكتفيت من هذا الإعلان "الرقم غير معروف"..

رفعت جينيا التليفون بين يديها وبكل قوتها هوت به على الأرض. صرخ الجهاز مستغيثًا مرة واحدة فقط ثم لفظ أنفاسه الأخيرة وانكتم إلى الأبد.

- تمام..

رفعت يديها بانتصار

- ماذا حدث؟!!

دخل عامل المدفأة ورأى التليفون مسجى على الأرض.

- هزمت التليفون.

- هل تعانين من أى مشكلة؟

- لم يعد عندى أى مشكلة.

أكد مقولتها بسخرية: لاحظت ذلك بنفسى..

احتد صوتها قليلا: ليس عندى أى مشكلة. مستحيل أن يكون عندى مشكلة. لكنك لا تفهم ذلك.

استعذب العامل لهجته المتهكمة: وكيف لنا أن نفهم.. "فالحكيم لا يفقه فى العلم شيئا، ولا المتعلم يفقه فى الحكمة شيئا..".

انتبهت بدهشة: ماذا قلت!!

- ليست كلماتى.. هذه كلمات "داو دى تزى" (١٤)، مترجمة من اللغة الصينية القديمة.

- ماذا تفعل؟ هل تنام كل ليلة فى أحضان كتاب "فى عالم الفكر الحكيم"؟

---

(١٤) داودى تزى حكيم صينى عاش فى القرنين الثالث والرابع قبل الميلاد.

تخلى عن عبوسه بعض الشيء: هـل فرغـت مـن كـل تخميناتك؟

- شيء مثير! لن أتعجـب إذا تلـوت علـيَّ الآن أبياتًـا من الشعر!

بادلها دهشتها: شعر؟

- نعم شعر.. هو كما تعلم جمل في قالب منغَّم و..

- نعم.. يمكنني أن أتلو عليكِ أبياتًا من الشعر أيضا.

تقدم منها عامل المدفأة أكثر..

"عندما تمارس المرأة التركية الشيرازية

لعبة الحب

فأنا على أتم استعداد لأهديها

مدينتي سمرقند وبخارى

تقديرا لجمال حسنتها التي تنقش وجهها.." [١٥].

---

(١٥) قصيدة للشاعر الإيراني حافظ شيرازي (١٣٢٥ - ١٣٨٣)

استفاقت جينيا: اذهب.. اذهب.. أكمل عملك.

- كنت أظن أنه.. يمكننا أن نأكل شيئا.

- فى "المتروبول" مثلا؟!!

- ممكن..

راجع عامل المدفأة نفسه..

- أقصد هنا فى محل السندوتشات الذى ابتكرته من صنع يدى.

- الآن؟!!

بدأت هى ترسم أول خيوط اللعبة..

- بعد ثلاثين دقيقة من الآن.. هل ستلحقين بى؟

- ماذا تقول؟!

- كيف ستستعدين للقاء؟

- تقصد الملابس؟

انتابتها حالة من الخفة والمرح..

- يكفى أن تضعى أى ثياب جميلة.

- اتفقنا.. نلتقى عند هذه المائدة بعد ثلاثين دقيقة.

تركته ودخلت حجرة نومها.

صاحت من الداخل: أى نوع من السندوتشات تقدمون؟

أجابها عامل المدفأة بفخر: كل الأصناف التى تصلح ولا تصلح للسندوتشات!

موقف يستحق التسجيل فى الكلاسيكيات الخالدة خُلق لنتذكره إلى الأبد. ضحكت فى نفسها. منعت نفسها من الانزلاق فى دوامات التفكير بكل وسيلة. لأول مرة فى حياتها فقدت رغبتها فى البحث عن ذاتها كما تقول سفيتا. فليكن ما يكون. لأول مرة تعنى الكلمة عندها معنى واحدا فقط. كفاها بحثا عن مبررات أمام نفسها. اقتربت من الدولاب. ماذا عن الملابس؟

- هذا الفستان مناسب.

لكن لونه أسود، رسمى أكثر من اللازم. وهذا.. شفاف جدا، أما هذا..

- نعم.. هذا هو المطلوب.

أفرغت الشماعة من فستان أزرق له فتحة رفيعة فى منطقة الصدر.

- بالضبط.. مناسب جدا.

منحت الفرشاة الصغيرة حريتها التامة لتداعب وجهها عدة مرات وتتولى مهمة إصلاح ماكياجها. عادت إلى الصالون مرة أخرى فوجدت المائدة شبه جاهزة. السندوتشات المتراصة بعناية تفترش غلاف إحدى المجلات. خبز وقطعتان من الخيار الطازج، خبز وقطعة موز، خبز وسمك معلبات. إلى جوار السندويتشات وقفت زجاجة فودكا وكأسان.

صرخت جينكا: يا إلهى.. خيار، موز، سمك معلبات، و.. ما هذا؟؟ يا ربى.. معلبات سمك صغيرة رمادى غارق فى الزيت! لم أتذوق هذا الطعام منذ مائة عام. وليمة بمعنى الكلمة!

اعترفت لنفسها..

"بصراحة أنا محظوظة مع الرجال.. الأول علق لى فيونكة على قطعة هوت دوج، والثانى لم يترك صنفاً

لا يصلح للسندوتشات إلا وكافأني به".

- من أين أتيت بكل هذه الأكلات المغرية؟

مدت يدها بحرص وتناولت علبة سمك مفتوحة.

- أحضرتها معى.

- هذا يعنى أنك خططت لكل هذا مسبقا؟

بجدية متناهية: طبعا.. منذ وقعت عيناى عليك أدركت على الفور أنك تعيشين فى منزل فارغ كبير عليك، ويجب علىَّ إجراء عملية إنقاذ فورية.

أشارت إلى الجينز الذى يلبسه.

- وماذا عن ملابسك الجميلة؟

- لم ألحق.. سأستعد حالا..

تركها وعاد بعد دقائق وقد لف خصره بفوطة صغيرة مقسمة إلى مربعات.

بلغت ضحكات جينكا القمة: يا إلهى.. ما هذا؟

- تخيلى أنك فى أسكتلندا.. هيه ما رأيك فى المطبخ الشعبى الأسكتلندى هذا؟

- ياااااه

قطعت جينيا قطعة من الموز.

- لم يساورنى شك فى ذوقك مطلقا. تفضلى..

جلست فى مواجهة عامل المدفأة..

- شمبانيا؟!! هذه أفضل ما تمنيت.. أحضرتها من باريس رأسا فى آخر رحلاتى!

لكن عامل المدفأة سبقها وفتح زجاجة الفودكا..

- قليل منها فقط..

أبدا لم تكن جينيا تطيق الفودكا.. مزاجها النبيذ الأحمر. أحيانا تسمح لنفسها بتناول نوع أقوى، لكن النبيذ الأحمر هو دائمًا محطتها الأخيرة. لحظات تفكير قليلة واتخذت قرارها بشرب الفودكا. كل الناس يشربونها ويواصلون حياتهم ولا شيء يحدث لهم. شربا الفودكا معا ثم أمسكت جينكا بساندويتش.

فجأة تدحرجت نقطة زيت من الساندويتش داخل فتحة الفستان. مد عامل المدفأة يده ناحية رقبتها وبدون أن يلمس الفستان أوقف مسار نقطة الزيت وسحبها فى اتجاه دائرى على مهله تمامًا متجهًا إلى أسفل.. أسفل..

حدَّقت فيه بدهشة.

شىء ما برق فى عينيه دفعها للوقوف بعصبية وهبَّت نحو الشرفة. انحنت على الحاجز، ماذا يحدث لها؟؟ اقترب منها عامل المدفأة.

- هل بدر منى أى تصرف ضايقك؟

- بدأ الليل يتوغل فى السماء، ألم تمل كل هذا؟

- وأنتِ؟

- ثبَّت عينيه فى عينيها يتأملها وتجمدت نظراته فوق فتحة صدر الفستان.

- أنا؟

ساوت خصلات شعرها التى داعبتها نسمات الريح، وفجأة قفزت فوق الحاجز وجلست فوقه.

صرخ رغمًا عنه: ابتعدى!

- هل تعرف أننى أطير أيضا؟؟

مالت قليلاً إلى الوراء وفتحت ذراعيها إلى أبعد مدى.

- قلت لكِ ابتعدى!

قبض على كتفيها بثورة غضب. حاولت الفكاك منه لكنه جذبها إلى أسفل بالقوة فمزق فستانها.

- أنت.. هل أنت مجنون أم..؟؟!

- مجنون.

منحها قبلة.

مرة ومرات تلوّت جينيا بين يديه للتخلص منه، لكنها كلها محاولات آلية معتادة وأدركت لدهشتها أن ليس لديها أدنى رغبة فى المقاومة.. انتزعت رأسها إلى الخلف فأمطر عنقها بقبلاته. تنقلا فى الشرفة من مكان إلى مكان فيما يشبه رقصة غرام ليس لها مثيل..

حملها بين يديه وطار بها إلى غرفة النوم. للحظة ما تخيلت أن كل هذا يحدث لغيرها، وأنه حلم. طبعًا حلم. هذا الرجل الذى يقبلها بشراهة فى جسدها ويديها ويدللها حلم. قرص القمر الضخم حلم، هذه الهمسات المثيرة حلم.. طبعًا حلم. لكنها تريد أن يستمر قليلا.. يستمر.. ويستمر.. إلى ما لا نهاية.

تحت ضوء القمر لمعت عدسات نظارة معظمة فى المنزل المقابل ...

... لف حولها الغطاء وذهب إلى الصالون. تناول سيجارة وأشعلها.

توقف أمام التليفون الراقد على الأرض ورفعه ثم أوصله بالكهرباء. انشرخ غطاء الجهاز لكنه مازال حيا. لم يكد عامل المدفأة يعيد الحياة للتليفون حتى فاجأه برنين عال منذر بفض سكون الليل.

قرَّب العامل السماعة من أذنه واستمع صامتا..

- أوكى.. لكن ما الذى دعاك إلى تمزيق الفستان؟ نحن لم نتفق على ذلك..

ساعات طويلة رحلت وجينيا تجلس فى المطبخ حافية القدمين تلبس الجينز وبلوزة تطلقها خارج البنطلون، منشغلة بطلب رقم تليفون سفيتكا. لا أحد يجيب هناك..

دقات الساعة صوتها عال.. عال جدا.. وهذا الغراب الفظيع.. هذه هى المرة الثالثة التى يحط فيها فوق سور الشرفة ويحملق فيها بوقاحة وكأنه يسألها..

"ماذا تنتظرين؟!"

ردت جينيا سؤال عينيه بسؤال من عينيها..

"نعم.. نعم..!! ماذا تريد أنت؟"

أخيرًا جاءها صوت صديقتها خافتا.

- آلو.

- سفيتكا.. أين اختفيت؟ اتصلت بكِ كثيرا!!

أى جرَّاح تجميل؟ أخيرًا أقلعت أنا عن كل هذا! طبعًا، لم أعد أذهب إلى هناك.

اتجهت بسماعة التليفون إلى سور الشرفة.

- اسمعى.. العامل اختفى تماما من عندى. أى عامل؟! عاملك، بهذه السرعة نسيتِ؟؟ عندك رقم تليفونه؟ ولم تعطيه رقم تليفونى؟ أنا أيضا..

مع رنين جرس الباب أطاحت بالسماعة. هرولت فى الطرقة. تعثرت فى القادوم الملقى على الأرض ثم تحجرت فى مكانها. واستغرقت فى توبيخ نفسها لحظات..

- وماذا نسمِّى هذا أيضا.. سباق الحواجز؟! هيا أسرعى وافتحى الباب. تعلقى برقبته واذرفى الدموع؟؟!! أيتها الحمقاء. هل جننتِ أم ماذا؟ تماسكى. لم يحدث أنك انتظرته أبدا.. انتهينا. امسحى أنفك و.. إلى الأمام..

انتظرت الرنين الثانى لجرس الباب.

عامل المدفأة يقف على عتبة الباب.

- هذا أنت؟ صحيح؟!

فتحت عينيها أكثر من المعتاد وتطلَّعت إلى الساعة بطريقة مسرحية ورسمت ابتسامة باردة.

- ادخل.

- تأخرت أليس كذلك..؟ بحثت عن حبل في كل مكان لأشتريه ولم أجد، وأخيرا عثرت عليه بعد عناء.

لاحقته بسخريتها: حبل؟!

انتقلت إلى الصالون..

- هل قررت أن تشنق نفسك أم ماذا؟؟

أجابها بخشونة: لا.. بل قررت أن أنصرف عنك.

استلقت بظهرها إلى الخلف ورشقته بنظرة: تتصرف إلى أين؟

- إلى السطح.

- رددت جينيا بتوتر: السطح؟

- هيييه..

احتواها من الخلف.

- هل تحتاجين مدفأة بمدخنة أم بدون؟

- بمدخنة طبعا.

- هذا ما ظننته. والسطح عندكم ليس محاطا بسور، وأنا محتاج إلى حماية. أحتاجها بالفعل. لذلك فتشت عن حبل. المسألة بسيطة.

- كل شيء عندك بسيط.

لم تستطع التحكم في شفتيها المرتعشتين أكثر من ذلك.

- وأنا.. أنا قلقت عليك. لم أعرف أين أبحث عنك..

خبأت رأسها في جاكتته..

- أيتها السيدة لا تتطفلي على رجل في أثناء عمله.

- وبعد انتهاء العمل.. ممكن؟؟

- بعد العمل؟؟

جاهد نفسه ليتبسَّم..

- بعد العمل.. ممكن.

صعد عامل المدفأة إلى السطح ومعه الحبل وصندوق أدواته. اتجهت جينكا إلى الحمَّام وفتحت الدش. هدَّأت المياه الدافئة من انفعالها.

لم تعترف هى بجدوى اللوف أبدا ودائما تستبدله بجيل الاستحمام. وبعدما أزالته بدأت يداها تناوش رقبتها وكتفيها ثم صدرها. ولم تمنع ظهور ابتسامة خاطفة تسلقت وجهها وهى تتذكر ليلة أمس المجنونة..

دائما هى الأنثى التى يتهافت عليها الرجال..

وأى رجال! تمتلك هى القدرة على سحرهم دون أن تتكلف.

أى مجهود. أحيانا كانت تسحرهم رغما عنها وهى لا تدرى.

ثم تدرك نتيجة ما فعلت دون قصد. فى رأيها تنقسم النساء إلى قسمين..

نساء يختارهم الرجال، ونساء تختار الرجال.

لم يحدث يوما أنها قامت بعرض نفسها. تتفنن هى فى إخفاء روحها الساخنة وراء مظهرها البارد. لكنها دائما صاحبة الكلمة العليا فى الاختيار.

ذات مرة اعترف لها أحد الرجال: لم أتصورك يومًا لى أبدا. لقد خفت حتى من الاقتراب منك، إلا إذا أعطيتنى أنت إشارة.

بمنتهى الدهشة: أية إشارة؟!!

- تكفينى نظرتك. فهمت منها كل شىء، بالرغم من أننى لم أصدق نفسى.

ما الذى يحدث فى حياتها الآن؟ أشركت نفسها فى لعبة. لكنها لم تستوعب.. هل خسرت أم انتصرت؟ لقد أحبت وجودها فى قلب عامل المدفأة.

خرجت جينكا من الحمَّام ولفت نفسها فى بشكير طويل. بمجرد دخولها حجرة النوم انتقت من الدولاب فستانا. يومًا ما كان هذا الفستان ثوبها الأنيق المفضل، ومع ذلك لم ترغب فى هجره واحتفظت به للاستخدام المحدود فى البيت. لونه أزرق، خفيف، شفاف بقدر. فجأة ألحت عليها رغبة شديدة للرقص، أطلقت صوت الموسيقى عاليا وذابت داخلها بكل معانى الكلمة. حركاتها متأججة، متحمسة. رأسها يدور قليلا، ومع ذلك استمرت ترقص وترقص و..

.. ولم تلاحظ وجه عامل المدفأة الذى امتقع لونه من هول الرعب معلقًا فى حبل الأمان وقد خارت كل قواه تقريبا. حاول أرجحة جسده على أمل الوصول إلى الشباك.. أخيرًا نجحت المحاولة وفى كل مرة يتأرجح فيها، كان يصطدم بالشباك لعله يحطمه. أفلت الحبل وانخفض عدة سنتيمترات.. ثم أتبعها بعدة سنتيمترات أخرى.

ثبتت جينيا مكانها. صوت غريب يتقاطع مع صوت الموسيقى. خبطات؟؟ نعم.. نعم.. هذه خبطات.. فجأة استدارت ناحية الشباك ودوَّت منها صرخة، راحت تجرى على الشباك لتفتحه. كلبشت أصابعها فى سترته بقوة جبارة وسحبت عامل المدفأة داخل حدود الحجرة. فك حبل الأمان حول خصره وخر على الأرض لا حول له ولا قوة. ارتمت بجانبه ترتعش.. وابتسم لها بدوره..

لم تستطع جينيا السيطرة على رعبها بعد..

- ماذا حدث؟!

- أول مرة فى حياتى ألعب دور الرجل الطائر..

- أى رجل طائر تتحدث عنه..؟!

- أنا سليم.

- لكن كان يمكن أن تسقط أو يصيبك مكروه..

- لكنى لم أسقط.. شكرا.. أسديتِ لى معروفًا هكذا بمنتهى البساطة. بالأمس كنت هناك وفحصت كل شىء. صحيح أن الحاجز فى حالة متردية، لكننى استعنت بالحبل لزيادة الأمان. استيقظت اليوم و.. استطعت أن أربط نفسى جيدًا، لكن..

وقبّلها..

لا تبكِى.

- أنا لا أبكى..

حاولت إقناع وجهها بالابتسام..

- شىء ما طرف عينى.

- يا ترى ماذا طرف عينيها؟

قبّل عينيها المبللتين بالدموع بحنان ونهض واقفا.

- اذهبى وأشعلى المدفأة.

- الآن؟ أخيرا؟ ممكن! نعم.. نعم.. اه.. أنا مدينة لك بنقود.

نهضت هى الأخرى وأسرعت ناحية الرف وأخذت المفتاح. سقط ألبوم قابع على الرف وتناثرت منه بعض الصور الفوتوغرافية. لم تشغل جينيا نفسها بما حدث، تقدمت من الخزانة المعلقة على الحائط وفتحت أبوابها. مازالت أعصابها مشدودة. أصابعها ترتعش بعض الشىء.

- والآن.. كما اتفقنا.. اثنان؟ أليس كذلك؟؟

فى الخزانة عدة لفات من النقود، حوالى خمسين ألف.

راح وراءها عامل المدفأة: ياه.. هل بعتم المنزل الريفى وازدادت ثروتكم لهذه الدرجة؟! أبعدى نقودك هذه.

لا أريد شيئا..

داس بقدمه الألبوم المبعثر على الأرض فانحنى يلملم أشتاته. عندما استقامت قامته حملق فى جينكا طويلا وقد تحول إلى مخلوق آخر تماما.. كأنه خلع قناعا واصطدمت عيناها بمنظر مريع.. وجه شاحب شوهه الشر، عينان

ضيقتان، كل معالمه اتحدت لتجسيد عالم جديد غريب من العدوانية. حاولت التراجع نحو الخزانة..

- ماذا بك؟ ماذا حدث لك؟؟

مد يده إليها بصورة سقطت من الألبوم..

- من أين تعرفين هذا؟؟

- ما هذا؟!!

- هذا الرجل فى الصورة؟ كيف وصل إلى هنا؟!!

هذه صورة قديمة، التقطها واحد من أصدقاء الطفولة لزوجها. بجانبه تقف فتاة وشاب يمسك قيثارة.

- هل تعرفه؟

- من أين تعرفينه أنتِ؟

عانى كثيرا فى كبح جماح ثورته..

- تكلمى.

خرجت الكلمات من بين شفتيها بصعوبة: أعرفه.

- سافل..

اقتلع الصورة من يدها.

انتفضت فجأة كأنما لدغها ثعبان.

- على فكرة بأى حق..

- قاتل.

- يا إلهى.. ماذا تقول؟!!!

- أنا لم أقل شيئًا بعد.. على قيد الحياة.. القذر، السكير.. يقولون إن زوجته جميلة.

- أشكرك.

دنا منها: لا أفهم.

- أنا زوجته.

- ماذا؟! التليفون! ما هو رقم تليفونك!؟

- ٢٠٢٣٠٩٣

تراجعت نبرة صوته: تماما.. هذا هو رقم تليفونه.

أحست جبينيا بضعف قاتل. حتى لو تعرضت للموت فهى لا تقوى على الحركة.

تنقل عامل المدفأة بعينيه بين المدفأة والخزانة والصورة. اتجه إلى المائدة واصطحب معه زجاجة الفودكا إلى الشرفة، وافترش الأرض موليا ظهره للسور. ترددت هى قليلاً ثم اقتربت وجلست بجانبه.

تجرَّع عامل المدفأة الزجاجة وناولها لجينيا دون كلمة واحدة.

- ماذا هناك؟

توقفت لحظة ثم شربت رشفة فودكا .

- كيف يمكن أن أحكى كل شىء..؟؟ كنت على علاقة بهذه الفتاة. أحببتها. أعرف أيضًا صديقتك سفيتكا منذ زمن بعيد. كانت سكرتيرة نائب رئيس الحزب. أما ابنه، زوجك.. فكان زير نساء خسيسًا منتشرًا على مستوى المحافظة كلها.

حاولت اللجوء إلى السخرية: وهل كنت تغير منه؟؟ انتظر.. انتظر.. هل قلت إن سفيتكا كانت تعمل..؟

- نعم.. عند والد زوجك. سكرتيرته. ألم تعرفى ذلك؟

- لم أعرف. أكمل..

- يومًا ما نظموا حفلا ساهرا. يحتفلون بمناسبة ما. وجهوا الدعوة لحبيبتى. هناك بدأ رجلك ينصب حبائل الغزل حولها. باختصار كان الشاب مستعجلا، فألقت نفسها.. من الشباك.. طالما أكدت لى أن لديها القدرة على الطيران. مثلك تماما.. بعدها أبعد الأب ابنه عن المدينة، لينقذه من مصيره. أبعده إلى هنا فى موسكو. لكن إذا سألت نفسك عن السبب؟ فلأنكم تمتلكون ما يكفيكم من القذارة..

عاد يتجرع زجاجة الفودكا..

- فيما بعد وصلتنا أخبار أن هذا المحترم لقى مصرعه فى حادث سيارة. لم أصدق حرفا واحدًا وبدأت فى البحث عنه، لكنى لم أجده. هل تفهمين؟

هزت جينيا رأسها كالآلة الصماء، لكنها غالبا لم تستوعب شيئا. تسربت إليها كلماته لكن ببطء.. وكأنها قادمة من مكان سحيق.

- لا يوجد فى موسكو رجال يحملون اسم هذه العائلة. إلى أن جاء يوم شاهدت فيه سحنة مألوفة لى فى

التليفزيون. لكن اسم عائلته مختلف. ربمـــا يكـــون اســـم عائلتـــك أنت؟ كان يدلى بحديث. يبدو أن بلادنـــا ســـتندثر بـــدون أفكـــاره العبقرية.. شددت الرحـــال إلـــى موســـكو ووجـــدت الســـكرتيرة نفسها.. سفيتكا. تولت شحنى بما فيه الكفايـــة، لكنـــى لـــم أخبرهـــا طبعًا عن سبب حضورى.

- سفيتكا؟ صـــديقتى ســـفيتكا!! أنـــا لا أفهـــم أى شـــىء. لابد أنه يخلـــط الأمـــور. كيـــف إذًا.. فـــى المعـــرض.. يومهـــا قدمتها أنا إلى زوجى وهما كانـــا يعرفـــان بعضـــهما فعـــلا منـــذ زمن طويل..؟!!! شىء سخيف. لكنه يقـــول إنـــه حضـــر لهـــدف ما..؟!!

تبدل صوت جينكا حتى إنها لم تعرف نفسها..

- ولماذا جئت إلى هنا؟

- لماذا؟!! لأقتله.. على الأقل أمشى فـــى طريـــق واحـــد حتى النهاية. أشفى غليلى بالثأر. ثأرها وثأرى. كـــل ليلـــة كنـــت أذهب فـــى المســـاء إلـــى وزارة الماليـــة. أراقبـــه.. أى ســـيارة يركب؟ أين يذهب؟؟ انظرى إلى هـــذه النكتـــة.. أجلـــس أنـــا فـــى منزله، وهو يفر بعيدا عنى.

زأر عامل المدفأة بمنتهى الحقد المكبوت، وعاد إلى زجاجة الفودكا مرة أخرى.

تحاملت جينكا على نفسها لتنهض وتتكئ بيدها على سور الشرفة..

- والآن جاء دورى لتسمعنى.. يومًا ما حكى لى زوجى عن هذه الفتاة. هو أيضا كان يحبها. فى هذه الليلة تحرش بها والده، فرمت نفسها من الشباك.. بعدها قصد الرجل تسريب أخبار أن ابنه هو السبب فى كل ما حدث. وإلا سيكون الثمن الإطاحة برأس الأب من فوق كتفيه.

حنَّت جينيا لسخريتها..

- لكن الله عاقبه، ودون الحاجة لتدخلك..

- الأب؟!!

- تعرض لحادث وفشلوا فى إخراجه من السيارة، فاحترق حيا.. ألم تعلم ما حدث؟

أجابها على الفور: لم أعرف..

- وقع الحادث فى موسكو. إياك أن تمس زوجى أبدا. ليال طويلة وهذه الأحداث لم تفارق خياله مطلقا..

تأملت الصورة..

- هذه الفتاة!

- جينيا.. لا أطيق البقاء هنا أكثر من ذلك. هيا بنا!

فجأة تسارعت خطوات عامل المدفأة.

- هيا بنا إلى منزلى.

زاد معدل اضطرابها كثيرا.. نعم.. نعم.. ستذهب. طبعا. لا يمكن أن أتركه وحده الآن. لا.. إنها تكذب.. هى نفسها لا تريد، ولا تجرؤ الآن على البقاء وحيدة. وحيدة مع أفكارها. ألقت جينيا ببعض الأشياء داخل حقيبة يدها واتجهت إلى المصعد. أغلقت الباب خلفهما. باب الخزانة ظل مفتوحا. مرة أخرى لمعت عدسات النظارة المعظمة فى المنزل المقابل من خلف الزجاج المبلل بقطرات المطر..

يبدو أن العمارة التى استأجر فيها عامل المدفأة شقته لا تبعد كثيرا. رفعهما مصعد قذر عفن الرائحة إلى الدور العاشر. كان يمكن لهذه الشقة الاستمتاع براحة أكثر لولا أن

صاحبها رجل أعزب. مجموعة من الكتب والصحف ملقاة في أحد الأركان. لا يوجد أى شيء فوق الفراش إلا الغطاء. الشبابيك محرومة من الستائر. معلق عليها فقط ملاءات سرير. يبدو أن مصدرها الأصلي كان هذا الفراش الوحيد. فى المطبخ قابلتها أكوام من الأطباق القذرة داخل الحوض.

أدارت جينيا رأسها فى كل اتجاه. لم تخيفها هذه الحالة المستشرية من الفوضى. هى، هذا الرجل، هذه الشقة. بالنسبة إليها كل هذه العناصر تجمعها الغربة، فلا يوجد أى رابط بينها. قررت الخروج من هذه الشقة وفتح أبواب عالمها الذى تعرفه وتسكنه. لكنها لم تستطع الإجابة عن سؤال وجهته إلى نفسها.. ما السبب الذى جاء بها إلى هنا؟ هل كانت فى حاجة إلى أحاسيس بهذا القدر من الانفعال؟ لماذا تشعر بالراحة مع هذا الإنسان الغريب؟ ربما لأنها معه اقتربت من نفسها أكثر! بقى من نسختها القديمة قناع الرفاهية الذى التصق على وجهها تقريبا بالتقادم فى هذا البيت. بيتها.. هل تشعر هنا أنها إنسان واحد يعيش حقيقته؟؟!

تمددت على الفراش بملاءته النظيفة التى وجدتها فى الكومودينو. فرض الصمت نفسه عليهما تماما..

بادرت جينيا بقطع هذه الحالة أولا..

- وهذه السكرتيرة.. ماذا تمثل بالنسبة لك؟

استرد عامل المدفأة روحه الساخرة: امرأة..

- نمت معها؟

- أكذب؟

- اكذب.

- لم يحدث.

- مفهوم.. منذ زمن طويل؟

- أكذب؟

- اكذب.

- منذ زمن طويل.

- مفهوم.

اعتدلت على الفراش.

- ماذا فهمت؟ ماذا؟؟ أنني كنت أعرف أنني سأقابلك؟ وأن سفينتكا.. تعرف لماذا جئت، و.. دون أى كلمة

أخرى.. من السهل عليها أن تخبرنى أنك تعيشين هناك، وأنك أحيانًا تبقين بالبيت. لا.. لم تخبرنى بهذا كله إلا منذ وقت قريب فى أثناء رحلة بحثى عنه، وأننى يمكننى كسب بعض المال بالعمل عند امرأة جميلة، تحتاج لمدفأة. استرحت الآن وعرفتِ كل شىء. رأسى ينفجر.. ماذا أفعل الآن؟

- غيِّر الموضوع..

نهضت وشدت قامتها..

- قل لى كلامًا جميلا.

- هذا طلبك؟

- انظر إلى نفسك. كلك على بعضك.. يعنى..

- تعالى هنا.

انسجمت ضحكاتهما معا.

اندست جينيا تحت البطانية وتركت رأسها تعثر على كتفه بنفسها.

بعد برهة قصيرة..

- وماذا ظننتِ أنت بى؟

- هارب من مستشفى المجانين.. سفاح.. سيقتلنى على الفور ويأكلنى.

- بالتأكيد جازفتِ بنفسك.

جذبها بين ذراعيه.

كيف يتصرف أى رجل يتصبب عرقًا وأنتِ لم تتعطفى عليه بأى سندوتشات ثلاثة أيام كاملة. لكِ أن تتوقعى أى صفاقة يمكن أن تنتج عن الجوع..

انقطع عن الكلام عدة لحظات..

- أنتِ تشبهينها جدا.

- شكرا..

- لا تغضبى، فأنا لم أحبها. ألا تفهمين؟

- اليوم أنا لا أفهم أى شىء. هيا ننام.

- ننام..؟! هيا.. لكن بعد قليل، لن أسمع اعتراضك؟

تسللت يده تحت البطانية فدفعتها. افتتح حفل تدليلها وأمعن النظر فى عينيها. أغلقتهما جينيا لتستمتع بنشوة اللذة، فأصدر لها أوامره..

- لا.. انظرى.. انظرى إلىّ!

تماما كالمجانين المتعطشين للجنس.. يعذبون ضحاياهم ويرتوون من كل بحار العذاب الهائجة فى قيعان عيونهم.. كان يغدق عليها كل حنانه وشوقه بهذا المنطق. كان يريد أن يتلذذ بمشاهدة كيف تموت من الحب وكيف تولد منه من جديد..

ناما متلاصقين وكأنهما شخص واحد. وقع ضوء القمر على الوسادة. اقتربت عقارب الساعة من السادسة. فجأة قفزت مكانها فى السرير. أى حلم.. ما أغرب الحلم الذى رأته.. رأت يدا تلبس قفازًا وتسرق النقود من الخزانة المفتوحة وترصصها فى حقيبة رياضية.. أين رأت مثل هذه الحقيبة من قبل؟ آه.. نعم.. هذه حقيبتها التى استعارتها سفيتكا مرة ولم تعيدها. قامت جينكا وبدأت تستعد للخروج بسرعة. وانطلقت ناحية الباب.

- ماذا حدث؟! أين ستذهبين؟

- إلى بيتى، مسألة ضرورية.

- هل حدث شىء؟

- نعم.. لا.. لا أعرف.. سنرى.

- ما الذى يحدث؟!!

نهض هو الآخر وارتدى ملابسه.

- انتظرى. سنذهب معا.

- لا.. سأذهب وحدى. لا تقلق. كل ما هنالك أننى رأيت حلمًا مجنونا. وأنت.. تعال فى الصباح.

بكل طاقتها شقت طريقها خارج الشقة، لم تنتظر المصعد وأكلت السلم قفزًا إلى أسفل. أنفاسها تتلاحق فى هذا الجو الخريفى البارد. دقائق قليلة ووصلت إلى بيتها جريا واستخدمت المصعد هذه المرة للصعود. المفتاح.. أين المفتاح؟ أخيرا عثرت على سلسلة المفاتيح وفتحت الباب. لم تخلع المعطف واستكملت جريها نحو الخزانة. وجدتها فارغة..

- يا ماما..

دفنت جينيا رأسها بين يديها.

- ما هـذا؟.. هـذا حلـم..؟؟ لا.. لا يمكـن أن يكـون هذا حقيقة. سفينكا؟! حبيبتى، أقـرب النـاس إلـى قلبـى.. يجـب أن أسرع إليها.

وفى لمح البصر.

من جديد راحت تعدو ناحيـة البـاب. وإذا بهـا تصـطدم بزوجها وحقيبته.

- جينوشكا.. كيف حالـك! لمـاذا ينفـتح البـاب علـى مصراعيه؟ أيـن سـتذهبين فـى هـذا الصـباح البـاكر؟؟ هـل ستبدأين حياة جديدة مرة أخرى؟؟؟

وضع الحقيبة على الأرض.

- وصلت في وقتك. هيا بنا بسرعة.

- أين سنذهب؟ ماذا يحدث؟؟

تلعثمت الكلمات علـى شـفتيها: سـنذهب إلـى سـفينكا. أحتاج هذه الزيارة. هيا معى.

وأمسكت يده.

نظرة خوف بدت فى عينيه: إلى سفيتكا؟ ولماذا؟ ماذا سأفعل هناك؟ ما خطبك!! هل يمكن أن تجيبى عن سؤالى.. كيف حالك؟

ضغطت على يده التى تمسكها أصلاً وجذبته مرة أخرى ناحية الباب.

- هيا

- جينيا.. هل أنتِ بعقلك؟

نظرة اضطراب زادت فى عينيه.

بصوت مرتفع وبمنتهى الحزم: ستأتى معى الآن.

قالتها وخرجت من البيت.

صرخ فيها: اللعنة على كل شىء..

لحق بها وأغلق الباب بعنف.

- هيا بنا!

فى العمارة المقابلة تسكن سفيتا. وفى الطابق السادس أيضا. انتقلت إلى هنا منذ عشر سنوات بعد تعارفهما فى المعرض. بصعوبة بالغة استبدلت شقتها وحققت حلم

حياتها لتعيش بجانب صديقتيا الجديدة. ضربت جينيا جرس الباب. فتحت سفيتكا فورا. كانت ترتدى روبا لامعا وصندلا.

ابتسامتها تحمل تعبيرًا غريبا: أيها الناس.. من يصدق ذلك؟! وبدون حراسة!!

أزاحتها جينيا جانبا واندفعت إلى الحجرة. طافت في جميع الاتجاهات. توقفت عند المنضدة وبدأت تفتح الأدراج.

سألته سفيتا باهتمام وهى تراقب تصرفات صديقتها:
- هل أصبحت على هذه الصورة منذ زمن بعيد؟!!

الزوج يهرش رأسه: لا أعرف.. فقد كنت خارج البلاد فى مهمة عمل.

- آه.. نسيت.. إنها تعد لك مدفأة، هل تعتقد أن قالب طوب صدمها في رأسها أم أن هناك شيئا آخر؟

وأخيرًا صرخت سفيتكا: جينكا.. عما تفتشين؟ ممكن تقولى لى.

انحنت جينيا فوقعت عيناها فجأة على حقيبتيا مختبئة فى صندوق الخضروات. الحقيبة نفسها. فتحتها وأغلقتها عدى

الفور. قطبت حاجبيها. النقود هناك.. وضعت الحقيبة على كتفها وغادرت الحجرة إلى الردهة.

- سفيتا.. سامحينى.. كنت أفتش عن هذه الحقيبة عندك.

ثم صعقت صديقتها بنظرة تحد!!

حظ أسعد فى المرة القادمة..

- كيف.. أنتِ.. أعيديها لى! أعيديها لى حالا!!!

حاولت سفيتا بالفعل خطف الحقيبة من فوق كتفها.

- سفيتا.. جينيا.. اهدآ يا بنات.. تتعاركان بسبب حقيبة حقيرة؟! سفيتا.. لا تغضبى.. لكن هذه فعلا حقيبة جينيا واشتريناها معًا. سنشترى لك واحدة أخرى.

دفع الزوج سفيتلانا بعيدًا ووصل إلى السلم.

- جينيا.. هيا إلى البيت.. أنا منهك من السفر، وأنت هنا تديرين دار حضانة وتشغلين نفسك بلعب عيال؟! بشرفى..

يبدو أن ما حدث كان له تأثيره المرح عليه.

استدارت جينيا وأصبحت فى مواجهته..

- لا تُصفِّر.. لقد أفلسنا.

فرضت الابتسامة نفسها على جينيا وهى تعدل الحقيبة على كتفها.

دخلت بيتها. المدفأة تعمل وتشعل المكان نورا. عامل المدفأة يقف بجانب الخزانة ممسكا ببعض الصور فى يده.

سبقت الزوج أقدامه ناحية الخزانة، أطل داخلها ثم عاد إلى الخلف.

- فارغة.. فارغة.. لص! لص!

أخرج أنبوبة غاز من جيبه وهاج ناحية عامل المدفأة رأسا، فى الوقت نفسه أخذ العامل دورة كاملة فاندفع الغاز السام فى الناحية العكسية وتبعثر فى وجه الزوج.

لص! بسرعة! استدعى الحرس..

أغلق الزوج باب الحمَّام على نفسه وأحكم المزلاج من الداخل منهمكاً فى سعاله المتلاحق.

اقتربت جينيا من الباب.

- لماذا تصرخ؟!! هذا عامل، أصلح المدفأة. وأنا التى أعطيته المفتاح.

أفرج الزوج عن نفسه من الحمَّام وحاول الحفاظ على اتزانه، أخذ يكافح فى تزييف تعبير ثقة بالنفس على وجهه لا يبشر بالخير أبدا.

- تقولين إنه بنى لنا مدفأة؟.. أنا الآن سـ.. هذا العامل..

عدَّل اتجاهه ناحية عامل المدفأة مرة أخرى.

- لص! أين النقود؟

- ابتعد عنه! ابتعد!! حكيت له كل شىء عن والدك. لم تعد أنت هدفه. اهدأ. فهو لا يحتاج نقودك. ها هى..

- فتحت له الحقيبة المعلقة على كتفها.

أموالك هنا.

همهم الزوج ببلاهة: لم أفهم.. لا أصدق.. كيف.. وكيف أنت.. هذه الحقيبة.. كيف؟

- ستفهم كل شيء.

تقدمت من عامل المدفأة وراحت تركز بصرها في النار.

صوت خطوات قادمة أجبرها على الالتفات خلفها. عبرت سفيتا باب الشقة المفتوح وبيدها لفة.

- نسيت جواربك عندي..!!

أصدر الزوج صوتا كالفحيح وهوى بالتصوير البطيء في فوتيه منقذا رأسه بيديه.

ما هذه العادة؟ دائما تبعثر جواربك في كل مكان بالشقة. منذ أسبوع واحد فقط جن جنونه من موقف مشابه كهذا..

أفرغت سفيتا اللفة وأسقطت جواربه عند قدميه.

ردت عليها جينيا بنظرات زجاجية لا حياة فيها .

سفيتا مستمتعة بكل ما يجري. اقتربت من عامل المدفأة

- أما أنت.. رجل بارع جدا..

بلا حياء مسحت جسده بيدها سريعا.

- أحسنت. قمت بواجبك كما ينبغى..

ضاقت عينا عامل المدفأة غضبا: أى واجب..؟

- الآن تساوت الأنوف.. تمارس الجنس مع سيدتنا التى لا يحلم أحد ببلوغ عالمها، مقابل حصولك على معلومات عن المتسبب فى قفز حبيبتك من الشباك؟! لكن يبدو أننى تأخرت، هل سويتم المسألة بدونى؟!

بعينيها حاصرت جينيا عامل المدفأة.

- أنا إنسانة شريفة. خذ نقودك مقابل عملك.. الحقيقة بذلت مجهودا ملموسا.. ثلاثمائة دولار كما اتفقنا.

وضعت له سفيتا النقود فى حزامه.

- خذ يا صديقى.

هز عامل المدفأة رأسه. سمعوه يسب بصوت خفيض ووضع النقود في جيب الجينز .

بلغ الزوج الذروة: عاهرة! لصة!

- أنا لصة؟ وأنتم جميعا من طينة أفضل؟!! لماذا تملكون كل شىء؟ بأى حق؟ ولماذا أنتِ بالذات؟

وتفرغت لجينيا.

- بماذا تتفوق هى علىّ؟ انظروا إليها كيف تبدو! آه منكِ أنتِ..! يا إلهى!! نعم.. عشر سنوات كاملة وأنا أعاشر زوجك! هو الذى اشترى لى هذه الشقة، جميع مأمورياته مزيفة وينامها كلها عندى.. لأنه يُستنفد منك، من جمالك المنبعث من وحى ربات الجمال، من السخرية، من الدهاء الذى يفوق الوصف. أما أنا فأمتلك كل شىء.. كل شىء بسيط!

انشغل عامل المدفأة بالنظر إلى جينيا التى تسمرت أمام المدفأة. عضلة واحدة فى وجهها لم تتحرك. أخذت بعض النقود من اللفة داخل الحقيبة، اقتربت من سفيتلانا وبعثرتها فى اتجاهها

- خذيها.. هدية.. وأنت..

استدارت إلى زوجها.

- منى لك هدية أخرى.. أما هذا..

أشارت إلى عامل المدفأة.

- هدية ثالثة.. لكنك ستأخذها وتتصرف.

هلوست ضحكات سفيتلانا: آه.. آآآآه.. كم أنتم نبلاء.. هل تعتقدين أننى لن أقبلها؟!!!

استأنفت جينيا سخريتها: خذيها.. أظن أنك ستأخذينها.

حاول الزوج أن يمنعها.

- جينيا.. سأشرح لك كل شيء.. ليس الأمر كما يبدو لك!

فقدت جينيا حاسة الاستقبال تماما. فهى تتحرك بينهم وكأنها تحلم. يد شخص ما تحاول أن تمنعها، لكنها قاومت ونفت نفسها فى الشرفة وأغلقت الباب خلفها..

خلف الحائط الزجاجى بقى الزوج وعامل المدفأة معا. الزوج يعوى ويضرب الزجاج بيده.. لكن كل هذا لم يعد مهما. أخذتها قدماها ناحية السور وتطلعت إلى أسفل، فتحت ذراعيها على وسعهما وكأنها تستعد للطيران. هفهفت أكمام فستانها فى الهواء كما لو كانت أجنحة حمام طائر..

هبط عليها حارسها وكأنه وُلد من ضوء الصباح. لم يكن قريبًا بهذه الدرجة من قبل..

- هذه هى قمة عالمك، لماذا تحاولين تعطيل عجلة الحياة؟

- فى الدنيا قاذورات لا حصر لها ولا عدد! لماذا؟

- فى الدنيا أشياء كثيرة مهملة فى الطريق مغطاة بالقاذورات، لكن ربما تهمك واحدة منها. خذى بيدها ونظفيها.

- أظن أنى جربت هذا من قبل.

- والنتيجة؟

- يبدو أن التوازن حولى عمره قصير، كل شىء انهار.

- ألا يكفيك التوازن داخل نفسك فقط؟

- خسرت كل شىء..

- لا تخافى من الخسارة، فقد تعلمتِ خبرات جديدة.

- آآآآه.. تعبت جدا!

- هذا يعنى أنك بلغت قمة عالمك.

- لا.. لا أريد أن أتمادى فى ذلك، أنا قوية، ومازلت أحتفظ بكل طاقتى وأستطيع أن.. أن..

.. جنيشكا.. جنيشكا..

صوت زوجها يأتيها من بعيد جدا.

- جينيا.. أيتها النائمة المسكينة! كيف طاوعك النوم كل هذا الوقت؟

فتحت جينيا عينيها وأفاقت من سباتها العميق.. العميق وحلمها الطويل..

يقف زوجها أمامها بشوشا. استقرت على فوتيه الشرفة وقد التف حولها غطاء وبرى بعناية.

- هل نمت؟!!

- نومة أبدية! كنت تصيحين.. السائق.. ألا تفهموا.. يجب التخلص منه! فكرت ألا أوقظك لكن الوقت أزف. استعدى للخروج.

- إلى أين؟!

رفع الغطاء.

- استيقاظك فى هذا الوقت أمـــر ميئـــوس منـــه.. ألــيس كذلك؟ طائرتك بعد ثلاث ســاعات. ستســافرين إلـــى ابنتنـــا فـــى لندن. هل تذكرتِ أخيرا؟ هيا.. بسرعة إلى مطار شريميتيفا..

نهضت هى.

مال عليها زوجها وضمها بين ذراعيه.

- طفلتى الحبيبـــة.. نمـــتِ أنـــت وجلســت أنـــا أتأملـــك وأقول لنفسى "أنا زوج سعيد"..

الزوج: هذا يعنى أننا اتفقنـــا.. يمكننـــا البـــدء غـــدا فـــى العاشرة.

ماذا؟ فى الثامنة؟ لا.. العاشرة أفضل. تكـــون جينيـــا قـــد سافرت. النظام عندى مهم جدا. أمامكم شـــهران فقـــط لا غيـــر.. أريد أن يكون كـــل شـــىء جمـــيلا، أوكـــى؟ إيفـــان إيفـــانوفيتش أوصانى بك كثيرا. أتمنى ألا أندم. إلى اللقاء غدا.

وضع الزوج السماعة وأخذته قدماه إلى الشرفة..

أمام عينيـــه كانـــت العاصـــمة موســـكو تغمـــض عينيها وتنام هادئة بكل فخر..

المؤلفة فى سطور:

ناتاليا فيكو

ولدت الأديبة الروسية د. ناتاليا فيكو بمدينة لندن في العاشر من شهر أغسطس، قضت هناك ست سنوات قبل أن تنتقل مع أسرتها إلى فيينا لتقضى هناك أربع سنوات أخرى. ثم استقرت في موسكو منذ عام ١٩٦٥ وحتى وقتنا الحالى. أنهت دراستها عام ١٩٧٧ فى المعهد الحكومى "التاريخ والوثائق" بكلية "الوثائق التاريخية "، وفى ذلك الوقت كان نظام التعليم فى الاتحاد السوفيتي سابقًا يقضى أن يضم المعهد عدة كليات، وبعد انهيار الاتحاد تحولت كل المعاهد سابقًا إلى جامعات حاليا. وبعد مرور عامين سجلت ناتاليا رسالة الدكتوراه بقسم "الهيكل الحكومى والمنظومة الاجتماعية فى روسيا قبل الثورة" الذى تحول الآن إلى ما يسمى "الجامعة الروسية للعلوم الإنسانية". وحصلت على درجة الدكتوراه عام ١٩٨٢ فى زمن قياسى، بعدما تقدمت برسالة ناقشت فيها "آليات الإدارة الداخلية لمدينة موسكو خلال الفترة ما بين

١٩٠٥ حتى عام ١٩١٢". عملت في دار نشر "دائرة المعارف السوفييتية" التابعة لمركز الأبحاث الثقافية بوزارة الثقافة السوفييتية سابقا منذ عام ١٩٧٣ حتى عام ٢٠٠٠، لتتفرغ منذ ذلك الوقت تمامًا للتأليف والإبداع. وفي الوقت نفسه عملت لمدة ثماني سنوات بدار نشر "الموسوعة الدولية" منذ عام ١٩٩٢ وحتى عام ٢٠٠٠، وهناك مارست تخصصها في كتابة المقالات التاريخية خاصة فيما يتعلق بفترة ما قبل الثورة البلشفية عام ١٩١٧، بالإضافة إلى توليها مهمة صياغة وتحرير المقالات بأقلام الكتَّاب الآخرين. وأخيرًا تقدمت للدراسة مرة ثانية بمعهد الاستشراق التطبيقي في موسكو، وحصلت عام ٢٠٠٣ على شهادة دراسية في "علم المصريات"؛ عشقها الأول والأخير.

المترجم فى سطور:

على فهمى عبد السلام

* بكالوريوس الهندسة فى الميكانيكا من جامعة الإسكندرية (١٩٧٠)، وماجستير سباكة المعادن من معهد التبين بحلوان (١٩٧٢). ثم دكتوراه الفلسفة فى تكنولوجيا السباكة من معهد موسكو للصلب والسبائك بروسيا – الاتحاد السوفيتى سابقا – (١٩٨٠).
* عين مدرسًا مساعدًا (١٩٨٠) وتدرج حتى أستاذ ورئيس قسم السباكة بمعهد التبين للدراسات المعدنية (١٩٩٢) ثم رئيس تخصص الفلزات غير الحديدية (١٩٩٨) ورئيس قسم هندسة التعدين والفزات بالمعهد نفسه (٢٠٠٤).
* مساعد مدير مركز الوثائق الفنية والجامعية فى بعثة التعاون العلمى لسفارة فرنسا (١٩٨٠).
* مدرس وباحث بكلية علوم الشمس والأرض والتعدين فى جامعة يولا بنيجيريا (١٩٨٣).

أهم الأنشطة والخبرات:

* أعد أكثر من خمسين بحثا علميا فى الدوريات والمؤتمرات العلمية.
* نشر له أكثر من خمسين كتابا بين المؤلفات العلمية وقواميس المصطلحات العلمية والترجمات من الروسية إلى العربية والإنجليزية، ومن الإنجليزية والفرنسية إلى العربية.

المحررة فى سطور :

نهاد جمال الدين إبراهيم

* ليسانس اللغة الألمانية والإيطالية من كلية الألسن جامعة عين شمس (١٩٩٢).
* دبلوم الدراسات العليا للنقد الفنى – تخصص النقد الأدبى – بامتياز (١٩٩٦).
* الماجستير فى موضوع "شخصية شهرزاد فى الأدب المصرى المعاصر" بامتياز (٢٠٠١).
* مذيعة هواء فى شبكة البرنامج الثقافى – قطاع الإذاعة.
* ناقدة مسرحية وسينمائية، نشرت العديد من المقالات المتخصصة فى المجالات الفنية والجرائد.
* تشارك فى مهرجانات: القاهرة السينمائى الدولى، والقاهرة الدولى لسينما الأطفال، والإسكندرية السينمائى الدولى، والإسماعيلية الدولى للأفلام التسجيلية والقصيرة، ولوكارنو السينمائى الدولى، وبرلين السينمائى الدولى.
* عضو لجنة السينما فى المجلس الأعلى للثقافة، وفى مكتبة الإسكندرية.
* عضو جمعية نقاد السينما المصريين E.F.C.A.

من إصداراتها:

* دراما بلا حدود (عن عبد الحى أديب).
* ديوان "كلام أغانى"، وديوان "شكلى مش زى الصورة" وكلامها بالعامية.

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .







راحت هى تتبختر بدلال بين الموائد، تمرق بينها وتعد ضحاياها التى اغتالها بريق جمالها الفاتن.. واحد، اثنان.. سبعة.. عشرة.. قبل وصولها للرقم الحادى عشر تراجعت، فالضحية هذه المرة زوجها. من المعروف أن الزوج لا يندرج فى قائمة ضحايا الجمال. لكن ذلك لا يمنع أن حتى زوجها فضحته ملامح وجهه التى انفجرت بإحساس الدهشة والانبهار، أما رفيقه، الدافع الأساسى وراء هذا الحادث فستانها الأنيق الذى صممته فيكتوريا أندريا نوفا شخصيا. والذى ضمته مع إخوته إلى دولابها المتخم أثناء مشاهدتها أسبوع الموضة. الحقيقة أنه مصنوع من أفخر أنواع القماش المطرز بخيوط معدنية، ونال نصيبه من التصميم المدهش الذى يدرك جيدا كيف تُدار لعبة الأنوثة.

الغلاف/ حسن كامل